تراجع الفكر المادى

الإسلام يتألق من جديد

محرراً للبشرية من العبودية

أنور الجندى

دار الهداية

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩م

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق
٩٩/٢٨٤٩
I.S.B.N.
977 - 5502 - 49 - 7

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفكر المادى يتراجع

على شبابنا المسلم أن يكون على وعى كامل بأن مفاهيم كثيرة قد أمكن تصحيحها خلال السنوات الأخيرة ؛ نتيجة تنامى الصحوة الإسلامية واتساع نطاق البحث حول « المسلمات » التى فرضت على المسلمين خلال القرنين الماضيين، وبخاصة ما أدخل منها إلى مناهج الثقافة والفكر تحت اسم (البحث العلمى) ولم يكن من العلوم فى الحقيقة .

وتلك هى قضية هذا العقد من القرن الخامس عشر التى يجب أن تشغل الشباب المسلم، وهى تنقية الثقافة الإسلامية وتحريرها من روح التبعية التى فرضت عليها خلال فترة الاستعمار ثم امتدت عن طريق النفوذ الأجنبى المسيطر على (التعليم والثقافة والتربية ووسائل الإعلام) حتى استطاعت حركة اليقظة الإسلامية أن تكشف هذه الأخطاء وأن تؤكد : أن معطيات الإسلام هى الأصول الحقيقية، سواء فى مناهج العلم أو الأدب أو الثقافة .

إن المفاهيم التى قدمها الفكر الغربى الوافد خلال العقود الماضية من القرن الرابع عشر الهجرى – سواء فى مجال العلوم الإنسانية أو القانون أو الاقتصاد أو التعليم التى فرضت على المسلمين والعرب ، ولم يقبلوها اقتناعاً بها والتى توزعت مناهج التعليم والثقافة – تبدو الآن وقد أصابها الاضطراب والتصدع؛ نتيجة التحولات التى أصابت المجتمعات والتى عجزت هذه المفاهيم عن أن تواكب التطورات أو تقدم البدائل، فانكشف أمرها وظهر عجزها لأنها من الفكر البشرى الذى يعتوره النقص دائماً مع تغير الزمن فيحتاج إلى الإضافة والحذف ، بخلاف الفكر الربانى الذى يظل دائماً قادراً على العطاء .

ويلاحظ أنه ما من منهج من مناهج الفكر الغربى التى عرفت فى خلال القرنين الماضين إلا وتبدو اليوم عاجزة مضطربة غير قادرة على العطاء ، وآية ذلك ما دعت إليه (الأمم المتحدة) منذ عامين فى مؤتمر عالمى كبير حين

طالبت الدول بمنهج اقتصادى واجتماعى جديد يختلف عن الرأسمالية والماركسية بعد أن عجزا عن تحقيق إقامة المجتمع الإنسانى الكريم القادر على إسعاد البشرية .

فإذا نظرنا إلى المذاهب المختلفة التى طرحت – سواء فى مجال العلم أو الفلسفة أو العلوم الإنسانية – نجدها تعلن فشلها العميق وعجزها وتضارب الآراء فيها.

فنظرية دارون التى كانت أولى نظريات الفلسفة المادية ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنها « فرضية » لم تدخل نطاق العلم التجريبى، وأن دارون لم يقدم شيئاً ثابتاً وإنما قدم نظرية مشطورة تحت عنوان « الحلقة المفقودة » أو الحلقة الغائبة التى لم يصل إليها العلم حتى اليوم وبعد مائة عام تقريباً ، ولكن الذى وصل إليه ما اكدته الحفريات من أن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً، وأن عظامه التى كشف عنها اليوم بعد ألف سنة تثبت أنه كان يمشى بقامته المستقيمة منذ خلقه .

وتوالت النظريات : نظرية فرويد التى أكدت أبحاث العلماء فى عشرات المؤتمرات العالمية فسادها ، والتى كشفت الدراسات عن أنها لم تكن خير النظريات فى ميدان التحليل النفسى ، ولكن قوماً وجدوا فى نظريتى دارون وفرويد منطلقاً إلى تدمير البشرية وإعلاء مفهوم الحيوان؛ فنشروهما وأذاعوهما . ولكن العلم الصحيح أكد فسادهما .

كذلك فقد تبين فساد نظرية الوجودية التى قدمها سارتر، وكشف العلماء عن أخطاء دوركايم الذى ادعى أن الجريمة فطرة وأن الأسرة ليست فطرة ، والتى أعلن أن الدين خرج من الأرض ولم ينزل من السماء .

كل هذه النظريات التى ما تزال تعد أسساً للثقافة الغربية وخدع بها المسلمون قد ثبت فشلها وفسادها .

وقد قام علماء المسلمين بدور واضح فى سبيل تصحيح هذه المفاهيم والكشف عن الفوارق العميقة بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية، وكيف أن العلوم الإنسانية هى نظريات وفروض وليست علوماً ، وأنها عجزت عن العطاء فى بيئاتها، فكيف بها فى غير بيئاتها .

ولقد كان حفياً بالمثقف المسلم أن يواجه هذه الدعاوى المدعاة بفهم عميق

وأصيل لمفهوم الإسلام للإنسان والكون والعلم .

والقاعدة الأساسية هى التوحيد الخالص والإيمان بأن الله تبارك وتعالى هو الخالق والصانع الذى يمسك هذا النظام كله ويديره لحظة بعد لحظة، وأن الإسلام هو الذى قدم للبشرية المنهج التجريبى الذى أخرجها من مرحلة التأمل والحدس والأسطورة إلى مرحلة جديدة، كما أنه هو الذى قدم للبشرية منهج المعرفة ذا الجناحين (الروح والمادة)

كما أعطى الإنسان مفهوم المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والسعى فى الأرض لإقامة المجتمع الربانى

ومن هنا فإن مفاهيم الغرب تختلف عن مفاهيم الإسلام القائمة على أن الإنسان روح ومادة ، ومسئولية وجزاء ، بينما يقوم الفكر الغربى كله والمطروح الآن فى أفق الفكر الإسلامى على مفهوم الفلسفة المادية التى لا تعترف بالألوهية أو الوحى أو النبوة أو الغيب أو الجزاء

ومن هنا فإن هناك فوارق عميقة تستدعى من المثقف المسلم أن ينظر فى الفكر الوافد نظرة فاحصة وأن يعرف أنه لا يلائم العقلية الإسلامية الجامعة؛ لأنه لا يعترف بالجانب الآخر من الإنسان وهو الجانب المعنوى والروحى، كما أن هذه الحضارة ينقصها البعد الربانى ، وأن هذه المجتمعات ينقصها البعد الأخلاقى

وإذا كانت العلوم الإنسانية قد عجزت عن العطاء فى بيئاتها فهى بالأولى أشد عجزاً عن العطاء فى المجتمع الإسلامى

* * *

إننا مطالبون بأن نستوعب هذه الحقائق الجديدة التى تكشف اليوم أخطاء الاستشراق وأضاليله ولا ننخدع بها ، ففى الوقت الذى يعلن فيه الاستشراق تغير جلده ، نجد دوائر المعارف المسمومة التى كتبها المستشرقون ما تزال بين أيدى المسلمين . وما يزال أساتذة الجامعات يرجعون إليها وإلى أمثال المنجد والموسوعة العربية والموسوعة الإسلامية وينقلون منها ، وهى جميعها مليئة بالسموم وتحالف

مفهوم التوحيد ، لقد بدأت هذه الكتابات من منطلق الخصومة التى أعلنها الغرب على الدين أساساً وعلى الإسلام جملة فى سبيل إثارة روح التشكيك فى حقائق الألوهية والوحى والنبوة والغيب وتقديم مفاهيم اللاهوت الغربى (المختلف اختلافاً كبيراً عن مفاهيم الدين المنزل على موسى وعيسى عليهما السلام) والفكر الوافد الوضعى .

ولابد أن يكون فى تقديرنا أن بعض مفاهيم الكتب القديمة قد كشف عنها علماء اللاهوت الغربيين ، بخاصة حول مفاهيم التجسيم ، والتعدد ، والخطيئة على النحو الذى قدمه الدكتور موريس بوكاى .

ومن ناحية أخرى تلك المفاهيم المسمومة التى قدمتها وأحيتها الفلسفة الماسونية من جماع الأساطير والخرافات والفكر الباطنى والوثنى والغنوصى ، وجميع الآراء المجوسية التى كشف الإسلام عن زيفها وتعرض لها القرآن الكريم فى عديد من المواقف وكشفت عنها اليقظة الإسلامية ، وبخاصة ما يتعلق بالفكر الإغريقى المتصل بأرسطو وأفلاطون والأفلاطونية المحدثة والإشراق ووحدة الوجود والحلول والعقول العشرة ونظرية الفيض وغيره مما أحياه بعض دعاة الفكر الفلسفى والمادى وما يزالون يقدمونه ويغررون به شباباً نقى السريرة .

وعلينا أن نفرق بين التصوف السنى والتصوف الفلسفى .

وعلينا أن لا نروج لما يسمى العقلانية التى تحاول أن تجدد الاعتزال والكلام، وكلها نظريات تختلف تماماً مع مفهوم أهل السنة والجماعة الذى يجب أن نتحراه ونلتزمه (متكاملاً بين العقل والروح) بعيداً عن هذه المصطلحات التى لم يعرفها المسلمون فى عهد النبوة والصدر الأول والتى تختلف عن مفهوم القرآن والسنة المطهرة ؛ ذلك لأن هناك محاولة اليوم لخداع المسلمين بالدخول إلى ساحة الفكر الوثنى والباطنى بإحياء الفكر الفلسفى الصوفى (ابن عربى والحلاج وابن سبعين والسهروردى) وأخيراً (النفرى) الذى أحياه أحد المستشرقين؛ ليضلل به النفوس المؤمنة ، وكل ما تطرحه هذه الأقطار يختلف تماماً عن مفهوم أهل السنة وينحرف بنا إلى متاهات ، وهناك اليوم من يدعو إلى أن يدرس الفكر الفلسفى كأدب عربى،

وأن تصبح كتابات ابن عربى والحلاج على أنها أدب متحرر من مسئولية العقيدة الإسلامية ، بمنطق أن ذلك يفتح الطريق أمام سموم الحلول والاتحاد ، وعلينا فى هذا المجال أن نكون على يقين من أن الأدب فرع من الفكر الإسلامى يجب أن يلتمس مفهوم الإسلام ولا يخرج عنه وأن يتمثل أخلاقيته وبعده عن الانحراف وإعلائه للنفس الإنسانية عن لحظات الضعف التى يسرف الأدب الغربى فى إعلائها والتركيز عليها .

لقد استعلنت منذ وقت غير بعيد مفاهيم الأدب الإسلامى وعلم النفس الإسلامى وعلم الاجتماع الإسلامى وعلم الأخلاق الإسلامى ، وذلك فى دائرة (أسلمة المعرفة) وتحرير العلوم الإنسانية من التبعية للفكر الغربى أو للمفاهيم التى تطرحها الفلسفة المادية

وعلينا أن نكون على يقظة من مفاهيم مسمومة تحاول أن تطرحها البهائية والقاديانية ، من تلك المحاولات الحديث عن الدين العالمى فى مواجهة الإسلام، واللغة التوراتية (لمحاربة اللغة العربية الفصحى لغة القرآن، وإنكار الجهاد (الفريضة الماضية إلى يوم القيامة) .

* * *

إن الفكر الوافد بماديته ووثنيته يتراجع الآن، وموجات الأصالة والعودة إلى المنابع تتعالى؛ لتهزم الخطط الزائفة وما يزال نور الإسلام يصعد ويتعالى ويكشف كثيراً من الحقائق؛ ليضع الإسلام وشريعته ونبيه وقرآنه فى الأفق المتألق

ولنعلم أن الزمن قد استدار ليستقبل الإسلام محرراً للبشرية من القيود التى استعبدتها، وأن علينا مسئولية كبرى للعمل فى هذا المجال

أنور الجندى

(مدخل)
تحرير الفكر الإسلامى من التبعية

إذا كان لنا أن نعبر عن الهدف الواضح والأصيل الذى تحتاج إليه المرحلة الحالية من الباحث الإسلامى لقلنا فى يسر وبساطة : هو تحرير الفكر الإسلامى من التبعية ، وإخراجه من محاولة احتوائه وصهره فى بوتقة الفكر الوافد الذى فرضته ظروف السيطرة الأجنبية منذ أكثر من مائة عام، والذى اتسع نطاقه حتى شمل جوانب السياسة والاقتصاد والاجتماع، ودخل إلى ميادين الإعلام والثقافة والتعليم، وامتد إلى التاريخ والتراث واللغة، وأوغل فى ميادين الفقه والسنة والتوحيد جميعاً .

والمنطلق للعمل يتركز فى محاولة تصحيح المفاهيم ، وتحرير القيم من سحابة مضببة تتمثل فى تلبيس واضح ، وتمويه ظاهر ، وتأويل شديد الخطر ، لكل ما طرحته كتابات الاستشراق والتبشير والتعريب والشعوبية فى أفق الفكر الإسلامى .

ومن هنا جاء التحذير الشديد لشباب الإسلام المثقف ، فى تناول هذه المراجع بحذر والبحث عن الكتابات الأصيلة التى تقدم مفهوم الإسلام الأصيل .

وهناك عشرات الكتب التى ألفها المستشرقون فى مختلف ميادين الفكر الإسلامى، وهى تنضح بالحقد والشبهات، وقد تسربت هذه الأخطاء إلى مناهج العلوم والآداب والتراجم والثقافة والتراث التى تقدمها المعاهد والجامعات فى البلاد العربية والإسلامية من خلال مؤامرة ضخمة تتمثل فى المناهج التى رسمتها مدارس الإرساليات والتبشير، ثم تحولت إلى مناهج المدارس الوطنية فى مختلف البلاد، واستشرت فى كتابات الثقافة، وقامت الصحافة بدورها الخطير فى إذاعة هذه المفاهيم، وقامت أجهزة الترفيه بحمل سمومها إلى حوار المسلسلات وبرامج الفن والأغانى ، وأدت هذه المفاهيم المنحرفة إلى إفساد العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة وبين الآباء والأبناء، وخلقت جواً من الرخاوة والاستخذاء والميوعة، فقد

تحولت مفاهيم الإباحية إلى نظريات تحمل طابع العلم ، سواء فى ميدان الوجودية أو الفرويدية أو العلوم الاجتماعية أو الفلكلور .

وهذا كله هو ما أطلق عليه مصطلح (التغريب) .

والهدف من التخريب هو القضاء على روح المقاومة والجهاد المتمثلين فى الحفاظ على التراث من الانصهار فى الأممية ، أو الاستسلام أمام المغريات ومحاولة احلال الأمن الخادع والسلام الكاذب ، وهو أخطر ما يرمى إليه أعداء الإسلام بعد أن حذر الإسلام المسلمين من التراخى واتباع الهوى ، وتجاوز الصلابة والعزم .

وقد حذرنا القرآن الكريم من أن نغفل عن المرابطة والقدرة على الردع فقال **﴿ ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم ﴾** .

إن هدف النفوذ الغربى هو صهر المسلمين فى بوتقه الحضارة الغربية حتى تزول ذاتيتهم الخاصة ويذهب طابعهم المميز ، وبذلك تزول قدرتهم على الصمود فى وجه الأعداء فيستسلموا بالقبول للواقع المعيش ، يحدث هذا فى الوقت الذى تزداد فيه حاجة البشرية إلى الإسلام يوماً بعد يوم بسبب فشل كافة الأنظمة التى فرضت على الأمة الإسلامية نتيجة نفوذ الاستعمار العسكرى والسياسى واستمرت بعد ان استقلت ولم تستطع بعد التحرر من نيرها مع فشل هذه الأنظمة وعجزها عن تحقيق التقدم أو الحياة الطيبة .

* * *

ولقد تكشف خلال العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجرى فساد وجهة المخططات التى قدمها الغرب بقصد تزييف مفاهيم الإسلام ؛ ولذلك فإنه لابد من موالاة كشف الوجهة المغشوشة للغرب فى نصائحه وتقديم خبرته للمسلمين فى عديد من الأمور ، وكشف حقائق الأمور التى تجاوزتها الكتابات الموالية للغرب والتى ترمى إلى أن يظل المسلمون فى خداع نحو الذى يعملون على تدميرهم .

أولاً : إن أخطر ما هنالك تلك النظريات المادية (التى هى مصدر أزمة الإنسان والحضارة المعاصرة) فالنظريات المادية ما هى إلا فروض بشرية وليست حقائق علمية ، وأنها نظريات وضعت فى وجه تحديات وظروف مجتمع معين ، ولم توضع بوصفها حلولا لمشاكل عالمية . فضلا عن أن معظم هذه النظريات قد سقطت علمياً بعد أن خدعت المسلمين عقوداً طويلة ، وفى مقدمتها (نظرية دارون ، نظرية فرويد ، نظرية دوركايم ، نظرية مالتوس) .

ثانياً : محاولة تمجيد الماضى الفرعونى والإغريقى والجاهلى العربى وبعث الأساطير وإعادة صياغة الوثنيات والفلسفات السريانية والمجوسية والباطنة وإحياء عشروت وزيوس وباخوس .

ثالثاً : التركيز على جوانب معينة هى التى تتصل بالفكر اليونانى وإعلاء شأن ما اتصل منها بالفكر الإسلامى كالفلسفة والاعتزال والتصوف الفلسفى ، وقد يصل هذا إلى حد الادعاء بأن سقوط الاعتزال كان بعيد الأثر فى تخلف المسلمين فى الوقت الذى يرى فيه الباحثون المسلمون أن المعتزلة هم مجوس هذه الأمة وأنهم خرجوا بدعوى العقلانية ومؤامرة خلق القرآن عن مفهوم الإسلام الجامع . أو الادعاء بأن الذين قاموا بالإسهام الفعال فى الفكر الإسلامى كانوا من الفرس أو اليونان أو الفينيقيين وليسوا من العرب .

رابعاً : الاقتحام على الإسلام والقرآن ، بالإنكار والتشكيك أو إثارة الشبهات فى محاولة لهدم الماضى والقديم والتراث وتدمير كل مقدساتنا تحت اسم البحث العلمى والعلمانية .

خامساً : لما لم يمكن تزييف النصوص جاءت فكرة التحريف فى الفهم والتفسير والتعليل والتأويل بحيث تتقارب مفاهيمه مع مفاهيم الغرب أو اللاهوت ، وقد بدأ الاستشراق هذا بوضع الحلول الغربية وألبسها ثوباً إسلامياً داعياً إلى نبذ التقليد ، وهذا يعنى إفساد الإسلام بتشويش قيمه ومفاهيمه الأصيلة بإدخال الزيف والتحريف تحت اسم التطور .

سادساً : التركيز على ظاهرة التأويل الخادع لاستغلال بعض النصوص من السنة وكتب السيرة وغيرها لتبرير أوضاع منحرفة وتعبين الكلمات للقول بأن ما يجرى الآن مشابه لما كان يجرى فى عصر النبى ، وأخطر ذلك ما يقال عن الغناء والموسيقى ، متعللين بالحديث النبوى الذى ورد عن رسول الله ﷺ من أن واحدة جاءت تضرب بالدف فى يوم عيد . الخ

هذه النصوص تتخذ الحديث ذريعة لتبرير تلك الصور الصاخبة الماجنة من الغناء والرقص الذى يخدش الحياء ويحطم الخلق الرفيع ، أو محاولة احداهن اتخاذ نص حديث رسول الله أنه كان فى البيت فى مهنة أهله دعوة ذريعة لدعوة الرجل فى العصر الحديث إلى أن يغسل الأطباق أو يكنس الغرف .

سابعاً : محاولة تبرير قيام نظام الربا بدعوات مختلفة مدعاة من التأويل أو الادعاء بأن المجتمع الإسلامى يحتاج إلى قبول الرخص لظروف التخلف .

ثامناً : محاولة الادعاء أن الفكر الإسلامى لم يكن أكثر من مترجمات اليونان، أو أن الحضارة الإسلامية لم تكن أكثر من جسر أو معبر عبرت عليه الحضارة اليونانية إلى الغرب ، أو أن التراث الإسلامى ليس إلا مترجمات الفكر اليونانى القديم وانكار الدور الذى قام به الإسلام فى بناء منهج التجريب والحضارة والادعاء بوحدة الحضارة العالمية .

تاسعاً : محاولة احتواء العقل العربى الإسلامى وإخضاعه للنموذج الغربى الوافد، والعمل على تشويه التيار الإسلامى .

عاشراً : المؤامرة على الخلافة الإسلامية ، الشريعة الإسلامية ، المقدس فى اللغة العربية ، واتهام الشريعة الإسلامية بالجمود وخلوها من المرونة ، والهدف هو كسر قيد الدين وكسر قيد اللغة .

الخروج من دائرة التبعية
١
الإسلام : الاغرودة الخالدة

كان التغريب يظن أنه قد أحكم خططه خلال أكثر من خمسين عاماً ؛ حتى أصبح قادراً على توجيه العقل الإسلامى إلى وجهة يمكن معها السيطرة عليه ودفعه إلى طريق التبعية بعد أن حاول إسقاط أجنحته فى الخلافة والحكم والوحدة السياسية الجامعة فى محاولة للقضاء على ذاتيته المتميزة وقدرته على الحركة .

وقد تمثلت هذه الخطة فى عدة خطوات :

(١) خلق روح التبعية للمفهوم الغربى للدين .

(٢) خلق تصور ببشرية القرآن ، وكأنما قد جرى اقتباسه من الكتب القديمة .

(٣) القول بأن الإسلام لم يقدم جديداً ، وأن القرآن ليس إلا صوراً من كتب سابقة.

ولكن هذه المحاولات كلها قد سقطت بعد أن خضع علماء ومفكرون غربيون كبار كانوا منظرين فى الفلسفة المادية وأذعنوا له ، حين اكتشفوا فيه سراً لم يكن موجوداً فى كتبهم ولا فى ثقافاتهم ، وكان هذا الشوط قد أفرز كتابات جديدة هزت الدوائر الغربية ، وأسقطت تلك الدعاوى المضللة ، وقد كان دخول علماء رياضيين أمثال الدكتور موريسون والبروفسور تاجانات باختون فى الإسلام من أخطر التحولات فى الفكر الغربى نفسه ، فقد تبين أن أوربا تبحث عن دين جديد ، وأن العلماء الغربيين يرون فى واقع المدنية الراهنة بذور الفناء الذى حملته فى أعماقها وأن مآلها إلى التدهور هو حقيقة واقعة تقترب رويداً رويداً ، مثلها فى ذلك مثل جميع المدنيات المادية التى قامت من قبل وفى مقدمتها الأمبراطورية الرومانية التى ملأت طباق الأرض خلال ألف وخمسمائة عام يقول (كاميل فلا مريون) فى كتابه (تعرف قدره الله فى الطبيعة) : لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما انتهت إليه حضارتنا من الانحطاط ؛ لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المشبعة بالأثرة

لا هم لها إلا أغراضها الذاتية .

أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال إلى جمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها وإلى الحصول على المجد عن طريق الغصب لا الكسب ، ومن المحزن أنه بينما نشعر ببناء قوتنا يوماً بعد يوم تنطفئ حرارة قلوبنا وتتضوع زهرة نفوسنا بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية .

ويقول هنرى بيرانجيه : (إذا كان النقد التاريخى قد حطم اليوم كل الأشكال المتحجرة فى المسيحية واليهودية فإنه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية ، بل اعترف باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، وهى تشهد بأن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه ، ففى كل جهة وفى كل زمان قد شوهدت حاجة الإنسان إلى الدعاء والعبادة والتضحية فى المعتقدات الدينية ، كما فى أرقى المذاهب الروحانية) .

ويعلق على هذه الظاهرة أحد الباحثين فيقول :

« إن الإنسانية تتجه نحو الكمال بقدم ثابتة ، وإن هذا الصراع الذى نشاهده من زوال أمم وقيام أخرى وإبادة طوائف ونشأة أخرى كأنما يظن الناظر أن العالم مدفوع إلى دمار محقق ، إنما هى خطى الإنسانية المتزنة وهى تتدرج نحو الكمال، إنه صراع ليبقى الأصلح ، والأصلح هو الدين الفطرى ، هو الاسلام ، هذا هو القرار الذى ستصل إليه البشرية بعد أن جربت كل الأديان والمذاهب وذاقت ويلات النظم البشرية الوضعية » .

نعم إنه الإسلام : الأغرودة الخالدة على مدى الدهور وإلى يوم النشور .

لقد كان الإسلام قادراً فى أشد مراحل ضعفه وتراجعه على أن يصمد ولا يستسلم لآية محاولة ترمى إلى تغيير طبيعته الخاصة وذاتيته الربانية ، وقد مضى فى إصرار يؤكد مفهومه الجامع (دين ونظام مجتمع) وعلى المحافظة على الطابع الخالص الذى لا ينصهر .

وقد فشل الغرب ـ ولا يزال فاشلاً أبد الدهر ـ فى السيطرة على العقل الإسلامى والوجدان الإسلامى ، بينما أصبح الإسلام قادراً على اقتحام وجدان الغرب ؛ لأنه يملك أقوى أداة لذلك وهى كلمة التوحيد الخالص المستمد من الفطرة .

إن كل معطيات الغرب ما هى إلا فروض وتصورات لحلول مشاكل قائمة فى الغرب نفسه وردود أفعال لتحديات موجودة ؛ ولذلك فليست أيدلوجيات الغرب مناهج حقيقية تصلح للبشرية ، أما الإسلام فغير ذلك تماماً ، إنه منهج جامع متكامل رحب الجوانب واسع الآفاق ، طليق الأبعاد ، قادر على العطاء مع المتغيرات دون حاجة إلى الإضافة والحذف ، وقد أثبت بالتجربة أنه أصلح النظم العالمية ، وقد أضاء نوره العالم ألف سنة كاملة قبل مرحلة الضعف الحالية ، وهو قادر على العطاء مرة أخرى إذا رفعت الحواجز التى تضعه فى دائرة التبعية وتفرض عليه التوقف ، وتحول بينه وبين الامتداد والانطلاق ، إنه ما يزال قائماً مع تداعى النظم الرأسمالية والاشتراكية التى لم يمض عليها إلا القليل . لقد نجح النظام الإسلامى فى وجه المتغيرات الاجتماعية قروناً طويلة وأقام دولة ذات سيادة عالمية بكفاءة ممتازة وأثبت صلاحيته فى جميع الأحوال ، فلا غرابة فى ذلك فإن أصوله منزلة من رب العالمين ، وهو قد جاء للعالمين جميعاً ، وقد وضعه الحق تبارك وتعالى فى إحكام شديد ليكون قادراً على مواجهة العصور المختلفة والبيئات المتباينة أما النظام الرأسمالى فإنه لم يستطع تحمل قيام الثورة الصناعية ، وأدى ذلك إلى الانفجار الشيوعى ، وحينما يقارن الباحثون المنصفون يرون أن الرأسمالية نظام أنانى، والاشتراكية نظام أشد أنانية ، فالدول الاشتراكية قد تحولت إلى رأسمالية الدولة سواء فى معاملاتها الداخلية أو الخارجية ، أما النظام الإسلامى فهو النظام الوحيد الذى يقوم على العدل والإحسان لجميع البشر ، وبذلك يصفى عوامل الظلم والصراع على طول قاعدة العلاقات الإنسانية ويبقى قابلاً للبقاء الأبدى

وهكذا يقف الإسلام فى العصر الحديث (بمفهومه الجامع الأصيل (منهج حياة ونظام مجتمع) فى مواجهة جميع التحديات المثارة والشبهات المطروحة والأخطار التى تهدد العالم عن طريق الفكر البشرى والأيدلوجيات والمذاهب والمفاهيم المادية والإباحية والوثنية ، يقف موقفاً صلباً مضيئاً مشرقاً كاشفاً كل

أسباب الزيف والفساد والخطأ فى هذا العصر الذى تدخل فيه الحضارة الغربية مرحلة الانهيار والتمزق ، حيث تتطلع الإنسانية إلى عصر جديد وضوء جديد يهدى إلى طريق الله تبارك وتعالى بعد أن أرهقت البشرية خلال القرون الخمسة الماضية حين سيطرت الحضارة الغربية منحرفة عن طريق الله تبارك وتعالى إلى مفاهيم الوثنية اليونانية القديمة ، ومن ثم فقد استطاعت أن تحقق تقدماً مادياً بارعاً فى نفس الوقت الذى غفلت فيه عن مطالب الروح والنفس ومعنويات الحياة ، فكان هذا التقدم المادى مصدراً للتمزق النفسى والفساد الخلقى ، وبدلك عجزت الحضارة الغربية عن أن تحمل أمانة العدل والرحمة والإخاء البشرى ، واستبدلت بدلك الخوف والجزع من خلال عديد من الأيدلوجيات التى ببس فسادها وعجزها عى العطاء ، وبدلك فقد كان على البشرية أن تبحث فى ظلام العصر عى (كوة نور) تلجأ إليها وتلتمس عندها الخروج إلى الضياء عن طريق منهج الله فهو القادر على العطاء

***

ومن هنا يتحتم علينا أن نحرر مفاهيمنا من دخائل الخلط والغلط ومحاولات فرص مصطلحات ومسميات متشابهة اللفظ مختلفة المعنى ، وأن نكون قادرين على مواجهة مؤامرة اقتحام العقل العربى المسلم التى ترمى إلى استبدال القيم الأصيلة بقيم ومفاهيم غربية وفق مخطط طويل الأجل متعدد الأدوات ، وقد وصلت الجرأة فى الاقتحام على الإسلام والقرآن غايتها إلى الحد الذى ليس بعده شيء سواء مى الإنكار أو التشكيك أو إثارة الشبهات فى محاولة لهدم الميراث الإسلامى الذى يسمونه الماضى والقديم والتراث ، فى محاولة لتدمير مقدساتنا تحت اسم البحث العلمى والعلمانية ، وقد بلغت الجرأة إلى حدّ الاقتحام إلى النص القرآنى نفسه ، هذا مى ناحية ، ومن ناحية أخرى تجرى محاولة إيجاد انفصام ثقافى بيننا وبيى تاريخنا الفكرى ، وذلك بدعاوى ما يسمى الفكر العربى المعاصر بعزله عى مجراه الممتد مند ظهور الإسلام

وهناك محاولة نسبة كل وجوه النشاط الإسلامى إلى منابع الغرب ومصادره

بإعلاء شأن الفكر المعتزلى والتصوف الفلسفى ؛ لأنه غربى المصدر ، هذا فى نفس الوقت الذى يقف فيه الفكر الغربى موقف الإنكار لدور الفكر الإسلامى فى بناء مناهج العلوم التجريبية والتاريخ والفكر السياسى والاجتماعى والنظم الاقتصادية وغيرها .

* * *

ولكن ذلك كله لن يقلل من عطاء الإسلام الذى حرر البشرية من العبودية والرق والربا حيث ألغى ملكية الجسد والروح جميعاً وكانت الحضارات السابقة له قد فرضت الرق على الشعوب وبرّز فى ذلك كبار فلاسفة الاغريق (ارسطو وافلاطون) كما أن المسيحية الغربية لم تستطيع اقتحام المشكلة ؛ ذلك لأن إلغاء الإسلام لفوارق الأجناس والدماء والألوان وجمع الناس فى وحدة كبرى هى وحدة التوحيد الخالص لهو من أكبر المعطيات التى يحتاج اليها الناس فى هذا العصر بعد أن دمرت هذه القيم حضارة المادة .

لقد كان أبرز معطيات الإسلام تكامل القيم والربط بين المنهج والتطبيق ، بين الفرد والمجتمع ، بين الروح والمادة ، بين العقل والقلب ، بين الدنيا والآخرة ، كما أعطى الإسلام قاعدة المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والجزاء الأخروى .

إن حاجة البشرية إلى الإسلام أصبحت تزداد يوماً بعد يوم بسبب فشل كافة الأنظمة التى قامت تحت سلطان النفوذ العسكرى والسياسى الغربى الذى عجز عن تحقيق الأمن والسلام والسكينة للإنسان ، وهى أهم وأعظم من التقدم المادى والرفاهة المخلوطة بالوثنية .

إن أخلاقيات حضارة الإسلام جاءت لهدم أمبراطورية الربا وتقليص نفوذ العجل الذهبى ، ولما كانت أمبراطورية الربا تقوم على الاستهلاك فإن الهدف هو خلق روح السرف والترف والجشع فى المجتمعات الإسلامية حتى تصل كل ثروات الأمة الإسلامية إلى أيدى أعدائها ، ذلك أن خلق روح الاستهلاك والإقبال على الشهوات والمتع تعتمد أساساً على الرزق الحرام وعلى تقليص المدخرات التى تحتاج إليها الأمة إبان الأزمات الطارئة .

يقول أحد الباحثين الغربيين : إن المسلمين عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربى ، فهم يملكون تراثهم الروحى الذى حررهم ، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة ، فهم جديرون بأن يقيموا قواعد عالم جديد دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية فى الحضارة الغربية ، فإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعى فى نطاقه الواسع انطلقوا فى العالم يحملون تراثهم الحضارى الثمين ، وانتشروا فى الأرض يرسون فيها قواعد الحضارة الإسلامية لعالم جديد .

* * *

الخروج من دائرة التبعية
٢
انتهت جولة الفكر الاسشراقى الغربى
وسقطت قوائمه

كان أبرز مظاهر الصحوة الإسلامية المعاصرة رفض شعوب الإسلام للهيمنة الغربية السياسية والاقتصادية والثقافية بعد أن أثبتت التجربة الطويلة المهينة خلال أكثر من قرن ونصف قرن عجز مناهج الغرب عن العطاء الذى تتطلع إليه النفس المسلمة بأشواقها ومطامحها على النحو الذى رسمه لها الإسلام منذ اربعة عشر قرنا، ولقد كان هناك أعلام خادعون كذبوا على أمتهم وحاولوا إغراءها بإنكار تراثها وعقيدتهاوقيمها ، وقد جرى التيار وراءهم ، ثم تكشف زيف دعواهم ، وأثبتت أحداث التاريخ ضلال هذه الوجهة ، وأن الوجهة الصحيحة هى وجهة الإسلام : وحدها ، فهى التى صنعت للمسلمين وللعالم كله على مدى أربعة عشر قرناً كل انتصاراتهم وبطولاتهم وسلامة مجتمعاتهم ، وفى عديد من محاولات المغّربين الدعوة إلى مشروع حضارى ، فجاء هذا المشروع ناقصاً وقاصراً وزائفاً ؛ لأنه لم يستطع أن يستوعب حقيقة التوجه الإسلامى فى الأمة الإسلامية ، وقد ظن أن محاولات التغريب المتصلة من حيث إحلال الأقليات أو القوميات محل الوحدة الإسلامية أو إحلال مناهج الغرب الاقتصادية والسياسية (سواء الداعية إلى الفردية أو الجماعية)، ظنوا أن هذه المحــــاولات قد أصبحت ركائز يطمحون أن يبنوا عليها (الدولة العصرية العلمانية) التى تحطم قيمها وعقائدها وتاريخها وتراثها، وتنصهر بإرادة أهلها فى دائرة الأممية والحضارة العالمية ، ثم لا يلبثون إلا قليلا حتى يتبين لهم أن هذه الأمة لا تصدر إلا عن قيمها الأصيلة ، وقد ردتها الأزمة إلى الأصول وإلى المنابع وإلى المصادر الأولى الحقيقية قبل أن تدخل عليها مفاهيم التبعية ، هذه المفاهيم الزائفة التى تحمل بريقاً خادعاً ، والتى تحاول أن تلهب الظهور بالدعوة إلى التقدم والعصرية والخروج من التخلف والضعف ، ظانين أن هذه الكلمات التى كانت تخدع أجيالا سبقت تستطيع أن تخدع اليوم أحداً .

وليس صحيحاً ما يدعيه لويس عوض وغيره من أن الأمم تنحاز فى عهود التخلف إلى القيم السلفية وترفع شعاراتها ، والصحيح أنها عندما ترى قادة فكرها المغربين قد خدعوها عقداً وعقدين وثلاثة بالوعود الخلابة المضللة حين تدعوهم إلى التعلق بقطار الغرب المندفع فى غير ما أناة نحو تحطيم ماضى الأمم الإسلامية وإخراجهم من تراثهم وقيمهم ، بهدف سحق حضاراتهم ومجتمعاتهم ، فإن أقل ما يتطلب الأمر أن يراجعوا أنفسهم وأن ينظروا إلى عبرة التاريخ .

وعبرة التاريخ فى الإسلام واضحة جلية صريحة ، هى أن الخروج عن منهجه هو الذى أوقع المسلمين فى التبعية وفرض عليهم سلطان عدوهم ، وإنهم عندما يعملون على التحرر من الأسر والخروج من سجن الغرب عائدين إلى منهجهم فإنهم يجدون معونة الله تبارك وتعالى تأخذ بأيديهم وتحطم قيودهم .

ولذلك كان المسلمون ينظرون إلى هذه المصطلحات البراقة المطروحة أمامهم (التقدم ـ الحرية ـ المعرفة ـ العقلانية) من خلال مفاهيمهم الإسلامية ولا يأخذون تصورات الغرب لها قضايا مسلمة ، فإن الغرب يفهمها من وجهة نظر مادية صرفة ، أما المسلمون فيفهمونها من خلال مفهوم جامع بين المادة والروح والعقل والقلب ، بل إن الذين يطرحونها فى أفق الفكر الإسلامى لا يمكن تبرئتهم من الخصومة الحقيقية العميقة للإسلام كدين وعقيدة ، وهم فى الأغلب طامحون إلى نفوذ وصدارة فى قيادة الفكر ، أو أنهم قد تشكلت عقلياتهم فى ضوء مفاهيم الغرب التى تفصل بين الدين والمجتمع ، وتتنكر للعلاقة الجذرية بين الإسلام والسياسة ، أو من دعاة الإباحية والفساد فى مجال الفنون والسلوك الاجتماعى، ويرون أنه لا علاقة للإسلام بالأخلاق والعِرض،وهؤلاء هم أبناء المدرسة الماسونية التى تفتح الطريق أمام المجتمعات للحرية المطلقة ومطاردة الشريعة الإسلامية ، وقد أخذت القيم الأخلاقية فعلاً تهتز بشدة فى بلاد الإسلام ؛ حيث تفتح الطريق أمام المذاهب المادية والإلحادية والعبثية التى لا ترى لحياة الإنسان معنى ، وتنطلق بها إلى الإباحية المطلقة .

كل هذا يرمى إلى التحرر من نظام الإسلام المحكم ومنهجه الربانى الذى جاء ليبنى حياة المسلم على قيم الربانية والمسئولية الفردية والالتزام الخلقى والجزاء

الأخروى من أجل إقامة مجتمع الكرامة فى الأرض يقول الله تعالى : ﴿ **ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً** ﴾

وإذا كان الفكر الغربى يجعل قضية الإنسان فى مقدمة القضايا من ناحية المعاش والرفاهية والترف والتطلعات المادية فإن الإسلام يعمل من أجل الإنسان على نحو أكثر أصالة وعمقاً وإيجابية ؛ إذ إنه يبنى النفس الإنسانية على أن تكون ربانية الوجهة ، وأن تسعى فى الأرض وتعمل من خلال قوانين التقوى والخلق وإقامة الوازع الذى يدفع عنها الحرام والفسق ويحفظ لها إيمانها الذى أخرجها من الأنانية إلى الغيرية .

وما يزال المنهج الإسلامى قادراً على أن يحقق للبشرية كرامتها وسموها وحريتها بعد أن عجزت كافة المذاهب الفلسفية والديمقراطية والاشتراكية ، واليوم يتطلع مثقفو الغرب نحو الإسلام كمنقذ إيماناً بما نؤمن به نحن من صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، وأنه قادر على حل مشكلات الإنسان والمجتمعات، وأنه عن طريق (الاجتهاد) قادر على أن يستحدث أحكاماً لما جاءت به الوقائع، وبخاصة فى ميدان المعاملات المادية والاقتصادية وأن قاعدته الأساسية المحكمة فى اقامة الثوابت قادرة على حماية الفرد والمجتمع (تحريم الربا - تحريم الخمر - إقامة حد السرقة وعقوبة الزنا - تطهير المجتمع من الميسر والرجس والفسق جميعاً) ومن وراء الثوابت ينفتح باب الاجتهاد فى الفروع والمتغيرات ، وليس غير الشريعة الإسلامية مصدراً لوحدة المسلمين عن طريق الالتقاء على وحدة الفكر المتميز عن الفكر الغربى والتحرر من التبعية لغيره إقتصاديا وثقافيا وسياسيا) .

ولقد كان الإسلام :

أولاً - قادراً على الخروج بأهله من الأزمات وإعادتهم إلى الأصالة والمنابع.

ثانياً - تميزه بخصوصيات تجعله دائم الصمود وصالحاً لكل زمان ومكان .

ثالثاً - الوعى بالتخلف والقدرة على كشف المؤامرات التى تحاك للمسلمين.

رابعاً - ثبات القيم وارتباطها بالفطرة الإنسانية .

وتجىء هذه الأزمة التى تمر بها الأمة الإسلامية اليوم ؛ حيث تتآمر قوى ثلاث عليها (الغرب والشيوعية والصهيونية) تتكاتف فى سبيل وضع المسلمين فى دائرة

مغلقه من التبعية ، ولا يملك المسلمون فى مواجهة ذلك إلا إيمانهم بربهم وعودتهم إلى منهجهم القادر على تحطيم القيد وكسر الدائرة المغلقة ، وذلك بالعودة إلى أمرين: إلى المنهج وإلى الوحدة الجامعة .

ولعل هذه الضربات المتوالية والمؤامرات التى لا تتوقف قد لفتت أعين المسلمين إلى أنه « لا ملجأ من الله إلا إليه ، وأنه لا تزال طائفة من الأمة الإسلامية قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ».

إن أخطر ما يتطلب العمل به هو الترابط بين المنهج والتطبيق والوعى بمصادر الخطر ، وبناء الإرادة القادرة على التغير والسير فى الطريق الصحيح . واعتبار الميراث القرآنى والنبوى منطلقًا حقيقيًا للأمة ، فإن أية أمة تنطلق من فراغ أو تنطلق من تراث غيرها يكون قد حكم عليها بالفناء ، والغربيون فى عصر النهضة استلهموا تراثهم الوثنى الإغريقى الرومانى ، وصهروا فيه ما أخذوه عن المسلمين ، فهل يعاب علينا اليوم أن نبنى حياتنا المعاصرة على أساس منهجنا الأصيل الذى شكل هذه الأمة منذ خمسة عشر قرنًا ، إن دعوات التحرر من الميراث ووصفه بالقديم والسلفية وأنماط حياة اندثرت ، هذه مقولة باطلة ، فنحن حين نلتمس منهجًا ربانيًا اصيلا لا نريد اعادة صورة الحياة الاجتماعية ، ولكن نريد أن نبنى عليه حياة العصر ، فهو قادر على هذا العطاء ، ولا ريب أن ما يزعج التغريب وأهله هو تهدّم دعوات الثقافة والشعر الجاهلى والإسلام وأصول الحكم لطه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى ولويس عوض وتوفيق الحكيم وغيرهم ، هذه الدعوات التى قامت وتقوم على فصل الإسلام عن المجتمع والحكم ، إيمانًا بعقائد غربية تختلف تمامًا عن الإسلام، عاشوها هم وأحبوها ، ولم يدرسوا عقائد الإسلام ، ولكنهم حاربوها اندفاعا وراء الظن وما تهوى الأنفس ، والمرء مع من أحب ، ولن يقوم بناء المجتمع الإسلامى الجديد إلا على دعامات الإسلام وعقيدته وشريعته وقيمه الأخلاقية ، فقد انتهت هذه الجولة الاستشراقية التغريبية تمامًا مهما امتدت فى كتابات بعض الناس فإن أمرها قد انكشف تمامًا ، ولم يعد أحد يثق بها فقد سقطت بالفعل قوائمها . والله ولى التوفيق .

الخروج من دائرة التبعية
٣
سقطت الحضارة باعتراف أهلها

لست أدرى متى يعى قومنا إشارات العصر وعلامات الزمن التى تنكشف أمامهم يوماً بعد يوم فى ضوء الحقيقة القرآنية التى لا ترد ، والتى يجب أن تملأ قلوبنا جميعاً بفساد وجهة هذه الحضارة وضرورة انهيارها ؛ لمخالفتها لمنهج الله ولقوانين المجتمعات ولسنن هذا الكون الذى أسلم وجهه لخالقه ، ثم جاء هذا الفكر الغربى وحضارته ومناهجه ليتمرد على هذه السنن ويغويه عمّا فتح الله تبارك له من أبواب الانتصار العلمى؛ اختباراً له وحجة عليه ، فما يزيده ذلك إلا إمعاناً فى إنكار الوجهة الربانية وما يتصل بها من المسئولية الفردية والقيمة الأخلاقية والجزاء الأخروى .

ولقد شهد باضطراب وجهة الحضارة الغربية كثيرون من الغربيين ، ومنذ أكثر من خمسين عاماً حين كتب شبنجلر (انهيار الحضارة) ثم تبعه آخرون حتى اعترف أخيراً بفقدان الحضارة للبعدين الإلهى والأخلاقى .

واليوم يقرر المؤرخ البريطانى بول جونسون فى كتابه عن فلسفة التاريخ فى القرن العشرين ـ باعتباره عالما يتخلى عن اصله الأخلاقى ـ أن انهيار النظام الأخلاقى الذى كان قائما حتى منتصف القرن التاسع عشر هو مفتاح فهم حركة التاريخ فى القرن العشرين ؛ لان النظام الأخلاقى ليس مجرد (قواعد سلوك) وإنما هو منطق تفكير وأسلوب لتصور ولفهم الكون والمجتمع البشرى وأفراده ، وأن تدمير مثل هذا النظام لا يحدث من خلال أحداث سياسية ولا اقتصادية ولا اجتماعية وإنما من خلال ظهور وانتشار أنواع جديدة من المنطق وأساليب جديدة من الفهم ، ويلقى تدمير ذلك النظام القديم الذى كان قائماً على دعامات راسخة تتمثل فى مجموعة من القيم المطلقة ، على عاتق مجموعة من المفكرين والأدباء والعلماء الغربيين وعلى راسهم (ألبرت أشتاين ، كارل ماركس ، سيجموند فرويد،

مارسيل بروست) مع ملاحظة أنهم جميعاً يهود ؛ مما يدل تماماً على أن هذا منطلق يسير فى اتجاه تخريب العالم الذى قررته بروتوكولات حكماء صهيون) فقد تكفل ماركس وفرويد بالقضاء على الإحساس بثبات مؤسسات المجتمع ، ومكونات النفس البشرية ، ثم جاء الأدب ممثلا فى بروست الفرنسى وجويس الأيرلندى وتوماس الألمانى وأونيل الأمريكى فأشاع فى أذهان الناس الذين لا يدرسون النظرية النسبية ولا علم الاقتصاد ولا علم النفس النتيجة الحتمية لما جاء به المؤسسون المدمرون الثلاثة الكبار : فقدان الإيمان بأية قيمة مطلقة ، وفقدان الإحساس بإمكانية أى ثبات فى الكون أو فى المجتمع ، ولكن الناس إذا فقدوا إيمانهم لا يمكن أن يظلوا دون إيمان ، وإنما سيكونون على استعداد للإيمان بأى شىء يستطيع أن يفرض نفسه عليهم ، او أن يتسلل إلى عقولهم

وهذه هى (ديانة القوة) المنظمة فى شكل السلطة التى حلت فى الغرب محل كل الديانات القديمة التى أصبحت الدولة فيها (الدولة الشمولية المسيطرة على كل شىء فى المجتمع) وهى الكنيسة الجديدة وأصبح الديكتاتور هو كاهنها الأعظم .

كذلك لينين وثورته الفلسفية ومن بعده موسولينى وهتلر ، فالحرب العالمية الثانية هى التى حطمت الكنيسة الهتلرية ومهدت لتذويب صلابة الكنيسة الستالينية) .

هذه هى الصورة القاتمة التى تمر بها الحضارة الغربية اليوم ، حيث يجرى التبشير فيها بعالم الفلاسفة الثلاثة وانهيار الغرب كما أورده كولين ولسون فى كتابه عن انهيار الحضارة

ويقول روجيه جارودى فى هذا المقام : عندما نعيد وضع التاريخ المنظور (الانفجار على السلم العالمى) ونقيس الحيز الذى احتله الغرب منذ أربعة قرون لتحديد مصير بقية العالم باستغلاله لمصلحته وحدها ، نستطيع أن نستنتج من سيطرته أن الغرب حادث عارض ، وأنه أخطر عارض طرأ على تاريخ الكرة الأرضية والذى قد يقوم اليوم بفنائها ، ولعل من مصائب التاريخ العظمى أنه إنما كتبه المنتصرون الذين أرادوا على الدوام تأكيد البرهان على أن سيطرتهم كانت ضرورة

تاريخية ، أى أنها كانت تنتج بالضرورة عن تفوق ثقافتهم وحضارتهم ، وقد كان ذلك على هذا النحو أحياناً ولكن التفوق التقنى والعسكرى لم يكن ينطوى فى أغلب الأحيان على تفوق الثقافة وعلى مشروع إنسانى يحلم به المنتصرون ، وعلى هذا فإن الحروب الكبرى التى قامت بها أوربا فى أفريقيا وآسيا لم تكن إلا هدماً وتخريباً للقيم الثقافية العليا .

ومن هذه العناصر التى تعرف عليها كاتبان كبيران من كتاب الغرب نجد اننا لم نبالغ مطلقاً فى فهمنا لانحراف الحضارة الغربية عن الطريق الإنسانى القائم على الرحمة والإخاء البشرى والعدل الذى رسمه الإسلام كنموذج عال مستمد من القيم الربانية العليا المبلغة بوحى السماء إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ لتقديم النموذج الرفيع للحضارة بعد أن انهارت النماذج الحضارية السالفة خلال آلاف السنين فى حضارات الرومان واليونان والفرس والفراعنة ، وقد استطاعت حضارة الإسلام بمفاهيم القرآن أن تثبت ألف سنة على وجه الأرض ، وأن تمد رواقها إلى حدود الصين وإلى حدود نهر اللوار خلال هذه المسافة الشاسعة التى استضاءت بنور القرآن فى الوقت الذى كانت أوربا والعالم كله يعيش فى ظلمات القرون الوسطى.

لقد كان النقل من الحضارة الإسلامية ومناهجها العلمية منحرفاً ومضللا أساساً ، فهى قد قبلت المنهج التجريبى ، ولكنها لم تقبل تكامل القيم ، ولم تقبل ربانية المصدر أو المسئولية الأخلاقية والجزاء الأخروى ، وعادت إلى مفاهيم الوثنية القديمة بماديتها وفسادها وإباحيتها وفجورها ، وعادت إلى أمبراطورية الربا والعجل الذهبى ، وهذا هو فضلها .

يقول العلامة أبو الحسن الندوى : إن حضارة المسلمين فى كل بلادهم وليدة عاملين ، ومؤلفة من تأثيرهما وانتكاساتهما :

أولهما : المعتقد الدينى (المبادئ الإسلامية) .

ثانيهما : تأثير الحضارة المحلية والاتصال بعناصر السكان الأخرى والاختلاط بهم.

وتحرم الحضارة الإسلامية الرقص ورسم صور الحيوانات ونحت التماثيل والانهماك فى الغناء واللحن ؛ حيث يعارض ذلك روح الحضارة الإسلامية وأهدافها وغاياتها ، ويضر بخشية الله (تبارك وتعالى) .

وبظهور الحضارة الغربية تباعدت الشقة بين المفهومين ، مفهوم ربانى يهدف إلى رفع مكانة الإنسان وتحريره من الرق ومن الوثنية ، وحضارة يتاح لها أن تتمكن وتسيطر ، تريد أن تفرض مفاهيمها على مجتمع الإسلام لترده مرة اخرى إلى الوثنية والعبودية ، وهذا هو أخطر ما يواجه الأمة الإسلامية اليوم ، أن تكون قادرة على المحافظة على ذاتيتها حتى لا تنصهر أو تذوب فى الحضارة الغربية الانشطارية التى قامت على المادية وحدها والتى تندفع اندفاعاً شديداً فى ثلاث وجهات :

(١) الفساد والإباحية والخمر والربا والاستهلاك .

(٢) استنزاف الثروات العالمية وتدميرها فى سبيل الترف .

(٣) الاستعلاء باللون والجنس الأبيض والعطاء المادى والحضارى المندفع لوضع العالم كله على حافة الدمار .

* * *

إننا فى حاجة إلى أن نكون على وعى بالخلاف العميق بين مفهوم الإسلام للحضارة وبين مفهوم الغرب الذى يريد أن يفرضه على مجتمع الإسلام ، هذا المفهوم الذى ينطوى على :

أولاً : إنكار الغرب للصلة بالله تبارك وتعالى ، وتسمية هذا الجانب بالطبيعة .

ثانياً : فصل العلم عن الدين وعن الأخلاق وتحرير العلم من الطابع الإنسانى والثقة بتقديره على حل مشاكل الإنسان .

ثالثاً : الاستعلاء بالعنصر والجنس واللون وإنكار الإخاء الإنسانى .

رابعاً : إقرار مفهوم الديمقراطية والليبرالية وعدم الخضوع إلى منهج الله تبارك وتعالى .

خامساً : قبول الانحلال الاجتماعى تحت اسم الحرية وانكار الالتزام الأخلاقى .

سادساً : لا أخلاقية للعلم ولا أخلاقية للحضارة .

سابعاً : الفلسفة المادية والنظرة المادية الخالصة .

ثامناً : إقرار مبدأ التطور المطلق ونسبية الأخلاق .

تاسعاً : النظر إلى الإنسان على أنه حيوان وإنكار المسئولية الفردية .

ومعنى هذا كله أن الحضارة الغربية قد دخلت فعلاً دائرة الدمار الذى أصاب كل الحضارات التى سبقتها والتى تحللت من منهج الله تبارك وتعالى وعارضت الفطرة والعلم والأخلاق .

الخروج من دائرة التبعية
٥
ضرورة الاعتراف بدور الإسلام وتسجيله في مقدمات [تاريخ العلوم الحديثة]

أعتقد أن الشباب المسلم اليوم قد تجاوز شبهة الغرب وافتراءات المستشرقين بأن الإسلام كان سبب تخلف البحث العلمى كما يردد ذلك مكدونالد وغيره ، ذلك أو أن حضارة الإسلام لم تعرف البحث العلمى ، غير أن الأمر لا يمكن أن يقف عند إنكار افتراءات خصوم الإسلام ، ولكن نحن مطالبون بأن نضع بين أيدى شبابنا الحقائق المضيئة التى تدحض هذا الادعاء الباطل ، ليس فى التجاهل وحده بل فى انكار الدور الذى قام به الإسلام فى بناء الحضارة العالمية حين قدم لها منهج التجريب الإسلامى ، ولم تكن أوربا تعرفه ، هذا المنهج الذى أخذه الغرب من علماء المسلمين ، ثم قطع الصلة بينه وبين مصادره ، وصهره الغرب فى بوتقة حضارته الوثنية ، وأقام (مؤامرة الصمت) ضد عطاء الإسلام ، حتى جاء اليوم بعد أكثر من خمسة قرون من يصحح هذا الموقف أمثال « درابر وجوستاف لوبون وكارليل وهونكه » فى نصوص قليلة لا تشفى الغليل ولا ترد عادية كتاب الاستعمار والتغريب المغرضين الذين يدعون ان جهود المسلمين قصرت على ترجمة تراث اليونان والفرس والهنود .

هذا الموقف جدير بأن يكون موضع اهتمام شديد اليوم ، ونحن نطالب بأن يعاد اعتبار هذا الدور ؛ فيسجل فى أوائل صفحات المناهج حقيقة العطاء الإسلامى فى التاريخ والجغرافيا والفلك والطبيعة والكمياء والرياضيات وكل العلوم التى قدم المسلمون خبرتهم فيها (هذا أولا) ثم أن يشار إلى دور المسلمين فى تصحيح التراث القديم والكشف عن أخطاء الأسماء اللامعة الكبرى (أرسطو وأفلاطون وجالينوس) [1] وغيرهم .

وأن يكون واضحا فى هذه المقدمة أن القرآن الكريم هو الذى دفع علماء المسلمين إلى اكتشاف المنهج التجريبى والمنهج العلمى فى المعرفة ، وذلك من

(١) راجع :د. أحمد فؤاد باشا ، دراسات إسلامية فى الفكر العلمى ، أساسيات العلوم القاهرة ، ط .دار الهداية .

خلال توجيه القرآن الكريم ﴿ **قل انظروا ماذا في السموات والارض** ﴾ من خلال توجيه القرآن الكريم أيضا ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾ ، وكيف رسم الإسلام أصول المنهج العلمى حين دعا إلى البحث عن الحق وانكار ﴿ **الظن وما تهوى الانفس** ﴾ وحين وجه المنهج العلمى إلى تكامل القيم (المادية والروحية) معا ، وإقرار مبدأ ترابط المنهج والتطبيق .

وقد جاء منهج التحقيق العلمى للحديث النبوى (ركيزة) أساسية للتحقيق العلمى فى مختلف المجالات ، سواء منها التاريخ أو المعرفة أو العلوم .

وقد أرسى علماء المسلمين هذا المنهج قبل ترجمة الفلسفات اليونانية ، وكانت مفاهيم الإسلام كلها قد استكملت حين نزلت الآية الكريمة ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ وما جاء بعد ذلك إنما كان من الفروع والتفصيلات والوسائل ، وحين ترجمت الفلسفات واجهها علماء المسلمين وكشفوا عن وجوه مخالفتها لأصول الإسلام فى توجهاتها الوثنية والعقائدية ، وقبلوا منها أساليب ولم يقبلوا أصولا ، وما قبلوه صهروه فى دائرة فكرهم حين لم يجدوه متعارضا مع التوحيد ، فالدعوى المدعاة بأن ترجمة الفلسفات كانت مصدراً للفكر الإسلامى أو عاملا من عوامل بنائه باطله ، بل لقد ظلت مدرسة الفكر اليونانى مبعدة لا يعترف بها لمعارضتها الوجهة الأساسية للمجتمع الإسلامى الربانى والتوحيد الخالص ، هذا كله أساس حتمى ؛ حتى يثق شبابنا بالدور العظيم الإيمانى الذى قام به علماؤهم فى بناء النهضة العلمية قبل أن ينحرف بها الغرب إلى الوجهة المادية أو الاستعلاء بالسيطرة على الشعوب واستنزاف ثرواتها ، أما الحقيقة التى يجب أن تقال وأن تصك سمع الدهر : إن الغرب هو الذى ظلم حين انحرف عن منهج العلم الحقيقى حين غلب الظن وهوى النفس على التجرد الحقيقى . وأنه هو الذى وجه العلم للاستعلاء والاستكبار فى الأرض والتسلط على الأمم واستنزاف ثرواتها .

إن المسلمين حين قدموا العلم للإنسانية رسموا منهج التقوى كاملا :

(١) فالإسلام هو الذى قدم للبشرية كلمات العلم والحكمة والعقل والفكر والنظر والبرهان لأولى الألباب .

(٢) وهو الذى حرص على ذكر المصادر التى يستند إليها الباحث فى كتاباته ومؤلفاته والاعتراف بجهد من سبق على الطريق .

(٣) وهو الذى حمل لواء الأمانة والدقة فى النقل .

(٤) وهو الذى صحح النظريات والآراء العلمية الخاطئة لمن سبقهم من العلماء الأغريق والفرس « فابن النفيس يرفض قبول نظرية جالينوس الخاطئة والدور الذى تقوم به الرئتان بالنسبة لانتقال الدم » .

والواقع أن نظرية جالينوس التى كان الرومان يباهون بها لم تقنع العلماء المسلمين .

ولم يقف الأمر عند جالينوس ولا عند نظرية واحدة بل اتصل بكثير من الأسماء والنظريات وليس ابن النقيس وحده ، بل هناك إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة ، الذى نقد نظريه أرسطو فى الآثار العلوية ، والكندى الذى خالف أرسطو فى تعليل شأن المطر ، وفى مجال التجريب ينفسح المجال لعلماء الإسلام ، فالتجربة العلمية الإسلامية تقوم على إجراء التدبير والمشاهد والاستنتاج .

فالرازى يذكر فى كتابه الحاوى أنه استخدم القردة لكى يدرس تأثير الزئبق عليها إذا شربته ، وبذلك تمكن من معرفة تأثير هذه المادة على الإنسان ، ويقول البيرونى الذى استطاع أن يقيس قطر الأرض : (إنما فعلت ما هو واجب على كل إنسان أن يعمله فى صناعة من يقبل اجتهاد من تقدمه بالمهنة وتصحيح خلل إن عثر عليه بلا خشية وتخليد ما يلوح له منها ؛ تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده) .

أين هذا مما فعله الغرب فى إنكار دور الإسلام إنكاراً تاما ، وإذا جاء النقل جاء مبتورا ، وقام التمويه بالباطل حتى يختفى فضل الإسلام على حضارة الغرب وفكره، ولم يتوقف الإنكار فى مجال العلوم التجريبية ، بل برز فى مجال أكبر وأرحب هو مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية ، وبخاصة مجال القانون ، حيث أخذ الغرب من نظريات المشرعين كثيراً من المصالح المرسلة .

غير أن الغرب حين أخذ المنهج التجريبى ومناهج الفكر والمعرفة والعلوم عجز عن أن يمزج هذا بالأصول التى جاء بها الإسلام ، فضلاً عن أن يحيط بالضوابط التى جاء بها الإسلام وعن أن يرد المنهج إلى صاحبه الذى أوجده فيعترف بالله الواحد الذى وضع القوانين والسنن وعلمها للإنسان ومكنه من الوصول إلى معطيات الحضارة والاختراع .

هذا الانفصال صدر عن تجاوزات كبرى وتخطى حدوداً ما كان له أن يتخطاها من أهمها :

أولاً : قدرة الله تبارك وتعالى على تجاوز القوانين والسنن .

ثانيــاً : لا صدفة فى هذا الوجود ، فكل فعل هو عمل محكم بتقدير الله تبارك وتعالى وحاشى أن يقع شىء بالصدفة فى ملك الله تبارك وتعالى .

ثالثــاً : امتزاج القيم : الروح والمادة ، العقل والقلب ، الدنيا والآخرة ، والربط بين العلم والعقيدة .

رابعــاً : أن العلوم كلها تركزت فى خدمة قضية واحدة هى توحيد الله تبارك وتعالى .

خامســاً: أن الله تبارك وتعالى هو الذى يسير الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ﴿ **وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته** ﴾ ، وقد دحض الإسلام نظرية من قال: أمطرنا بنوء كذا وكذا ، فالله وحده هو الذى ينزل الغيث وامطر الناس بفضل الله ورحمته

سادساً : نقد الفكر اليونانى القديم وكشف أخطائه وتحويل طريق العلم جملة من الوجهة اليونانية التأملية إلى وجهة جديدة إسلامية هى (التجريب) وجعل فكره نواة للعلوم المستحدثة .

سابعــاً : فتح أحمد بن ماجد للغرب باب رحلة البحر ، والشريف الإرديسى علم الغرب علوم الجغرافيا ، ودام معلماً لها ثلاثة قرون ، ولم يكن لأوربا مصدر للعلم إلا الإدريسى وهو خلاصة علوم المسلمين فى هذا الفن ، ويعتبر كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذابة دليلا يستعين به المسافرون فى الاهتداء إلى الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأيلة ويصل إلى الهند والصين

ولكن هل اكتفى الغرب بذلك ، لقد عمل على القضاء على القاعدة العلمية للمسلمين وبذل جهده فى تحقيق هدف واحد هو إتلاف الثروة العلمية للمسلمين حتى لا يستطيعوا استئناف مسيرتهم فنقلوا تراث المسلمين من العالم الإسلامى وخزنوه فى مكتبات أوربا كما استولوا على القلاع والحصون الإسلامية ونقلوا منها المجوهرات والروائع الفنية والمخطوطات والمطبوعات الثمينة وما بقى منها أحرق أو أتلف ، ولا يزال بعض هذه الدرر الثمينة يتلألأ فى التاج البريطانى والمتحف البريطانى.

* * *

الخروج من دائرة التبعية
(٦)
الإسلام قادر على أن يصحح للحضارة العالمية منطلقها

السؤال هو : هل الحضارة الفريدة المعاصرة قد حاولت أن تكتشف عوامل انحدارها ؟ وهل هى قادرة على اصلاح مسارها ؟ إنها تأخذها العزة بالأثم وتصر على أنها لم تنحرف على الرغم من كل ما كتبه علماء الغرب وعلماء الإسلام عن فسادها واضطرابها .

لقد كتب عن سقوط الحضارة فى الغرب كثيرون : « شبنجلر وتوينبى وإلكيس كاريل وجارودى » وآخرون وردوا ذلك إلى عدة عوامل ، ولكن نظرة علماء الإسلام إلى الحضارة الغربية كانت أشد نفاذاً ؛ لأنها كشفت جوهر إنحرافها وهو تجاهل المصدر الأول : المصدر الربانى الذى تبدأ منه كل الأمور وإليه تنتهى ، إن القول بأنها حضارة ينقصها بعدان : البعد الإلهى ، والبعد الأخلاقى ـ لا يقدم تصورا كاملا لمدى المخاطر التى تواجهها وتهدد وجودها كله ، بل تهدد العالم كله ؛ لأن هذه الأنماط المضطربة قد استوردتها أم العالم كله ، وفى مقدمتهم (الأمة الإسلامية) ، وهى الآن تعانى منها الكثير وتقاسى مزيدا من الاضطراب .

لقد وصفت بأنها حضارة تعشق المباشرة الحسية لكل اللذات وتلهث خلف القوة والمتعة واللحظة وتعلى شأن المادة والاستهلاك واستنزاف الشروات والترف الزائف ، وهى بهذا تختلف اختلافاً جوهريًا عن مفهوم الإسلام للحضارة ، لقد صنع الإنسان أوثان هذا العصر وأصنامه التى يعبدونها ، هذه الأوثان هى العلم والتكنولوجيا والفلسفة والفن ثم عبدها .

ويمكن أن نلخص ذلك فى عدة عناصر أساسية :

أولاً : الانشطارية والنظرة الجزئية المنفصلة والإيمان بالتخصص الذى يتجاهل تماما باقى التصورات ؛ حيث ينصرف عالم النفس دون التكامل مع مفهوم العقيدة، وكذلك يرى عالم الاجتماع أن الأخلاق ليست هى القيمة الثابتة،

بينما يعطى الإسلام مفهوم التكامل الجامع بين القيم .

ثانياً : القاعدة المادية الأساسية القائمة على المصدر الواحد وهو المحسوس والذى يتحرك فى دائرة العقل وحده دون أن يتكامل مع الروح والغيب .

ثالثاً : النظرة إلى الإنسان على أنه خاضع لغريزتى البطن والجنس ، وأنه لا يمثل مسئولية فردية ، بل هو داخل ضمن دائرة التصور الجمعى ، بينما يقرر الإسلام المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى .

رابعاً : النسبية فى الأخلاق واعتبار تغير العصور والبيئات مما يقضى بتغير القيم ، بينما يفرق الإسلام بين الأخلاق الثابتة بثبات العقيدة وبين العادات والتقاليد المرتبطة بتغير المجتمعات .

خامساً : التطور الدائم الذى يدعى بأن كل عصر هو خير من العصر السابق له .

سادساً : الادعاء بأن الأديان كانت مرحلة من مراحل المجتمعات قد انتهت بعد ان اصبح العلم الآن هو الذى يرسم للبشرية طريقها .

سابعاً : الادعاء بأن التاريخ هو تاريخ أوربا وأن الحضارة العالمية هى حضارة الغرب، وأن الجنس الأبيض هو صانع الحضارة ، وأنه لا يغلب وأن الشعوب الملونة وما تملك هى فى خدمة هذا الجنس الممتاز .

* * *

لقد كان أخطر ما حاولته الحضارة الغربية فى اندفاعها ضد التيار وضد الفطرة وضد طبيعة الكون المسلمة وجهها لله تبارك وتعالى إقامة نظريات تحرر الأفراد من مسئولية أخطائهم ، وترد ذلك إلى المسئولية الجماعية للأمم ، بينما جاءت الأديان السماوية كلها بلا استثناء تنص على المسئولية الفردية .

كذلك فقد حاولت هذه الحضارة أن تخرج من حكم قانون العقوبة التى تقع على الفرد الذى يقتل أو يجرم ، كما جاءت فى الأديان بنظرية تقول : إن الجريمة ليست عملاً متعمداً ، بل هى عمل اضطرارى تفرضه بعض الأمراض النفسية أو

العقلية، وأن المجرم مريض يجب علاجه وليس عقابه ، وكانت فى هذا كله تبحر ضد الفطرة وضد مفهوم الأديان ، وكذلك فعلت هذه الحضارة فى شأن الربا الذى أباحته وفى علاقات الرجل والمرأة التى أطلقتها ، فضلاً عن إخراج المرأة من بيتها ودفعها إلى الغواية فى المراقص والأضواء ؛ تحطيمًا للأسرة وهدمًا للأجيال الجديدة ، فى نفس الوقت الذى تعالت فيه الأصوات لتكشف فساد هذه الوجهة حتى جاء من يقدم للغرب ما يعرفه من حقائق الإسلام فى هذا كله التى سبقت ما كتب كتابهم بأربعة عشر قرنًا

كذلك فقد أفرزت الحضارة المادية ظاهرتين خطيرتين ظاهرة عزل الآباء والكبار من البشر ، بينما يعانى الأطفال الحرمان من حنان الأمهات ويعانى الكبار الحرمان من الأقرباء والأصدقاء المخلصين

ففى نفس الوقت الذى يعزل الآباء الذين كونوا وعلموا وسهروا فى بيوت مهجورة ، يعايش الأبناء الكلاب ؛ حيث يشير تقرير فرنسى بأن هناك سبعة ملايين من الكلاب فى فرنسا وسكانها (٥٢ مليون نسمة) تعيش مع أصحابها كأنها من أقاربهم ، ولم يعد غريبًا كما يقول العلامة (وحيد الدين خان) فى مطاعم باريس أن يشاهد الكلب وصاحبه يتناولان طعامهما على مائدة واحدة

أما الظاهرة الأخرى فهى ظاهرة الانتحار والانتحار الجماعى التى تتزايد بين الشباب الغربى والأمريكى بخاصة ، وفى ندوة عقدت تحت عنوان (اليأس والانتحار عند الشباب) اجتمع فيها ألفا تلميذ مع رجال التربية وعلم النفس والأطباء، وقد تبين للباحثين أن بعض المراهقين فى هذه الفترة من العمر يقدمون على الانتحار فى شكل سلسلة من أعمال الانتحار الجماعى لا يفصل بين الحالة والأخرى سوى فترة زمنية قصيرة ، وتكون هذه السلسلة محصورة فى منطقة أو مناطق محدودة، وقد شغلت هذه الظاهرة الباحثين الأمريكيين ولا يوجد أى تفسير علمى بالنسبة لانتحار عدد من خبراء شئون الانتحار مثل العالم « ريسون » ، وقد

كان لانتشار الخبر بشكل سريع لظاهرة الانتحار فى الصحافة والإذاعة والتلفزيون حافزاً بالنسبة للفتيان والفتيات الواقفين على حافة الهاوية لإدخال فكرة الانتحار من جانبهم حيز التنفيذ ، وقد بلغ عدد المنتحرين فى أمريكا (٥٠ ألف شخص) فى الفترة من ١٩٧٠ ـ ١٩٨٠م أعمارهم من ١٥ إلى ٢٤ عاماً .

وقد زادت النسبة عام ١٩٨٠م بنسبة ٥٠ فى المائة عما كانت عليه قبل عشرة أعوام ، حيث وصلت عام ١٩٨٦م إلى مائة ألف حالة .

* * *

فإذا رجعنا فى تحليل ذلك كله وجدنا أن قصور الإيمان فى النفوس هو المصدر الحقيقى لهذه الأزمات ، ولو عدنا إلى مقررات الدين الحق فى شأن المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والجزاء الأخروى والضوابط التى وضعها للعلاقات بين الرجل والمرأة والآباء والأبناء ، حق للبعض أن يقولوا : إن عقد المجتمع الإنسانى قد انفرط كله بسبب تحطيم التوازن الطبيعى بين الرجل والمرأة .

لقد وصل الأمر بالحضارة الغربية إلى أن يتقدم بعض الناس فى دولة كبريطانيا بمشروع قانون أمام البرلمان الإنجليزى يمكن للرجل أن يتزوج رجلاً وللمرأة أن تتزوج امراة ، وهو أمر أشار إليه رسول الله ﷺ منذ أربعة عشر قرناً حين قال: لا تقوم الساعة حتى يخسف بطائفة من أمتى ، قالوا : متى يارسول الله ، قال : [إذا لبسوا الحرير واتخذوا القينات وتكافل الرجال بالرجال والنساء بالنساء] وصدق رسول الله الذى لا ينطق عن الهوى .

إن الإسلام وهو الدين الحق يستطيع أن يقدم للحضارة العالمية أسباب انحدارها، وعوامل قوتها ، ولكن هل تسمع إليه وتقبل منه ؟ إن هناك قوى خطيرة تحول بينها وبين أن تعرف طريقها ، وهى تدفعها دفعاً للهزيمة ، ذلك لأن الانطلاق من الفلسفة المادية تحول تماماً دون قدرة الحضارة الغربية على تقبل

الحوار الذى دعا إليه بعض فلاسفة الغرب .

ذلك لأن العالم لن يستطيع أن يصل إلى مفاتيح الوجهة الصحيحة للحضارة إلا إذا اعتبر أن الله تبارك وتعالى هو المرجع وهو المصدر ، أما وجهة الحضارة الغربية والفكر الغربى بشقيه نحو هدم الأديان جميعاً فإن ذلك سيؤدى إلى دمار هذه الحضارة وسقوطها .

* * *

الخروج من دائرة التبعية

اختلاف وجهات النظر بين مفاهيم المعرفة والعلوم في الفكر الإسلامي والفكر الغربي

هذه قضية خطيرة يجب أن تحسم : قضية الخلاف بين مفاهيم المعرفة والعلوم فى كلا الفكرين الإسلامى والغربى على نحو يجعل من الضرورى بيان الفروق والخلافات ؛ حتى لا نقع فى محظور الظن بتشابه وجهات النظر بين الإسلام والغرب .

مفتاح القضية كلها يتركز فى كلمة واحدة هى تكامل القيم فى الفكر الإسلامى وانشطارها فى الفكر الغربى وقيامها فى الإسلام على الجمع بين عنصرين : عنصر المادة والمحسوس العقلانى وبين عنصر الغيب والوحى والمعنويات ، أما هذا العنصر الأخير فهو منكور الهوية تماماً فى الفكر الغربى ، ومن هنا يجىء الخلاف الواسع العميق .

أما الإسلام فيعتمد قاعدة التكامل بين القيم استمداداً من تكوين الإنسان نفسه (قبضة الطين ونفخة الروح) .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، فذلك أمر طبيعى يستتبع اختلاف العقائد والأخلاق والمناهج ، ولكن الشىء المزعج حقّاً هو أن يفرض الفكر الغربى على العالم الإسلامى التسليم بمفاهيمه ، فإذا لم يقبلها هوجم أشد الهجوم ووصف بأنه صاحب فكر رجعى ومتخلف ، وهنا يجب أن نسأل أنفسنا عن تأثير الفكر الغربى فى علوم المسلمين ؟ وإلى أى مدى يجب أن يصل هذا التأثير ؟ إن الفكر الغربى يقف عند المحسوس الذى يمكن إدراكه بالحواس الخمس ، فإذا لم يكن فهو فى تقديره ليس موجوداً اصلا أو كالمعدوم ، ومعنى هذا أن جانباً كبيراً من جوانب المعرفة والقيم والعلوم يحكم عليه بالتجاهل أو التجاوز ، بينما هو يمثل قيمة من القيم العليا ؛ لأنه يمثل أعظم ما قدم للبشرية وهو الدين المنزل بمفاهيمه وغيبياته ووحيه وما يتصل بالألوهية والنبوة وعالم ما وراء المادة وما يتصل بذلك كله

من المسئولية الفردية والجزاء الأخروى ؛ وبذلك يعجز الفكر الغربى عن تصور المعنويات وعالم الأخلاق والروح .

ويتولد من ذلك تحد آخر أشد خطورة وهو إنكار الثوابت وإقرار التطور والتغير المطلق دون تقدير لمقررات الدين الحق فى قيمه وضوابطه وحدوده التى لا تتغير ، حيث يقرر الإسلام مفهوم (الثوابت والمتغيرات) ويقف الإسلام موقفا جامعاً فى الربط بين عالمين مختلفين فى الغرب هما عالم الثبات الدائم الذى كان يقول به الإغريق وعالم التغير المطلق الذى يقول به الفكر المادى الحديث

أما الإسلام فيعطى المجتمعات القدرة على الحركة والتغيير من داخل دائرة الثبات بحيث لا تجمد أمام نظرية الثبات ولا تنهار كلية أمام نظرية التغير المطلق أو التطور المتصل ، ويقرر الإسلام قاعدة الغيبيات التى لا تختلف ولا تتعارض مع المنهج العلمى ؛ حيث يقيم منهجاً كاملاً لعالم الميتافيزق (عالم ما وراء المادة) حتى يحرر الإنسان من محاولة تصور هذا العالم الذى يعجز تماما عن إدراكه لنفسه، ويقرر الإسلام أن الغيب قاعدة أساسية وحجر أساس لبناء العقيدة والمجتمع وأن رفض الغيبيات على إطلاقها هادم للأديان بعامة ، وهو منطلق لفتح الباب واسعاً أمام الالحاد.

كذلك لا يقر الفكر الإسلامى مفهوم الدين فى الفكر الغربى ؛ حيث ترى مدرسة العلوم الاجتماعية أن (الدين) ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لم تنزل من السماء ولم تهبط بوحى ، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها . وهذه هى غاية ما يصل إليه الفكر المادى .

ويرجع هذا فى أسبابه الأصيلة إلى (اضطراب) مفهوم الدين الذى قام فى الغرب والذى يختلف عن مفهوم المسيحية الشرقية المنزلة حيث كان هذا المفهوم مصدراً لخلافات واسعة فى الفهم ، فضلاً عن تشابهه مع مفهوم الأديان الوثنية التى كانت موجودة فى أوربا ، وعدم قدرته على الإجابة على التساؤلات التى نشأت بعد ظهور مفاهيم العلم التجريبى ؛ مما أدى إلى بروز ظاهرة خطيرة هى ذلك الصراع بين الدين والعلم الذى اتصل وامتد حتى وصل بالعلماء إلى إنكار الدين جملة والدعوة إلى دين بشرى والقول بالمغالاة فى إنكار الحق تبارك وتعالى

والدعوى العريضة الضالة بميلاد الإنسان الذى لا يحتاج إلى وصاية الدين .

وانحياز الإنسان الغربى إلى الجانب المادى كلية وتنازله ـ ظاهريًا ـ عن جانبه الروحى وقياس الحضارة الغربية بمقياس واحد ، حيث طغت النظرية المادية على مفاهيم العلوم الإنسانية والاجتماعية والسيطرة عليها ومحاولة الحكم على عواطف الإنسان ومشاعره بمنهج التجريب وتطبيق تجارب الحيوان عليه دون النظر إلى مدى الفارق العميق والبعيد المدى بين الإنسان المكون من الروح والمادة الذى يمتلك الإرادة والعقل والتميز وبين المادة الجافة .

وقد كان لحرمان الإنسان من أشواقه الروحية وقيمه الأخلاقية أبلغ الأثر فى الأزمات التى أصابت إنسان الغرب وألجأته إلى الاغتراب والقلق والتمرد والتمزق والغثيان .

وهو ما تكشف عنه ـ فى العقود الأخيرة ـ كتابات بعض من وجدوا فى الإسلام ضوءاً يهدى النفوس الحائرة .

وقد جرى علماء الغرب شوطاً فى ازدراء الدين وإنكاره حتى أنهم رموا المسلمين ـ بغير علم ـ بأن الدين سبب تخلفهم ، وتوهموا أن التقدم والخروج من التخلف يكون بإبعاد منهج الإسلام واستلهام الأيدلوجيات الغربية وهى دعوة باطلة، أو لا يمكن مقايسة أثر الدين الغربى فى التخلف بأثر الإسلام الذى أنشأ مفهوم التقدم والعلم التجريبى وفتح الباب واسعاً أمام المعرفة ذات الجناحين ، ولم تكن تعرف من قبل فى حضارات الامم التى سبقت .

كذلك فقد كان الغرب غافلاً عن فهم حقيقة الإسلام حين دعا إلى التغيير الاجتماعى من خارج العقيدة (على النحو الذى فعله حين بدأ التغيير الاجتماعى فى الغرب بالمعركة ضد الدين .

وهو قياس مع الفارق فإن الدين الذى عرفه الغرب لم يكن إلا مجموعة وصايا وقد حرفت الوجهة من المسيحية المنزلة إلى مفهوم آخر مختلف ، أما الإسلام فقد رسم لمعتنقيه منهج التغير الاجتماعى من داخل العقيدة وأكد على أن المسلمين لن تغلبهم الأمم إلا حين يغفلون عن منهجهم ، وهو الذى يحقق لهم النصر إذا التمسوه.

ولقد كان الإسلام هو مصدر الانتصار وعامل التماسك وامتلاك الإرادة ، فالتغيير الاجتماعى ينطلق من حقائق العقيدة ومقاصد الشريعة وغاياتها .

وقد رسم القرآن الكريم فلسفة التغيير على نحو واضح صحيح .

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ ﴾ (الرعد : ١١) .

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾(الأنفال : ٥٣)

وقد فصل الفكر الغربى بين الحقل الروحى والحقل الزمنى فقال : هذا لقيصر وهذا لله . ولكن الإسلام جمع بينهما وقال إن قيصر وما لقيصر هو لله .

كذلك فقد دعا الفكر الغربى إلى اصلاح الفرد استمدادا للنظرية الفردية الرأسمالية التى يرتبط فيها الكهنوت المسيحى بالنظام الديمقراطى بينما يقيم الإسلام منهج الترابط بين الفردية والجماعية .

ويقرر الفكر الغربى أن مجال الانتماء والهوية هو العنصرية والدماء والأعراق ، بينما يقرر الإسلام أن مجال الانتماء والهوية هو وحدة الإنسانية والتعارف بين الأمم والتقائها ، مع بقاء التميز القومى والوطنى فى دائرته المحدودة ، حيث يرفض الإسلام صراع العناصر والاستعلاء باللون والدم الذى تجعله الحضارة الغربية أساس التعامل مع الأمم ، ويؤكد الإسلام ـ كما تؤكد الأديان ـ على حقيقة الانتماء، وعلى كينونة الإنسان عقلاً وروحاً وإحساساً ، أما الغربى فإنه تبعاً لإعلاء الانشطارية العقلانية يهمل الروح والعواطف والأحاسيس ؛ فيصاب المجتمع من جراء ذلك بظاهرة (اللامنتمى) وهو المثقف المنشق على الحضارة المعاصرة لعدم توازنها، حيث تؤكد العلمانية الغربية على العقل غافلة عن الجزء الموجود فعلاً والمختفى وراء تجاهل الغرب له ، وهو الروح والعواطف والأحاسيس ، والإسلام يجمع بين الناحيتين ويدعو إلى تكافلهما ؛ وبذلك لا يسقط المسلم جريح التمزق أو الاغتراب الذى يقاسيه رجل الغرب .

ويرى كولن ولسون وغيره من الباحثين الغربيين « أن الغربى سيظل يتعثر خلال بحثه عن العلم الذى يوجه الحياة ويوجهه إليها ، وسوف لا يجده أبداً ما دام

مصراً على تشبثه بالأرضية العلمانية التى يتحرك عليها » .

ومن هنا فإن الانتماء التزام فى شخصية المسلم واللامنتمى هو بدء تشبث الضائعين بالانفلات من كل القيم ، والشخصية المسلمة تعرف مكانها فى الوجود ورسالتها فى الحياة وتكاملها الروحى والمادى ، وتعرف مقاييس الحياة والموت والقوة والضعف والحرب والسلم ؛ ولذلك فهى منتمية بكل ما تحمل الكلمة وملتزمة بما احتواه كيانها وضميرها من عقائد وتصورات .

ونحن المسلمين نتمسك بشخصيتنا المتميزة بفكرها وأصالتها التى تتخذ من عقيدتها المنطلق لحركة الحياة ، والمسلم ملتزم ، ففى سبيل عقيدته يسترخص كل شيء ويقدم نفسه فداء لها محتسباً إياها عند الله تبارك وتعالى .

والإسلام لا يقر التفرقة أو الاستعلاء بالعنصر أو التعصب للدماء والأجناس ، فالناس فى نظر الإسلام تتكافؤ دماؤهم وأموالهم .

وقد طبق الإسلام الإخاء بين الناس قبل أن يدعو إليه الغرب بألف عام .

* * *

الخروج من دائرة التبعية
٧
التصور الإسلامى للقيم الأساسية للإنسان والمجتمع

يقدم الإسلام نظاماً كاملاً للقيم يختلف اختلافاً واسعاً عميقاً عن نظام القيم الغربى ؛ حيث يرمى النظام الإسلامى فى الأساس إلى خدمة الإنسانية واسعادها وإشاعة روح الحق والعدل فيها ؛ حيث يقوم نظام القيم على :

(١) هداية المسلم إلى الخير ورده عن الشر .

(٢) هدايته إلى الحلال وصرفه عن الحرام .

(٣) دعوته إلى الفضيلة وإنكار الرزيلة .

(٤) تحقيق العدل ورفع الظلم .

(٥) إقامة الرحمة والإخاء وتنحية الشح والخلاف .

هذه القيم التى يقدمها الإسلام ثابتة لا تتغير بتغير العصور والبيئات ، وهى جزء من العقيدة لا تنفصل عنها ، بهدف إقامة المجتمع الربانى الأمثل ؛ ولذلك يجب أن يكون إطار القيم الإسلامية مسيطراً على كل تصرفات الأفراد والمجتمعات، وأن يمتد إلى ميادين السياسة والعلم والاقتصاد والاجتماع والتربية ، كما أنه يوجه العلوم والمعرفة والتقنية توجيهاً سليماً .

وفى نفس الوقت لا يقر نظام القيم الإسلامية مفاهيم الرفاهية الغربية التى تنادى بالعلم من أجل العلم ، ويجعل المعرفة دائماً فى خدمة الحق والعدل ، والهدف من هذا كله إشاعة ضوئهما لينير أرجاء العالم كله بما فيه خير الإنسان ومصلحته .

وفى ضوء هذا نجد أن (مصطلح التقدم) يتضمن جانبين : معنوى ومادى، وتتكامل معه الذاتية والموضوعية والمادية والمعنوية ، وتصبح المسئولية الأخلاقية حكماً أساسياً للتصرفات كلها بالارتفاع فوق المطامع والأهواء يقول دكتور محمد هاشم ريان : « إن القيم فى الإسلام ليست مرهونة بأذواق الناس وعاداتهم ، ولا يحددها

النمط الثقافى أو الحضارى السائد فى المجتمع ، ولكن يحددها الشرع ، فهى جميعاً شرعية ، وليست مقسمة إلى قيم ثقافية وأخرى اجتماعية ؛ ذلك لان الحسن فى ظل النظرية الإسلامية هو ما حسنه الشرع ، والقبيح هو ما قبحه الشرع وإن خفى حسنه أو قبحه ، وفى مفهوم الإسلام نجد أن القيم مستقلة عن ميول الإنسان وأهوائه ومصالحه الظاهرية ، وهى تبعاً لاستقلالها وذاتيتها تتصف بالثبات والرسوخ » .

أما القيم فى مفهوم الفكر الغربى فهى مناقضة لذلك تماما ؛ حيث ترتبط بميول الإنسان وهواه ، فتكون بذلك متغيرة متبدلة ، تدور مع مصلحة الإنسان وتسودها قاعدة (الغاية تبرر الوسيلة) فلا يكون للشىء قيمة إلا إذا جلب نفعاً للإنسان ، فإذا لم يجلب نفعًا فلا تكون له قيمة أصلاً .

وهذه هى نظرية المنفعة التى بشر بها ودعا إليها كثير من أتباع الفكر الغربى فى أوائل هذا القرن ، وفى مقدمتهم أستاذ الجيل لطفى السيد ومدرسته الفكرية ، ونظرية المنفعة هى (البرجماتية) التى تنكر وجود سلم ثابت للقيم ، وترى أن قيمة أى نشاط تتوقف على مدى تلبيته لحاجة ملحة عنده ، هذه النظرية يرفضها الفكر الإسلامى ؛ لأنها تتعارض مع أصول الإسلام المستمدة من تصور جامع ربانى تتكامل فيه القيم ، وتستهدف مرضاة الله تعالى والالتزام الأخلاقى والجزاء الأخروى ، وهى وإن كانت تجمع بين المادية والروحية والأخلاقية والإنسانية فهى متكاملة فى نظرتها وهدفها .

والقيم المادية بالذات (التى تقوم من أجل سد حاجات الإنسان وإشباع غرائزه وإدارة شئون الحياة وعمارة الأرض) لا تنفصل عن أخلاقيات الإسلام وثوابته فى الحلال والعدل والخير والرحمة ، وتتباعد عن ما يضارها ، بل هى تفرض هذه الثوابت على كل ما يتصل بمجالات السياسية والعلم والاقتصاد .

ونحن إذا نظرنا إلى الفلسفات السائدة الآن فى مجتمع الغرب نجد أنها جميعاً -وبالأخص منها (الواقعية والوجودية والبرجماتية) - تخضع للتصور المادى الخالص المتباعد عن القيم الروحية أو الإنسانية أو الأخلاقية .

وأخطر ما فى التصور الغربى المادى أنه يرى نسبيه الأخلاق ولا يقر ثباتها ، بل يخضعها لتطور العصور وتغير البيئات ، وهو ما لا يقره الإسلام بحال ، وقد انتقل

الغرب والفكر الغربى نقلة واسعة من الفلسفة الروحية الصرفة إلى الفلسفة المادية الصرفة ومن نظرية الثبات المطلق إلى نظرية التطور المطلق .

ويرجع قصور التصور الغربى عن الإحاطة بالمفهوم الشامل للقيم أنه يصدر عن الفلسفة المادية التى لا تعترف إلا بجانب واحد من جانبى المعرفة الإنسانية التى تتكامل فى الإسلام : روحاً ومادة ، وقلباً وعقلاً ، وهى تستمد أصولها من تركيب الإنسان نفسه ، فالإنسان يجمع بين عنصرين هما : قبضة الطين ونفخة الروح .

وقد جاءت الفلسفة المادية لتنكر الجانب الروحى والمعنوى وتنكر عالم الغيب كله ، ومن أجل ذلك فهى تنكر الألوهية والنبوة والوحى والغيب والبعث والجزاء الأخروى .

وهى تقف من الأخلاق موقفها من التقاليد ، وتحاكمها على هذا النحو ، بينما تدخل الأخلاق فى دائرة الثوابت التى أقامها الدين الحق فيما أقام من الأصول الأصيلة ، بينما جعل هناك باباً واسعاً للمتغيرات التى تخضع للتطور والتحول، وجعل من الأسس الأصيلة أساساً لعقيدة الإنسان ؛ ايماناً بالحق تبارك وتعالى وإسلام الوجه له ، وأداء حقه من العبادة والمعاملة جميعاً ، فى مختلف المجالات الفردية والاجتماعية على نحو المنهج الذى رسمه نظاماً للحياة ، وليس الإسلام (دين عبادة فحسب مقصوراً على جانب اللاهوت بمفهوم الدين فى الغرب) ، ولكنه نظام مجتمع ومنهج حياة كامل ، يشمل حياة الإنسان منذ ولادته إلى موته، ومنذ يقظته إلى نومه .

وهذا هو الفارق الحقيقى والأصيل بين منظومة القيم الإسلامية والقيم الغربية.

ولقد واجهت الحضارة الغربية صنوفاً عديدة من الاضطراب والأزمات والفساد نتيجة استعلاء هذا الجانب المادى وتجاهل الجانب الروحى القائم فى أعماق الانسان الذى يحتاج إلى إيفائه حقه من الوجود ، وليس بعيداً عنا ما نقرؤه عن أزمات المجتمع الغربى نتيجة فساد الفلسفات المادية وخاصة الوجودية وما يتصل بها من تدمير الكيان الإنسانى والاغتراب والغثيان .

ولا ريب أن هذه الأزمة الفكرية والاجتماعية والحضارية التى تمر بها الحضارة الغربية المعاصرة (نتيجة هذا الانشطار بين الروح والمادة) ، هو أمر نجد مفهومنا

الإسلامى بعيداً عنه كل البعد ؛ لأن الفكر الإسلامى مصدر من نظرة جامعة متكاملة للقيم ، وأنه يعلى دائماً من شأن قيم الخير والعدل والحلال والرحمة .

* * *

٨
منهجان متكاملان لأصالة الفكر الإسلامى والمعرفة الإسلامية

لم يقبل الفكر الإسلامى منذ اليوم الأول أى منهج سابق له ؛ لأنه امتلك منهجاً ربانياً واسع الأفق جامعاً متكاملاً ، لم يكن يحتاج فى أحكامه إلى أية إضافة أو حذف على توالى الأزمان واختلاف البيئات. لقد قدم القرآن الكريم إلى المسلمين عدداً من المناهج والأصول العامة لقوانين الفكر وسنن المجتمعات والحضارات .

وكان أبرز ما يتميز به منهج الفكر : « التجريب » ، وأبرز ما يتميز به منهج المعرفة : « التكامل» .

وكان تكامل القيم والربط بين المنهج والتطبيق أبرز معالمه ، وكان هذا هو الفارق العميق بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى الذى أقام منهجه على (انشطار) القيم (والفصل بين المنهج والتطبيق) .

لقد ربط الإسلام بين المادى والمعنوى ، الإلهى والبشرى ، والدنيا والآخرة ، ودعا إلى التغيير فى إطار الثبات ، والتنوع فى إطار الوحدة ، وكان هذا الترابط ممتداً إلى العقيدة والأخلاق ، فلم يكن هناك تناقض بين المثل العليا والواقع العملى للناس .

إن الإسلام أقر مفهوم التكامل بين العقل والوجدان ، بالعقل يميز وبالوجدان يستشف الحقائق العليا .

وقد كان للعقل مكان واضح لهذا الدين مرشد إليه ، متقبل للفصل فى نور الوحى الكريم ، فالعقل يتكامل مع الوحى . وفى الإسلام كل قيمة لها جانبان ، فالطهارة هى طهارة الجسم وطهارة القلب . والتقدم مادى ومعنوى ، وقد قامت قاعدة منهج المعرفة الإسلامى على التكامل بين الوسائل والغايات والترابط بين المنهج والسلوك ، وفى الإسلام من الخطأ طرح القيم كمجرد مبادئ مجردة ،

ولكن منطلقاً للتطبيق والعمل والنظرة الإسلامية تقوم على اقتناع العقل وتصديق الفكر وطمأنينة الروح ، ويجمع المسلم بين الحس (عن طريق المؤثرات الخارجية) والفهم (والمعقولات) ولما كان الإنسان عقلاً وقلباً ، وتفكيراً وعاطفة فإن الغاء احدهما خروج على الفطرة وعكس لطبيعة الأشياء ، والتسليم اصل والشك عرض.

بل إن بعض الباحثين يصل إلى القول بأن العقل لدى الإنسان مركزة القلب وليس الدماغ ، وأن فعل (عقل) ورد فى القرآن اثنين وثلاثين مرة فى الوقت الذى لم يرد فيه لفظة العقل إلا مرة واحدة .

* * *

ولقد كان المنهج التجريبى الإسلامى : منهج الاستقراء والاجتهاد العلمى جديداً على البشرية كلها ، استمده المسلمون من القرآن الكريم وقام على قواعد أساسية .

(١) الاستقراء واستعمال العقل .

(٢) الأمانة الكاملة والتناصح فى العلم .

(٣) العمل بالظاهر الذى تنتجه المقدمات .

(٤) تحرير الكلمات لتجديد المفاهيم التى يعمل بها .

(٥) جعل الفيصل فى التجريب (العلة المؤثرة) يقول المستشار عبد الحليم الجندى:

« ومن هنا فقد استبعد "منطق أرسطو" لما فيه من تضليل الباحث ، وأن المسلمين هم اول من استبعد المنطق اليونانى (منطق أرسطو) واعتبروه زندقة من قبل بيكون بستة قرون على الأقل .

وقد كان العلم الأوربى عربى الطابع ، والمسلمون يحرقون ليتنصروا فى الأندلس فى القرن السادس عشر ، وآثارهم فى إيطاليا تبعث الآداب من رقدتها ، ونظرياتهم العلمية تبعث الإعجاب فى كل الجامعات .

وليس مسلك الحصر والغربلة إلا مسلك التقسيم والسير فى مسالك العلة التى ابتدعها علماء الأصول للوصول إلى العلم ، وقد أصبح أصول الفقه هو أصول

الفكر العلمى .

وفى عام ١٦٢٠ ظهر كتاب (المنهج الجديد لفرنسيس بيكون) وكان واحداً من المتعصبين ضد المسلمين وورث تعصبه من أبيه وأمه ، وقد أعماه التعصب عن كل ما هو إسلامى ، وقد دفعه إلى إخفاء مراجع كتابه ، لكن آفات أخرى كانت تخالط دمه فقد كان قاضى القضاة الوحيد فى التاريخ الإنجليزى الذى اعترف ببضع وعشرين رشوة .

وقد روج الإنجليز لهذا الكتاب باعتباره فاتحة العصر الجديد بما فيه من دعوة لارتياد الطبيعة وتفسيرها على أساس الملاحظة الدقيقة ودعوته للاستقراء والتجربة بالتحقيق العقلى لا بالمنطق العقلى مع استعمال لغة محدودة الدلالات والعدول الكامل عن منطق أرسطو لما فيه من تعطيل العقل عن بلوغ غرضه ، وفى وجوه التعطيل المشار إليها وضع نظريته المسماة بنظرية الأصنام الأربعة ، وقد قام منهجه على التحرر من خرافات السابقين ، وفى مقدمتها فلسفة أرسطو السفسطائية حيث افسد الفلسفة الطبيعية بالمنطق وخلط الفلسفة بالخرافة أو اللاهوت على أوسع مدى؛ حتى ليختلط الفكر بالخيال . ولقد دمرت فلسفة أرسطو الفلسفات الاخرى، ويرد الدكتور إليكس كاريل المخاطر التى واجهت الفكر الغربى والحضارة الغربية كلها إلى الدور الذى قام به ديكارت ، فيقول فى كتابه تجديد الإنسان : لقد فصل ديكارت الأشياء المادية عن الاشياء الروحية فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا التفريق مما لا يمكن تفسيره ، وهذا بناء الجسم وطريقة مقامه لوظائفه المختلفة فى نظرهم أشد ثبوتاً من الفكرة والنشوة والحزن والجمال : هذا الخطأ حول الحضارة إلى الطريق الذى أفضت إلى انتصار العلم وانحطاط الإنسان وأن منقذى العالم يجب أن يتوفروا على دراسة الإنسان من ناحيته الكمية والنوعية معاً » .

ولقد كان واضحاً أن هذا التمزق من أخطر ما أصاب الفكر الغربى ، ويجب ألاّ يندفع الفكر الإسلامى وراءه فى قبوله ، كذلك فقد بات واضحاً فى أفق الفكر الإسلامى أن المنطق اليونانى يقوم على خصائص اللغة اليونانية ، وهى تخالف مقتضيات لغة العرب ، ومن ثم كطبيعة فى البحث والتقصى قد توقع فى التناقض.

ولا شك أن أهم أسباب نفور العلماء المسلمين من الفكر اليونانى كما يقول

الدكتور عبد الله الأوصيف : إدانه المنطق العلمى الحديث هو توجيه القرآن الكريم لهم والسنة النبوية إلى طلب حسن النظر والانطلاق فى التفكير من الواقع الموضوعى ، وليس فى مجرد التخيل والتصور ، وقد برز ذلك منذ فجر النهضة الإسلامية فى حين ظلت المجتمعات الأوربية خاضعة للمنطق الأرسطى كما فهمه رجال الكنيسة فى بداية العصور الحديثة ، ولا تزال حادثة اغتيال مؤلف كتاب (كل ما قاله أرسطو وهم وضلال)وهو بطرس ريموس ترمز للتعصب الذهنى وممارسة إخضاع العقل للوجدان ؛ حيث يمكن تلخيص ذلك المنهج فى الحملة الآتية (آمن ثم فكر) فى حين تقضى طبيعة المنهج فى ظل الفكر الإسلامى عكس ذلك (فكر ثم آمن) .

* * *

ولقد استطاع علماء المسلمين أن يقننوا أسس المنهج العلمى الإسلامى استمداداً من القرآن الكريم وان يستخلصوا مبادئ عامة له أهمها :

أولاً : محاربة الظن وقد ورد ذلك فى القرآن ٢٤ مرة منها ﴿ **إن الظن لا يغنى عن الحق شيئا** ﴾ (النجم : ٢٨) ﴿ **إن بعض الظن إثم** ﴾ (الحجرات : ١٢) وقد وردت كلمة الظن بمعنى التوهم والتخرص وهما نقيض العلم واليقين ، وقد دعا الإسلام الناس أن لا يبنوا فكرهم وآراءهم على الظنون ؛ لانها لا تؤدى إلى معرفة الحقيقة ، ومن ثم حارب الظن والتخمين .

ثانياً : محاربة التقليد الأعمى : فحث القران على الخروج من نطاق التبعية والتقليد للموروث ، والتقليد لما عند الآخرين تحت اسم التفوق ﴿ **إنا وجدنا آبائنا علي أمة وإنا على آثرهم مهتدون** ﴾ (الزخرف : ٢٢) .

وقد استأصل القرآن شأفة ذلك المنطق المعوج الباطل الذى كان يحتج به المعاندون للحق والمكابرون .

ثالثاً : عدم اتباع الهوى : والهوى هو الرغبة الشخصية أو المثل الذاتى القائم على غير الحق والميل الشخصى القائم على الرغبات الشخصية ، وقد حارب الإسلام الهوى ، وبذلك دعا إلى الموضوعية ﴿ **فلا تتبعوا الهوى** ﴾(النساء:١٣٥).

وبذلك حارب الإسلام ثلاثة أمور : اتباع الهوى والظن والتقليد الأعمى ، ودعا إلى ثلاثة : التعقل والتروى والتدبر وتوخى الحق والصدق ، وحرم كتمان الحق أو خلطه بالباطل ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ (محمد: ٢٤) ﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ (البقرة : ٤٢) .

* * *

نحن والفكر الغربى

٩

أكبر مشكلة بيننا وبين الفكر الغربى قضية التكامل بين الروح والمادة

إن أكبر وجوه الخلاف بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى قضية التكامل بين الروح والمادة . وإصرار الفكر الغربى على تحكيم الفلسفة المادية التى لا تعترف بالوحى والغيب وتكامل القلب والعقل والروح والمادة .

لقد كان أبرز معطيات الإسلام مفهوم المعرفة الجامع بين العلم والدين؛ ولذلك فقد جاءت نظرية الغرب بعد ثلاثة عشر قرناً قلقة مضطربة لم يقبلها الفكر الإسلامى ، لقد رفضها كما يرفض الجسم العنصر الغريب .

ولقد أقام الفكر الغربى نظريته على أسس ثلاثة : الطبيعة ، العقل ، المحسوس .

وعندما عجز هذا الفكر عن تعليل بعض الظواهر ردها إلى الصدفة ، وكان أخطر ما قبله منهج دارون الذى اعترف بان هناك حلقة مفقودة فى نظريته لم يستطع أن يستكملها ، وقد ظلت مفقودة إلى اليوم بعد مائة عام من ظهور نظريته، وجاءت الحفريات فكذبت دعواه كلها ، أما الإسلام فقد أقام مفهومه فى مجال العلم والمعرفة على الفطرة (التوازن ـ التكامل ـ النظرة الجامعة) .

ولقد حاول بعض فلاسفة الغرب تحكيم مفهوم الإسلام ولكن أصواتهم كانت ضعيفة بالنسبة لأصوات دعاة المادية المعروفين بدعاة التنوير الذى هو فى حقيقته إنكار للدين والوحى والغيب ورسالة السماء جملة ، وكان (كانط) قد أقام فلسفته على نظرية الجمع بين المادة والروح وبين العقل والماديات ، وقال فى كتابه نقد العقل : إن كل إدراك قائم على عنصرين اثنين ضروريين متكاملين ، أى لا يتم بدونهما ولا معنى لأحدهما دون الآخر ، وجمع بين القوالب الذهنية والإحساسات وبين المحسوسات والعقليات .

ولكن علماء الماديات فى الغرب تصايحوا على هذه الوجهة وعملوا فى محاولة مستميتة وصفت بأنها خاطئة وفاشلة لرد الأزمات والمشكلات والأدواء جميعاً إلى الأسباب المادية والعوامل الاقتصادية ومؤثرات البيئة وحدها متجاهلين تماماً كل العناصر الأخرى والعوامل الحقيقة والأسباب الأصلية وأطلقوا على مذهبهم هذا (المذهب الإنسانى) أو دين الإنسانية ، وقد اخطأ بعض مفكرى الغرب الذين تدافعوا وراء هذا المنهج المادى حين انخدعوا بالحسابات الرياضية والجداول الاحصائية والدراسات الوثائقية ظناً منهم أن هذا كله هو المنهج العلمى الذى يجب أن يتبع .

وكان هذا هو الخطأ البالغ حيث تجاهلت المنهجية العلمية الوافدة أخطر ما يحرك الإنسان والمجتمع وهى النفس وتهذيبها والقلب وتطهيره ، والوجهه الخالصة لله تبارك وتعالى، والإيمان العميق ، والتقوى ، وكل هذه العوامل التى يحتمها الالتزام الأخلاقى والقادرة على كف النفس عن جماح الشهوات .

وهنا تظهر أبرز وجوه الخلاف وأعمقها ، وتتكشف مدى الخطورة فى الانسياق وراء ما يسمى المنهج العلمى الغربى الذى هو فى الحقيقة (الفلسفة المادية القديمة بوثنيتها وإنكارها للخالق العظيم) .

ولقد تبين بجلاء الآن ، ويجب أن يكون ذلك واضحاً فى عقول ونفوس شباب الأجيال المسلمة الملتزمة والمتطلعة إلى بناء المجتمع الربانى ـ أن حاجة المجتمع الإسلامى تقوم على تكامل العلم مع الإيمان ، خضوعاً فى التطبيق ، وانطلاقاً من الوجهة الربانية الصحيحة .

فالإنسان جسم وروح وعقل وقلب ، ولابد من رعايته رعاية كاملة ودفعه إلى أداء مسئوليته فى المجتمع على نحو صحيح ؛ حيث يقدر الإسلام (التقدم) العلمى ويحث عليه ويعتبره عبادة ، ولكنه يريده على نحو مختلف عن النحو الذى يمضى عليه الغرب اليوم .

* * *

ويقرر الإسلام قاعدة التوازن بين الروحية والمادية وقاعدة التكامل بين القلب

والعقل وقاعدة التوافق بين الفرد والمجتمع وقاعدة التوائم بين الرجل والمرأة .

وهو بذلك يختلف مع الفكر الغربى فى الأسس والجذور والأوليات ، وتمثل نقطة البدء أشد العوامل خطراً .

فإن أخطر ما يهدم المنهج العلمى الغربى هدماً شديداً ويثير كل أسباب الاضطراب والخوف واليأس والتشاؤم (وهى الظواهر الواضحة تماماً فى آداب الغرب ومفاهيمه النفسية والاجتماعية) هو موقف الفكر الغربى من وجود الله تبارك وتعالى وفساد وجهتهم فى إنكار واجب الوجود وتأليه الطبيعة وإعطائها كل صفات الحق تبارك وتعالى من قدرة وتصرف : هذا المفهوم للنظرية المادية (والذى هو طارئ على الفكر المسيحى الغربى ومن صنع دعاة التنوير التلموديين وحكماء البروتوكولات وأقطاب الماسونية) هو الذى يصبغ مختلف النظريات والعلوم والمفاهيم بصبغة مظلمة ، وهو الذى يفرض على منهج المعرفة طابعه الانشطارى ، بينما يقدم الإسلام منهج الإيمان بالله وتكامل القيم ؛ حيث تجمع نظرية المعرفة الإسلامية بين العلم والدين ، وحيث يقوم المنهج فى الفكر الإسلامى على الدليل والبرهان ومحاربة الظن وما تهوى الأنفس .

إن خطر الفكر الغربى اليوم فى أفق الفكر الإسلامى طرحه على أنه علم ، بينما هو ليس إلا مجرد فرضيات أهواء وعقول ، وأحقاد خطر هذا الفكر أنه يتسابق إلى تقديم بديل عن قدرة الله وسلطانه ؛ حيث تضع مدرسة العلوم الاجتماعية الفرنسية (دوركايم وليفى بريل وغيرهما) سلطة المجتمع وحاكميته بديلاً عن المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى ، بينما ترى النظرية الماركسية أن الأمور كلها تقود إلى الصراع الطبقى ، أما الطبيعيون فينسبون إلى الطبيعة الخلق والحركة وكل شيء .

* * *

ويقف الإسلام من هذه المطروحات موقفاً واضحاً صريحاً حين يرى أنها تجافى الفطرة وأنها تنزع إلى تغليب فكرة مادية على فكرة مادية أخرى ، فى صراع دائم يخلقه البعد عن الإيمان بالله تبارك وتعالى .

والنظرة الإسلامية تحمى المجتمعات من التمزق النفسى ، وتضعها أمام مسئولياتها من خلال المسئولية الفردية ، وتجعل تلاقى الأجيال وتكامل القيم هو أصدق وجهة من مفهوم الصراع الطبقى .

إن الفكر الغربى حين يرفض الغيبيات إنما يرفض فى الحقيقة رسالة السماء المنزلة على الأنبياء بالأصول الحقيقية لتوجه الإنسان فى الحياة وحمايته من التمزق والانهيار وكشف دوره الطبيعى فى السعى والعمل واستخراج كنوز الأرض على أن يكون عمله كله منطلقاً من وجهه ربانية خالصة تحدوها وجهة أخلاقية أصيلة .

إن الغرب حين يرفض الغيبيات إنما يريد أن يعبر عن خصومته للاهوت والكنيسة وما قدمته إليه على أنه دين المسيح كما شرحه الذين عبروا به إلى الغرب، وإذا كانت الديانة الغربية لم تحقق مطامع العلماء وعارضت وجهتهم فى العلم، فقد كان عليهم أن يبحثوا عن أوجه الخلاف بينها وبين الدين المنزل ، لا أن يرفضوا الدين جملة ويبعدونه عن مسيرة الحياة .

ولقد دفعهم رفض الدين جملة إلى تقديم أديان وضعية عن طريق الفلسفة التى عجزت تماماً عن أن تعوض القيمة الحقيقية للعطاء الربانى الصحيح ، وهذا هو ما تكشّف اليوم على السنة وأقلام كتّاب الغرب المنصفين ، سواء منهم من دخل فى الإسلام أو من لا يزال يقف موقفا محايداً ؛ ذلك أن عطاء الأديان للانسان ضرورة أساسية ولو كان العقل قادراً وحده على هداية الإنسان ما جاءت رسالات السماء ، ولكن العقل جهاز يعمل بما يلقى اليه ويضىء له الطريق ، فإذا غذى بالوحى حقق رسالته فى العطاء الصحيح ، ولكن إذا غذى بالأوهام والاساطير وفكر طفولة البشرية فإنه يضل صاحبه فيعجز عن أن يعرف الوجهة الصحيحة .

ولا ريب أن حيرة الفكر الغربى والقتام الواضح فى فكرة وفى أدبه ، راجع إلى اعتماده على مقولة باطلة هى (الخطيئة) تلك التى صورت الفكر الغربى اليوم بصورة اليأس القائم والتشاؤم القاتم ، وهو ما يحول وتحول بينه وبين الوجهة المضيئة الصحيحة : وجهة الله تبارك وتعالى خالق الكون والإنسان وهاديه إلى ما وصل إليه من كشوف وعلوم .

* * *

نحن والفكر الغربى
١٠
عالم الغيب قاعدة المفهوم الإسلامى الجامع

أقام الفكر الغربى فى العصر الحديث قواعده على أساس وثنية اليونان بمختلف مفاهيمها فى جميع الميادين :

(١) العبودية والرق وفق قاعدة : (روما سادة وما حولها عبيد) وان كانت هذه القاعدة قد زينت بعض الكلمات البراقة ، ولكنها ظلت فى صحيحها استعلاء بالعنصر والجنس واللون الأبيض على شعوب العالم التى وقعت تحت سطوة الاستعمار الغربى .

(٢) إنكار ما لا يدركه الحس ، واعتباره غير موجود أصلاً أو كالمعدوم ، ومن هنا إنكار عالم كامل قائم حقيقى هو عالم الغيب والنبوة والوحى ورسالة السماء جملة ، وإنكار وجود الحق تبارك وتعالى .

(٣) إرساء مفهوم لما يسمى دين الإنسانية بديلاً عن الدين المنزل قائم على مجموعة مفاهيم الفكر الوثنى والإباحى والمادى وعبادة الأجساد وخلق ألوهيات باطلة جديدة هى الحضارة والمال وغيرها بديلاً عن ألوهيات اليونان الزائفة ، وقد جاءت نظريات الهومينزم وغيرها استمداداً من علم الأصنام اليونانى القديم .

(٤) أدى الصراع بين المسجد والعلم إلى نهاية علاقة الأرض بالسماء وظهور دعاوى مضللة تقول بميلاد الإنسان الممسك بزمام حاضره والمتحرك بعيداً عن وصاية الدين ، ومن هنا نشأت العلمانية التى تفصل بين الدين والسياسة أى بين العقيدة والمجتمع ـ وقد كان هذا أمراً خاصاً بالغرب الذى كان يملك دنيا هى عبارة عن وصايا ولم يكن له منهج حياة .

وقد أحدث طرح هذه النظريات فى أفق الفكر الإسلامى بلبلة خطيرة ؛ لأنه طرح فى غير موضعه ، فلا الإسلام عادى العلم ولا كان من غير منهج جامع ؛ ليواجه ما واجهته المسيحية الغربية (التى تختلف عن المسيحية المنزلة) .

لقد أخذ الغرب ـ بعد أن اختلف مع دينه الذى كانت وجهته مضطربة فى علاقته بالعلم ـ يتخبط تخبطاً شديداً ؛ ولذلك لم تحقق له معطيات الإسلام التى نقلها صدق الوجهة إلى معرفة الحقيقة فى العلاقة بالله تبارك وتعالى ، وبخاصة عندما دخل مرحلة (التنوير) التى تولاها التلموديون الذين رسموا مخططات بروتوكولات صهيون بعد أن أقاموا فلسفة الماسونية من أجل إخراج البشرية من الدين جملة ؛ حيث انحاز الفكر الغربى جملة إلى الفلسفة المادية وأنكر الجانب الآخر من التصور الكامل الجامع الذى جاءت به الأديان والذى يربط بين العقل والقلب والدين والعلم والمادة والروح والدنيا والآخرة .

ومن هنا حدث ذلك الصدع الشديد فى الفكر الغربى الذى كان له أثره على وجهة المجتمعات الغربية والحضارة العالمية.

إن الإسلام الذى قدم إلى الغرب منهج التجريب ومنهج المعرفة الجامع هو الذى أعطى الفكر الإنسانى والحضارة الإنسانية أساساً صلباً ثابتاً راسخاً هو التكامل الجامع .

فقد جمع الإسلام بين الفردية والجماعية ، وبين العلم والدين ، وبين العقلانية والوجدانية ، وبين الروح والمادة ، وبين الوحى والنقل ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الغيب والشهادة ، وبين الثبات والتطور ، وبين الماضى والحاضر ، وبين المحافظة والتجديد وبين الحريات والضوابط ، وبين التربية والتعليم ، وبين الإسلام والإيمان ، هذا التكامل الذى من شأنه أن يقضى على كثير من عوامل الصراع حيث يحل اللقاء بديلا عن الصراع بين الأجيال ، وبين القيم وبين العناصر والأمم ، ومن هنا كانت ضرورة التفرقة بين العلوم والفلسفات وبين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية .

* * *

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت الفكر الإسلامى هى ترجمة فلسفات اليونان والفرس فى القرن الثالث ، ومحاولة بعض المفكرين المسلمين إيجاد صلة أو ربط بين الفلسفات الوثنية المادية وبين مفهوم الإسلام ، وهى محاولة باءت بالفشل؛ لأنها عدمت وجود أصول جامعة بين منهج يقوم على العبودية والرق وعلى قيام

السادة فى الأعلى والعبيد فى السفح مؤيدة بفلاسفة أمثال أرسطو وأفلاطون يقررون ضرورة وجود الرق لقيام الحضارات وبين دين يدعو إلى حرية الفرد وتحريره من الوثنية والرق أساساً لدعوته العالمية .

غير أن علماء المسلمين سرعان ما كشفوا عن تجاوز الفلسفة اليونانية وفسادها حين كشف عن علم الأصنام فى اليونان ووثنيتها القديمة ؛ حيث كانت يونان القديمة ترزح تحت نير الألهة ومعابد الكواكب وهياكلها ، وقد أشار السيد ابو الحسن الندوى إلى ما كشفه العلامة سليمان الندوى ، حين قال : إن الفلسفة التى تلقاها المسلمون على أيدى الناقلين من يهود ونصارى لم تكن صافية محضة، فإنها كانت مشوبة بما كان يعتقده اليونانيون من تأله الكواكب ، وأساطيرها حين قالوا بالأفلاك وحركاتها وطبائعها ، وقد كشف حجة الإسلام الإمام الغزالى عن هذه الحقيقة ، وأكمل هذه الوجهة الإمام ابن تيمية ، وكان كل ذلك يؤكد فساد مفهومهم للألوهية ، هذا الذى وَرَّثُوه للفكر الغربى الذى خاض بعد اليونان تجربة أخرى لم تقدم له الألوهية على مفهومها الصحيح : عبادة الله تبارك وتعالى الواحد الأحد ، بل جاءت مشوبة بالتعدد والصلب والخطيئة .

لقد قدم الإسلام أساس المعرفة الحقة القائمة على الإيمان بعالم الغيب والشهادة والوحى والنبوة ، والله الواحد الأحد ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقضاء خيره وشره ، وهى عقائد لا يفوز الإنسان بغيرها ، ولا يحصل عليها إلا بفضل المعلومات التى جاءت من عالم الغيب ، ومعنى هذا أن الإسلام قدم منهجاً كاملاً دقيقاً لعالم ما وراء المادة (الميتافيريقا) بحيث يرسخ إيمان المسلم بربه وبالوجهة التى يتحرك بها كإنسان فى هذه الدنيا من خلال المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والجزاء الأخروى ، وهذا هو الجانب الذى تجاوزته الحضارة الغربية وغفل عنه الفكر الغربى فى بناء مجتمعه وحركة حضارته المعاصرة .

وبغياب هذا الجانب الخطير الشديد الأهمية للإنسان ومجتمعه وحضارته حاول الغرب فهم كل العلوم اعتماداً على التجربة المادية والشخصية ، فأقام فكرة خلق الإنسان على مذهب دارون ، وأقام مسائل النفس والأخلاق والاجتماع على مفاهيم سبنسر وفرويد وماركس ودوركايم ؛ فأخفق وفشل وتعثر ؛ لأنه لم يكن

يملك الوسائل والأدوات التى تؤهله لفهم هذا الجانب المرتبط إلى حد كبير بعالم الغيب.

لقد قدم الإسلام منهجًا جامعًا قوامه الثوابت والمتغيرات من ناحية وتكامل القيم من ناحية أخرى فليس هناك صراع بين الروح والمادة أو القلب والعقل ، أو الدنيا والآخرة ، بل هناك تكامل ، وهى ليست ثنائية أو ازدواجية كما يصورها كتاب الغرب ، بل هى وجها العملة ، العنصران المتكاملان اللذان خلق منهما الإنسان ، قبضة الطين ونفخة الروح ، فإذا ذهبت تفصل هذا الجانب عن الجانب الآخر لم تجد إلا صراعًا شديدًا حول الجانب الذى لم يحقق وجوده والمختفى فى ظلمات الجانب المضىء .

والذين يقولون بالثنائية أو الازدواجية لا يعلمون أن هناك قوانين تحكم العلاقة بين العناصر ، وأن الثوابت التى أقرها الإسلام هى التى تعطى هذا الجانب أو ذاك قوته ومنطلقه .

والإسلام يؤمن بتكامل القيم ولا يقر إعلاء جانب على جانب ، وهو يجعل لكل قيمة جانبها المادى وجانبها المعنوى ، فالتقدم مثلاً لا يقر الإسلام مفهومه المادى الخالص ، ولكن يجعل له مفهومًا معنويًا وماديًا متكاملاً ، وكذلك فى مجال الآداب فالجمالى والخلقى يتكاملان ولا يطغى الجمالى على الخلقى أبداً ، وكذلك تكامل الزمنى والروحى ، والمطلق والحسى واللانهائى والمحدود .

ولما كان الإنسان نفسه جامعًا لهذه (الثنائية المتكاملة) كان لابد من التقائهما فى الوجهة ، أما مقولة بعض الفلسفات من أنه لابد من الارتقاء بالروح بسجن الجسد ، أو حرمان الإنسان من متع الحياة ، فقد رفض الإسلام ذلك كله:

﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ (الأعراف : ٣٢) .

هذه واحدة ، أما الأخرى فهى فصل الغرب بين الإيمان والمعرفة ، والقول بأن الدين يختص بالاعتقاد والإيمان ، والعقل يختص بالمعرفة لا الإيمان ، أو القول بان للدين ميدانه وللعلم ميدانه ، فذلك كله مغاير لمفهوم الإسلام الذى يجمع بين الإيمان القلبى والإيمان العقلى ؛ حيث تتكامل وخير الأمور ما اتصل أمرها بين القلب والعقل .

١١
النظريـــات الوافـــدة

إن جميع النظريات الوافدة التى ظهرت فى أفق الفكر الإسلامى لا تزيد عن أن تكون مجموعة من النقائض حاولت أن تشكل بالمزج والتركيب نظرية ملفقة واضح فيها أثر التجمل والصناعة ؛ ولذلك فهى لم تستطع أن تبقى طويلاً ؛ لأنها ضد طبائع الاشياء وضد الفطرة ، ولقد ظهرت فى الفترة السابقة مواصفات تلفيقية من أشياء متعارضة بعضها إسلامى وبعضها غربى فى محاولة لصهرها فى قالب واحد ومن ذلك محاولة الجمع بين الإسلام والقومية والماركسية ، أو الحرية والوحدة والاشتراكية ، أو إعلاء مصطلحات الثورة القومية والاجتماعية ، ولقد فشلت هذه المسميات كلها فى أن تعطى شيئًا له قيمته الحقيقية ، ولم تستطع واحدة منها أن تتغلب على تكامل الإسلام وفكرة الجامع القادر على إذابة المجتمعات فى وحدة حقيقية بعيده عن الصراع الفكرى أو التمزق النفسى .

* * *

ومن ذلك مقولة الوحدة الإنسانية أو الوحدة البشرية أو ما يسمى (الهومنيزم) وهى دعوة مسمومة تريد أن تحطم تميز الأمم وطوابعها الخاصة ، ووجهتها الخالصة فى محاولة لصهر الشعوب فى الأممية أو الدعوة العالمية التى تقوم الآن على الطابع الغربى المسيطر ، وبذلك تدمر قيم الأمم التى تمر بمرحلة ضعف أو تخلف .

ولا ريب أن الهدف من هذه الدعوة هو احتواء عالم الإسلام وصهره فى بوتقة الغرب وحضارته ومفاهيمه بحيث يقضى على التميز الذى جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا والذى هو مصدر قوتها الحقيقية وطابعها المتفرد ومجالها المفتوح بعد انهيار الحضارة الغربية إلى تبليغ كلمة الله إلى العالمين .

ولقد كانت الدعوات الثلاث الوافدة : القومية والليبرالية والاشتراكية مصدر

اضطراب شديد فى محاولة السيطرة على المجتمع واحتواء مفاهيمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية خلال أكثر من سبعين عاماً ، ولكن النتائج التى وصل إليها الموقف حتى الآن تنبىء بتساقط هذه النظريات والأيدلوجيات ؛ لأنها لا تستطيع أن تحقق أشواق النفس المسلمة ولا مطامحها ، ولأنها حاولت السيطرة على العقل الإسلامى واحتوائه ، ولما كانت أقل كثيراً من المنظومة الإسلامية من حيث عطاؤها أو محتواها ، وعلى الرغم من مرحلة الضعف التى تمر بها الأمة الإسلامية، فقد عجزت عن إيجاد تقبل حقيقى لها ، وعلى الرغم من أنها فرضت بقوة النفوذ الغازى عليها ولم تتطلع إليها الأمة الإسلامية كبديل لمنهجها .

ولقد تبين أن التصور الغربى الذى يحمل لواءه العلمانيون والشيوعيون فى مواجهة الإسلام قاصر عن أن يقدم منهجاً عالمياً ، يصلح لغير أصحابه الذين صاغوه فى ظل تحدى الصراع الذى قام بينهم وبين التصور الذى عبر إليهم والذى يمثل (المسيحية الغربية) لا المسيحية المنزلة ، وأبرز معالم اضطرابه هو عجزه عن الاستمرار فى العطاء ، نتيجة لما أصابه من اختراق متغيرات البيئات والعصور له ، مما احتاج معه إلى الإضافة والحذف ، ومما كشف عن أصالة المنهج الإسلامى القادر على تحقيق التوازن والمواءمة مع مختلف الحضارات والظروف .

والحقيقة أن الغرب بعد أن انسلخ من التصور الدينى المسيحى لم يجد أمامه إلا أن يرتد مرة أخرى إلى الفكر الإغريقى الوثنى المادى الإباحى ؛ ليصهر فيه ما استطاع تقبله من الفكر التجريبى الإسلامى ، مما شكل له نظرية تلفيقية شديدة الخطر من فكر دينى مسيحى ويهودى وفكر ثقافى يونانى وروماني فى خليط عجيب قوامه الأساطير والفلسفات ونظريات الاتحاد والحلول وأفكار العقول العشرة والغنوص والنزفانا ، حيث استطاعت الفلسفة الإغريقية والغنوصية اغتيال المفهوم الدينى ، بينما عجزت الفلسفة القديمة أن تغتال الإسلام الذى استطاع أن يحرر فكره من سيطرتها واحتوائها .

وهكذا تشكل فى الغرب فكر بشرى ليس بعيداً عن الدين بل معاد للدين رافض إياه تماماً ورافض لما تبعه من مفاهيم الألوهية والنبوة والغيب والبعث والجزاء الأخروى .

وقد حاول الغرب أن يفهم كل العلوم اعتماداً على التجربة المادية ؛ ولذلك فإنه فى مسائل النفس والأخلاق والاجتماع أخفق وفشل وتعثر ؛ لأنه لم يكن يملك المنهج والوسائل التى تؤهله لذلك ، ولقد عمل النفوذ الغربى فى محيط الأمة الإسلامية على التمكين لأمرين :

الأول : فرض النظريات التى تنكر وجود الله تبارك وتعالى وتحدث عن قدرة الطبيعة أمثال نظريات دارون وغيره .

الثانى : فرض النظريات التى تحاول أن تصور الإنسان على أنه حيوان أمثال نظريات فرويد وماركس ودوركايم .

الثالث : إفساد مناهج التاريخ وتزييف حركة الفتح الإسلامى والدولة الإسلامية وإثارة شبهات حول صحابة رسول الله .

الرابع : إنكار القرآن الكريم والتشكيك فى السنة المطهرة وإثارة مغالطات كثيرة حول حياة الرسول ﷺ .

الخامس : مهاجمة اللغة العربية الفصحى ومحاولة فرض اللغات الأجنبية وإعلاء العامية فى محاولة لإقصاء بيان القرآن الكريم عن أسلوب الكتابة والكلام.

السادس : محاولة إعلاء المفاهيم الإقليمية والقومية وما يتصل بالعنصر والعروق والدماء فى محاولة للحيلولة دون استعادة الأمة للوحدة الإسلامية الجامعة مرة أخرى.

السابع : محاولة القضاء على كل الفوارق بين المرأة والرجل حتى فى اللغة ونطق الأسماء والضمائر والقضاء على كل ما يؤكد الفوارق بينهما .

الثامن : إحياء ركام ما قبل الإسلام من أساطير وخرافات وفكر طفولة البشرية وما يتصل بالسحر والنجوم والكواكب .

ولقد كشف المسلمون فساد منهج الغرب ووجهته فى إفساد منهج الإسلام وأبانوا عن حقيقة الإسلام ، وقد أعطاهم الحق تبارك وتعالى منهجاً محكماً قادراً على مواجهة متغيرات العصور والبيئات أضاء العالم كله ألف سنة كاملة ، وأقام حضارة الإخاء والرحمة والعدل ، وقدم منهجاً تجريبياً ومفاهيم وقيماً أساسية صالحة لإقامة المجتمع الآمن ، وهو منهج قام على الإيمان بكل الإديان السابقة والكتب

المنزلة ، وعامل أهل الكتاب بالحسنى والحماية تحت قاعدة ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾(البقرة : ٢٥٦) وكيف أن كل ما قدمه القرآن الكريم مصدق لما بين يديه من التوارة والإنجيل ، وهنا كان لابد من كشف الوجهة المغشوشة للغرب فى محاولته احتواء الإسلام والمسلمين وعجزه عن ذلك ؛ لأن المنهج الربانى قادر على حماية وجوده وقادر على أن يعطى أهله القدرة على التجدد من داخلهم والانطلاق مرة أخرى إذا التمسوه فى أية أزمة تلم بهم .

١٢
فوارق عميقة بين التصور الإسلامى والتصور الغربى للمجتمع والحضارة والاخلاق

تتحدد معالم المعرفة الإسلامية والتصور الإسلامى للعلم فى أصول أساسية:

أولاً : التوحيد الخالص وربانية المصدر والمنهج والإيمان بأن الوجهة هى الله وأن المنطلق هو الله ، من خلال إيمان بالمسئولية الفردية والالتزام الاخلاقى والجزاء الأخروى للإنسان .

وأن تكون حركة الإنسان المستخلف فى الأرض خالصة لله ، لا تغلبها الغايات الخاصة ولا المطامح أو المطامع الفردية ، وأن يكون الإنسان قادرًا على الانتقال من الفردية إلى الغيرية ، وأن يكون الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد .

ثانياً : أن قيام التصور الإسلامى على التكامل بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة .

ثالثاً : الوجهة قائمة على أمرين أساسيين :

السببية : سنن الله فى الكون .

الغائية : إسلام الوجه لله تبارك وتعالى .

رابعاً : أن تجمع النظرة بين الثبات والمرونة من ناحية ، وبين الثبات والتطور من ناحية أخرى.

(الثبات فيما يخلد ويبقى ، والمرونة فيما ينبغى أن يتغير) .

خامساً : تتمثل فى المنهج عناصر التكامل والشمول ، وعوامل الوسطية والتوازن:
ولا شك أن الشمول والتوازن من شأنه أن يصل الأرض بالسماء ويصل الدنيا بالآخرة ، ويربط بين الروح والمادة .

سادساً : علينا أن نتعرف على سنن الله فى الكون ، فهذا الكون مربوط بأسباب ومسببات وقوانين يؤدى بعضها إلى بعض وتؤدى المقدمات إلى نتائج،

والتدرج سنة كونية وسنة شرعية .

سابعاً : أن التخلف أمر حادث مؤقت ، وهو لا يقع إلا إذا انصرف المسلمون عن أصول منهجهم الاجتماعى والأخلاقى إلى حالة من حالات الغفلة ، أو الوهن أو التماس منهج وضعى يختلف عن منهجهم الربانى الأصيل ، فإذا عادوا إلى منهجهم رفع عنهم التخلف وعادت لهم القدرة على امتلاك إرادتهم .

ثامناً : قاعدة التغير الاجتماعى الإسلامية تقررها الآية الكريمة ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (الرعد : ١١) .

تاسعاً : أن أى محاولة للتوفيق بين عناصر الإسلام وعناصر أخرى من المذاهب او الأيدلوجيات هى محاولة مقضى عليها بالفشل التام ، فإن مقولة : (الجمع بين الشرق والغرب على هدى وبصيرة) مقولة باطلة ومضللة ، فالإسلام بمنهجه الربانى الجامع الواسع الافق العريض الجوانب العميق المحكم لا يقبل الإضافة أو الحذف من المناهج الأخرى ، وإنما يتقبل من الحضارات والأمم (الوسائل والأساليب) التى يستخدمها المسلمون مجردة من غايات اصحابها،لتكون وسائط لفكرهم ووصيتهم .

وقد سقطت المحاولة التوفيقية مرتين : فى العصر العباسى عندما ترجمت الفلسفات وفى العصر الحديث فى دعاوى القائلين (تراث إسلامى وواقع عصرى) .

عاشراً : لابد أن تصطبغ العلوم كلها بصبغة الإسلام حتى العلوم التجريبية البحتة ، وليست العلوم الإنسانية والاجتماعية وحدها ؛ ذلك لان للإسلام مفهوماً متميزاً لوجهة العلم والتقنية والحضارة والمجتمع .

ومهما قيل من أن العلم محايد فإنه ليس محايداً فكلا من الايدلوجية الغربية والماركسية تصبغه فى بوتقتها .

ولا ريب فى أن الإسلام نافذ إلى كل العلوم ، حتى العلوم التى لا صلة لها بالعقائد صلة مباشرة فإن وجهة الإسلام للعلوم تختلف عن وجهة الغرب ، فالعلم التجريبى فى الغرب يوجه فى سبيل :

(١) السيطرة على العالم .
(٢) إعلاء عنصر اللون الأبيض قائد الحضارة .
(٣) استغلال الأمم الملونة والمتخلفة ونهب ثرواتها .
(٤) توجيه العلم إلى زيادة غنى الأغنياء وزيادة فقر الفقراء .
(٥) استنزاف مصادر الطاقة ، وهذه الوجهة يرفضها الإسلام تماماً ويقرر مفهوماً آخر يقوم على الإخاء البشرى والعدل والرحمة والمساواة وحماية الطاقة وادخارها .

حادى عشر : أن أساس المعرفة الحقة التى قدمها الإسلام جاءت من عالم الغيب ، وهى الإيمان بالله تبارك وتعالى وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقضاء خيره وشره ، وهى عقائد لا يقر الإنسان بها ولا يحصل عليها – إلا إذا كان مؤمناً بالغيب أساساً ، وبالحقيقة الغيبية عن طريق الوحى ورسالات السماء .

هذه هى الدعامة الأساسية للتصور الإسلامى والمنهج الإسلامى الذى أقام الحضارة الإسلامية التى أضاءت هذا الكوكب ألف سنة كاملة .

ثانى عشر : أقر الإسلام تصوراً جامعاً بين الحقيقة العلمية (بالشهادة والتجربة) والحقيقة الغيبية عن طريق الوحى . هذا التصور رسم الغاية من وجود الإنسان ومسئوليته واستخلافه وغايته ووجهته ، وهو ما غفلت عنه الحضارة الغربية بدعواها بالصدفة والجبرية ، وإنكار غير المحسوس ، وأبرز أخطائها فى إنكار الألوهية والنبوة والوحى وفهم الإنسان على أنه حيوان ، والفصل بين المنهج والتطبيق ومحاكمة العلوم الإنسانية بمقاييس التجريب وتجارب الحيوان .

* * *

ويقوم الفكر الغربى على (**الظن وما تهوى الأنفس**) ويسيطر على الفكر الغربى مذهبان خطيران: الإبيقورية والميكافيلية ، فالفلسفة الإبيقورية التى تبرر الخيانة هى التى راجت فى أوربا عبر العصور ، ووجدت لها جيشاً من الأتباع

والمعجبين : إن أخص ما يتميز به مذهب إبيقور من الناحية الخلقية أنه يجعل اللذة غاية الغايات للإنسان، ويرى أن هذه اللذة لا تخلص ولا تستقيم لطلابها إلا إذا برئت من الألم ؛ ولذلك حرر مذهب إبيقور الإنسان من خوف الموت، وما قد يكون بعد الموت فإذا مات فقد عاد إلى العدم الذى خرج منه .

أما الميكافيلية فهى الانتهازية والاستهانة بالعقود والعهود واتخاذ أية واسطة ولو كانت مهينة فى سبيل الوصول إلى الغاية، وهى ما تطورت من بعد فى الفلسفة البرجماتية (الذرائعية) القائمة على المنفعة .

ولقد كان من أشد أهداف الفلسفة الماسونية عنفاً هو إلغاء الدين وهدمه وتزييفه والتشكيك فيه بهدف تدمير المجتمعات .

ويرى الدكتور محمد عبد الله دراز أن منهج مقارنات الأديان الغربى يتسم بالنقص بسبب تجريدهم (ماهية الدين) من فكرتى الروحية والإلهية . وقد اكتشف أن العلم البشرى لا يستطيع إطفاء غريزة الدين بل سيزيد إشعالها ، لقد أصبح العلم يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هى المعيار الوحيد للوجود، وهكذا فالعلم يضع بيده اللبنة الأولى فى القاعدة التى يقوم عليها الدين .

ويقول : دعاة التنوير الماسونى التلمودى أن هدفهم هو هدم الإيمان الدينى من قلوب الشباب ويقولون: (لقد نشرنا روح التحرر الكاذب بين شعوب الأغيار (غير اليهود) لإقناعهم بالتخلى عن أديانهم، بل والشعور بالخجل عن الإعلان عن تعاليم هذه الأديان، والأهم من ذلك أننا نجحنا فى إقناع كثير منهم بالإعلان جهاراً عن إلحادهم الكلى وعدم الإيمان بوجود إله ألبتة » .

ألاَ ما أبعد الفرق وأعمق الفرق بين مفاهيم أقامت المجتمع الربانى ومفاهيم تقيم المجتمع المضطرب المنهار ذى الصورة اللامعة الزائفة .

* * *

(١٣)
تكامل القيم وانشطاريتها

من خلال مفهوم الفكر الغربي القائم على مفهوم الفلسفة المادية التى تتجاوز طبيعة الإنسان وتكوينه الجامع ، تتمزق القيم ، وتبدوا صورته متناقضة مضطربة، فالغرب حين تجاهل الروح والمعنويات والغيب وكل ما يتصل بعالم ما وراء المادة بدت النظرة منفصلة ، وبدا تعامله مع شطر دون شطر ، ومن ثم فإن هذه النظرة العلمانية المادية تقوم على تناقضات بين الدين والقومية، وبين الدين والعلم، وبين الأخلاق والتطور ، وبين الثبات والتغير ، وبين الأصالة والمعاصرة .

إن هذه القيم تبدو متناقصة متعارضة فى ضوء مفهوم الفكر المادى بينما هى فى مفهوم الإسلام الجامع متكاملة متلاقية؛ حيث إن أساس المعرفة الحقة التى قدمها الإسلام جاءت من عالم الغيب، فإذا أنكرت المعرفة (عالم الغيب) اضطربت القيم والمفاهيم وتجزأت ، وهم أحياناً يطلقون على (تكامل القيم) اسم النزعة التوفيقية ، وقد اتسع هذا المصطلح عندما بدأ بعض مفكرى الإسلام الدعوة إلى الجمع بين التراث والعصر ، أو بين الأصالة والمعاصرة ، أو بين الدين والدولة .

والواقع أن مصدر الخطأ كله يرجع إلى الفكرة التى تخفيها حركة المجتمع الغربى وراء شطب أو تجاهل أو إنكار (قاعدة الدين) بوصفها عاملاً أساسياً ورئيسياً فى الحياة ومحاولة تجاوزه، وترجع خطورة هذا العامل إلى أنه هو الذى يقيم التوازن ويحقق المواءمة بين جميع القيم ، فإذا حجب عن المجتمع كان له أسوأ الأثر فى اضطراب مقاييس الأبعاد فيما بينها ، وعجزها عن إرساء القواعد الحقيقية، وهذا هو ما حدث بالفعل حين تحيز العلماء العقليون للعقل ، وتحيز علماء الإحساس للمحسوس ، وتحيز علماء النفس لنظرية النفس دون النظر إلى العناصر الأخرى التى يتشكل منها الإنسان؛ حيث يجمع الإنسان فى تركيبه بين العقل والمحسوس والنفس ، وبين الروح والعاطفة والوجدان .

ولقد كان أصحاب العقول دائماً محكومين بغرائزهم لا يقفون عند حدود

معينة ، ويعلون من شأن العقل حتى يقدسونه، فجاء الدين ليقرر أن العقل جهاز لا يستطيع الحكم على الأشياء إلا عن طريق ما يصل به من نوعية الثقافة أو الفكر، وأنه وحده غير قادر على تقديم الهداية إلا إذا ارتبط بالدين والوحى اللذين يعصماه من الزيغ والانحراف .

ولقد كان من نتائج التحيز للعقل أو للحس أن عجز العلماء عن تصور عالم ما وراء الحس ، فاتخذت كلمات غامضة لتصور ذلك كالطبيعة ، ولما عجز العلماء عن تصور النظرة الجامعة أو الثوابت، ظهرت كلمات أشد غموضاً، منها التطور والنسبية، ومن هنا اختلفت مناهج الفكر بين تصور يرفض الدين قطعيّاً وكل ما يتصل به من عالم الغيب أو تكامل القيم ، وبين تصور جامع يربط بين العقل والحواس والوجدان وعالم الغيب تستقيم له النظرة من خلال الإيمان بالخالق الذى يملك زمام الأمور كلها ، والذى أقام الإنسان فى مكانه من هذا النظام الواسع العريض ؛ ليؤدى رسالته في الاستخلاف فى الأرض والسعى والعمران . فلا شيء وجد صدفة، وليس هناك أمر يحدث اعتباطاً وفى ضوء هذه النظرة المادية تصدعت كل النظريات الفلسفية والاجتماعية التى ظن الغرب أنها قادرة على العطاء؛ لأنها لا تتفق مع وضع التكامل ولا تنسجم مع نظام الكون ، ومن هنا فسدت نظرية مالتوس التى قالت: إن تزايد حجم سكان الأرض سيحدث عجزاً فى الطعام ، ونظرية دارون التى قالت: إن الإنسان مرحلة من الحيوان، ونظرية فرويد التى قالت: إن الإنسان تحكمه الغزيزة وحدها ونظرية دوركايم التى قالت: إن الأسرة ليست من الفطرة، وأن الجريمة من الفطرة، وفى نظريات النفس والأخلاق والاجتماع قدم الفكر الغربى المادى مفاهيم مدحوضة؛ لأنها لا تعترف بالنفس الإنسانية الجامعة بين الروح والمادة ، وكان مصدر هذا النقص كله هو تجاهل أساس راسخ فى بناء هذه الحياة هو (الدين) فإذا انسلخ الفكر البشرى من الدين وصل إلى هذه الصورة من التخبط والاضطراب، وأحس الإنسان أنه يمر بمرحلة الغربة والاضطراب والأزمة والتمزق والغثيان وتفاهة الحياة؛ لأنها ليست ذات غاية ، وقد دعا الدين إلى تزكية النفس وتطهيرها من رعونتها وأهوائها ، ودعا إلى إقامة موازين الحياة بالحق وبناء الوازع الداخلى وتنميته؛ حتى يكون الإنسان قادراً على مقاومة الشر والفساد.

وقد جاءت كلمة (إسلام) من السلام، وليس من الاستسلام أو الطاعة العمياء ، حيث ينادى الإسلام بأن يعيش المسلم فى سلام مع الله ومع نفسه ومع المجتمع ، وإسلام الوجه لله يعنى تقدير المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والإيمان بالغيب والبعث والجزاء .

إن مفهوم المادية وسيطرتها على العقل الغربى يحول دون فهم الإسلام فى نظرته الجامعة المتكاملة بين الروح والمادة، وهى أول ما يفرضه الإسلام من أجل التوصل إلى نظرة جامعة « الإيمان بالغيب » .

ومن هنا نجد أن الغربيين يستندون إلى نظرية المصادفة فى تفسيرهم لظهور الحياة على الأرض فراراً من الاعتراف بالخالق الحكيم جل شأنه ، كما يبدو اضطرابهم فى فهم خلق الإنسان وهم فى ذلك يعتمدون على فروض، ولعل أبرز عوامل فساد مفهومهم أن قاعدته فى نظرية دارون تقوم على حلقة مفقودة لم تعرف حتى الآن، وهى نظرية ترمى إلى إعلاء شأن التطور وإنكار الثوابت ، وتزعم فى تطورها أن الأخلاق نسبية تتغير وتتبدل، بينما نور الإسلام يعنى ثبات الأخلاق وأنها جزء من العقيدة .

ثم هى تحاول القضاء على الفوارق بين المرأة والرجل، مع أن علماء البيولوجيا أثبتوا اختلاف تركيب أعضاء كل منهما؛ إقراراً بأن لكل منهما مهمة تختلف عن مهمة الآخر .

كل هذا الشطوح الذى شطح إليه الفكر الغربى جاء نتيجة تجاهله للقاعدة الراسخة التى لا تستطيع الإنسانية أن تعيش حياة صحيحة بدونها وهى قاعدة الدين الحق المنزل .

لقد أراد الغرب أن يتحرر من مسئوليته إزاء العقيدة الربانية بدعوى أنه أصبح فى غير حاجة إلى وصاية الدين؛ فانطلق يحطم ويدمر ويعلن صيحاته الضالة من أمثال قوله: (موت الإله) وغيرها فى محاولة للخروج من الالتزام الأخلاقى والمسئولية الفردية على طريق الاستعلاء العنصرى وامتلاك أسرار العلوم ، والقدرة على التحكم فى مصائر البشرية ، وهو فى ذلك قد غرر نفسه وغفل عن الحقيقة الإلهية الكبرى التى تقرر أن الله تبارك وتعالى (يمسك السموات والأرض أن

نزولا) ، وأنه صاحب الأمر كله ومالك الأمر كله ، وأن الحضارات التى خرجت عن منهج الله سوف يصيبها الدمار والهلاك .

وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ (الأنفال : ٣٦) .

ويقول ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ (الرعد : ٤١) .

* * *

(١٤)
تصورات غربية تحاول أن تفرض نفسها على الفكر الإسلامى

لكى يكون مفهوم الإسلام محرراً صادقاً بعيداً عن الانحراف والاختلاف، سواء بخلطه بين المذاهب المادية أو النظريات اللاهوتية أو مقولات الأديان الوضعية نقدم الملاحظات الآتية :

أولاً : القول بأن الدين علاقة بين المرء وربه، وأن العقيدة لا دخل لها فى شئون الفكر والمجتمع، وأن نظام المجتمع وأشكال الحكم تقوم على أساس من الفكر العقلانى : هذا القول باطل وفاسد ومضطرب ولا يقبله مسلم صحيح الإسلام .

وهو قول مرفوض فى إطار الإسلام وفى دائرة الفكر الإسلامى وهو مردود أيضاً بحكم الفطرة والعقل والمنطق والفهم العلمى الصحيح المبرء من الهوى والظن ومن وراثيات كراهية الدين (كما فى الغرب) ونظريات الشك والسخرية بعلم الغيب والوحى والنبوة، وهى فى الإسلام قيم أساسية.

والمعروف أن أشد أهداف التغريب والغزو الثقافى خطراً هو إسقاط البعد الربانى من الحياة والفكر وإسقاط البعد الأخلاقى من حركة المجتمع والحضارة .

ومن هنا فنحن فى حاجة إلى مخالفة تصور الفكر الغربى واللاهوت المستمد من تجربة معروفة ومعركة مشهورة قامت بين العلم والدين ، وارتبطت بالدولة الثيوقراطية مما أدى إلى تبنى الغرب فكرة الفصل بين الدين والسياسية (العلمانية) ومقولات دين البشرية والهيومنيزم، وكلها مقولات الحادية أدخلها عصر التنوير الذى قاده قادة الماسونية والفكر التلمودى .

ثانياً : أن نكون على حذر شديد من اعتماد مناهج العلوم الإنسانية الغربية وبخاصة التحليل النفسى اليهودى الذى جاء به (فرويد) أو التحليل السياسى الماركسى القائم على الصراع الطبقى ، أو التفسير المادى للتاريخ، وإذا كان هناك علم نفس يهودى وعلم نفس مسيحى وعلم نفس ماركسى فإن هناك أيضاً علم

نفس إسلامى .

ثالثاً : يختلف الإسلام عن الأديان التى سبقته بوصفه ديناً عالميًا خاتماً بأنه ليس مقصوراً على العلاقة بين الله تبارك وتعالى وبين الناس،بل يستكمل الشطر الآخر؛ فنظم العلاقة مع الناس جميعاً (على المستوى الداخلى والخارجى والدولى) وقد صيغ منهجه على هذه الغاية متكاملاً واسع الأطر قادراً على الالتقاء مع متغيرات المجتمعات والحضارات والعصور .

ومن ثم فهو قادر (دوماً) على استيعاب عوامل البيئات المختلفة (بما فيها عوامل الأجناس واللغات والعادات والتاريخ) ؛ لأنه يصهر الأمم المؤمنة به من جديد فى تشكيل عقدى ثقافى كامل يرتفع فوق اختلافات اللغات والأجناس وفوق عوامل البيئة والتاريخ القديم، ومن ثم فلا تستطيع عوامل الإقليم والبيئة أن تخلق نتوءاً يؤدى إلى الانفصال؛ وذلك لاتساع دائرة التشابه والالتقاء فى الأصول العامة مع السماح للتباين فى الفروع .

وذلك من منطلق أن العقيدة والثقافة هى المؤثر الأساسى فى صنع العقلية والوجدان ، فقد استطاع الإسلام أن يصهر فى بوتقة عقيدته وثقافته من دخلوا فيه فى عصر النبى من المشركين والوثنيين فتحولوا إليه تحولاً كاملاً ومن يقرأ تجربة الشاعرة الخنساء وكيف كانت فى الجاهلية تتحدث عن أخيها صخر وكيف صهرها الإسلام فى مفهوم الفداء فاستقبلت استشهاد أبنائها الأربعة بالثبات المدهش الذى يبين مدى عمق قدرة الإسلام على تحويل المؤمنين به من توجه فكرى إلى توجه آخر مخالف تماماً .

وبالجملة فإن اتساع دائرة المتشابهات فى ظل عقيدة الإسلام وثقافته وضيق دائرة الاختلاف المسموح به يدهش؛ لأن القرآن ومعجزته الخالدة هى التى كونت أسلوب العيش الإسلامى وأصول العقلية الإسلامية على هذا النحو .

رابعاً : خطر اعتماد مفاهيم الاستشراق والتغريب فى تفسير التراث والتاريخ تفسيراً مادياً أو ماركسياً أو تفسير مناهج الشورى والعدل وامور الخلافة والحكم الإسلامى فى ضوء مفاهيم الحكومة الثيوقراطية (التى لم يعرفها الإسلام أبداً) والكهنوت وإحلال التصورات العلمانية محل التصورات الإسلامية .

خامساً : محاولة فرض مفهوم غربى على تصور العلاقة بين الفكر والمادة، وفى الإسلام تكون العلاقة بينهما متبادلة، فلا يسبق أحدهما الآخر ، ويقوم الانسجام بين العقيدة والسلوك والفكر والعمل، وقد جاء الإسلام وتاريخ الأمة الإسلامية بمثابة حلقات متصلة يصب ماضيها فى حاضرها ويمهد لمستقبلها ، وحاضرها امتداد لماضيها، فهو تاريخ متصل الحلقات؛ حيث لم يفقد عنصرى الوحدة والاتصال يوماً واحداً .

سادساً : يقيم الإسلام لكل فكرة تصوراً جامعاً (مادياً وروحياً) ويقرر دراسة الظواهر من جانبيها المادى والمعنوى .

وليس من المحتم أن تأتى حركة الإنسان الفرد أو حركة المجتمع من صراع النقيضين (كما أكد هيجل وماركس) بل هى تجىء فى الأغلب بمثابة استجابة داخلية مقرونة بعمل خارجى .

كما أن حركة الوجود والكون والحياة فى المفهوم الإسلامى لا تقف عند قوانين السببية وحدها، وإنما هناك ولاء القوانين والسنن للإرادة الإلهية الموجهة والموجودة والقادرة على خرق هذه القوانين والسنن متى تشاء، فهى التى تنشئ المقومات لما ينشأ من بعض النتائج .

وعلى المصلحين العمل على مغالبة سنن الكون ونواميس الوجود ويذخر القرآن بفيض من الآيات التى تبين القوانين التى ترسم السبيل الأقوم للتقدم نحو عيش أوفر كرامة (النص من بحث الدكتور عماد الدين خليل مع التصرف) .

سابعاً : هناك محاولة لإحكام قبضة المؤامرة على المسلمين بإشاعة الشكوك حول قدرة الإسلام على حل مشاكلهم وإشاعة الشبهات حول المؤسسات الاقتصادية التى تقوم على مفهوم الإسلام وحرص الغرب على بقاء التخلف والاستدانة والتبعية والحرص على تمزيق الوحدة والحيلولة دون التقاء المسلمين تحت راية الإسلام وإثارة الخلاف بين العناصر والقوميات وعدم تمكين المسلمين من إقامة حضارتهم وبناء قوتهم الذاتية والحيلولة دون امتلاك قوة الردع القادرة ومحاولة فرض النموذج الغربى .

وهذا كله يهدف صهر المجتمع الإسلامى فى مجتمع الربا والعجل الذهبى وإعلاء فلسفة الاستهلاك التى تعمل على تدمير مخزون الثروة المذخورة فى أعماق الأرض دون عمل حساب للأجيال القادمة .

والإسلام له مفهومه الأصيل فى الثروة والحضارة والاقتصاد تختلف تماماً عن هذه الاندفاعة المسرفة .

(١٥)
تحفظات على مناهج الفلسفة والتاريخ

حول مناهج العلوم والدراسات يجرى حوار واسع عريض يحتاج إلى نظرة تأصيل كاشفة لوجوه الخلط والاضطراب التى يتضح منها أن الهوية الإسلامية مهومة مضطربة ، وربما غير موجودة أصلاً ، وفى مجال الفلسفة يبدو الطابع الغربى العلمانى مستعلياً واضح السيطرة ، كذلك فى مجال التاريخ لا نجد الوجهة الإسلامية واضحة .

أما كتب الفلسفة فإنها (فى المرحلة الثانوية) تشير اشارة واضحة إلى بعض المذاهب الفلسفية المادية، وهى فى غرضها لا تكشف عن أن لنا وجهة نظر فى هذا الركام الضخم الذى يدرس وكأنه حقائق علمية، وليست فرضاً لها ظروفها الخاصة بمجتمعات معينة تختلف عن مجتمعنا وبعصور سابقة، وهى فى مجموعها تمثل انحرافات شديدة عن عقيدتنا ، وقد صنعت هذه المناهج بواسطة قيادات استعمارية رسمت مخططاً محدداً لفرضه على العقل المسلم فى هذه الفترة من حياة الطالب (فى نفس الوقت الذى لم يحصل فيه على حصانة حقيقية من دينه وعقيدته تحميه من التيارات الوافدة أو تعطيه الإجابة الصحيحة) فكان التحدى مزدوجاً ، برامج فلسفية غربية يفصل فيها القول واسعاً وتقدم على أنها حقائق علمية وليست على أنها فروض قابلة للخطأ فى نفس الوقت الذى تقدم فيه مناهج التربية الإسلامية ضئيلة هامشية لا تحمى من خطر السقوط فى الإلحاد أو الزيغ؛ ولذلك كان تجميد الأزهر (بوجهته العقدية التربوية) وإطلاق الإرساليات وتجميد كل معاقل التربية الإسلامية فى الوطن الإسلامى عاملاً مهماً فى تحقيق المعادلة التقريبية بإضعاف منهج العقيدة واللغة العربية وتشويه التاريخ وتحرير مدرسين على مذهب دنيوى وتأخير خريجى الأزهر أو حجبهم عن هذا، فقد جاءت الفلسفة الغربية المقررة لترسم طريقة فتح أبواب العقول الإسلامية؛ لتقبل الماركسية والعلمانية والليبرالية ، وتتجاهل منهج الشريعة الإسلامية، ومن هنا جاء الانحراف نحو

الأقليات والقوميات وقصور الولاء للأمة الإسلامية أو للوحدة الإسلامية ولرسالة الإسلام الخالدة . فضلاً عن ضعف الحصانة الخلقية لعدم وجود الوازع الدينى والعقدى ولعدم معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب .

* * *

وأن المطالع لمقررات الفلسفة يجد أن هناك محاولة لوضع تصور فلسفى غربى يجىء فيه الفكر الإسلامى بوصفه رافداً أو تابعاً أو حلقة من سلسلة غربية طويلة، وهو ما يدعيه الغربيون من أن الفكر الإسلامى شطيرة فى الفكر الغربى، وهى دعوى باطلة تماماً بشهادة عشرات من المنصفين الغربين أنفسهم، أمثال داربر وجوستاف لوبون وهونكه وغيرهم، وأن مفهوم الفلسفة الإسلامية يختلف اختلافاً واضحاً عن التصور الغربى، وهو كما رسمه الشيخ مصطفى عبد الرازق يتمثل فى علم أصول الفقه، وأن الإمام الشافعى هو الذى استكشف النواة الأولى للنظر العقلى الإسلامى، فقرر أن القرآن الكريم قد ذكر (الحكمة) التى عرفها العرب وكانت شرفاً لأهلها، وقد كان هذا التطور منطلقاً لعزل الفكر الفلسفى اليونانى الذى روج له لطفى السيد وطه حسين ، والذى رفضه المسلمون قديماً ورفضه الغربيون فى العصر الحديث ، فلماذا العودة إليه، وقد اكتشف المسلمون عن طريق الإمام الغزالى فساد مفهوم الفلاسفة فى ثلاثة مواضع أساسية وهى :

(١) إنكار البعث .

(٢) القول بأزلية العالم .

(٣) الادعاء بأن الله تعالى جل شأنه وعلا لا يعلم الجزئيات .

وكانت الضربة القاضية للفلسفة اليونانية ما كشف عنه الإمام ابن تيمية من فساد منطق أرسطو والإبانة عن منطق القرآن .

ومع الأسف لا تزال هذه الفلسفات تدرس فى الجامعات وفى الأزهر

* * *

أما بالنسبة لمناهج التاريخ فقد ركز النفوذ الأجنبى تركيزاً شديداً على (التاريخ

الإسلامى) الذى أفسده إفساداً شديداً بأن أبرز عناصر الخلاف والاضطراب –وهى قليلة جدا فى تاريخ امتد أربعة عشر قرناً – وتجاهل تماماً جوانب القوة والسمو والبطولة ومر عليها مروراً عابراً ، ايماناً منه بان تشويه تاريخ الأمة هو عامل ضخم فى التأثير النفسى على شبابها حتى ينفروا من قيمهم وماضيهم، ومن هنا أثار الشبهات حول البطولات والمواقع وحول الشخصيات البارزة بهدف تصغيرها فى نظر المسلمين ، كما وجهت الشبهات إلى تاريخ النبى ﷺ وصحابته ووصفت الغزوات بأنها تطلع إلى الغنائم وجرى التشكيك حول انتصارات المسلمين وحول الفترة القصيرة التى تمكنوا خلالها من إقامة دولتهم الكبرى من حدود الصين إلى حدود فرنسا .

ولا شك فى أن تاريخ الإسلام حافل بالمواقف السمحة الكريمة وبالاستشهاد فى سبيل الله ، وببيع النفوس رخيصة فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام .

ولقد كانت قدرة الإسلام على السيطرة على الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية موضع تشكيك كبير من القوى الغربية التى حاولت إفساد التاريخ .

وجرى على هذا المنهج واضعوا المناهج فى مدارس الإرساليات، وأخذوه من الذين أشرفوا على مناهج المدارس الوطنية على النحو المفرغ من الإيمان والحماسة والبطولة فى محاولة لإطفاء جذوته الحقيقية ، وتقديمه مهلهلاً مضطرباً، وإثارة الثغرات والبحث عن النواقص؛ ولذلك فقد كان من الضرورى أن تعاد كتابة تاريخ الإسلام على النحو الصحيح؛ ليكون ضوءاً كاشفاً لشباب المسلمين فى هذه المرحلة من حياتهم وعوناً لهم على استعادة ذاتيتهم الخاصة .

ولقد جرت المحاولات لإخضاع تاريخ الإسلام لمناهج وافدة فى مقدمتها التفسير المادى للتاريخ ، وهو منهج ينكر النبوة والغيب ويعتمد على المحسوس ؛ ولذلك فهو لا يستطيع أن يحيط بالجوانب الروحية والنفسية والمعنوية ، وفى مقدمتها روح الجهاد والاستشهاد والتضحية فى حماية البيئة واستعادة الارض ومقاومة الغاصب ورد عدوان المعتدى .

ونحن فى حاجة إلى دراسة محاولات الغزو التى تعرض لها العالم الإسلامى وحركات القرامطة والإسماعيلية والباطنية والحشاشين والتتار والحروب الصليبية

على أفق المشرق وحروب الفرنجة على أفق المغرب الإسلامى ودراسة العوامل والخلفيات التى كانت وراء تآمر القوى الصلبيية الغربية مع الوثنيين والتتار ؛ وذلك لتكون عاملاً فى التعرف على المخططات الجديدة التى بدأ بها الاستعمار الغربى والصهيونية هذه الجولة المعاصرة وبخاصة الحملة الاستعمارية والحملة الصهيونية والأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية، ولقد جرت محاولات كثيرة لإعادة إبراز الحملات المضادة على الإسلام (كالزنج والقرامطة والمزدكية وغيرها من الفرق الضالة) على أنها دعوات عدل وحرية، ولابد من كشف زيف هذه المخططات ، كذلك فنحن فى حاجة إلى تزييف دعاوى الحتمية التاريخية والمادية التاريخية ، ومحاولات الماركسية إفساد حقائق التاريخ الإسلامى أو دعاوى إعلاء العنصريات الوافدة والطائفيات والأقليات .

ولابد من الإشارة إلى محاولات تشويه شخصيات عظيمة كريمة : مثل شخصية صلاح الدين الأيوبى والرشيد وطارق بن زياد ، وابن خلدون أو إضفاء طابع خيالى زائف على بعض الشخصيات الإسلامية على النحو الذى كتب به جورجى زيدان روايات تاريخ الإسلام وأساء إلى كثير من أبطال الإسلام وأعلامه فى محاولة ماكرة لخلق مفهوم باطل فى نفوس القراء بأن هذه الفتوحات أو المعارك كانت لأسباب غرامية نسائية أو عائلية بحتة .

* * *

(١٨)
دارون ونظرية التطور

كانت نظرية التطور التى جاء بها دارون هى منطلق الفكر المادى فى العصر الحديث ومجددة أثواب الفلسفات اليونانية المستمدة من علم الأصنام والتى تختلط فيها المادية بالوثنية بالإباحية فى تصور مضطرب جامع بين المتناقضات، النظرية نفسها مضطربة وغامضة ، وقد اعترف صاحبها بأنها تفتقد حلقة أساسية لتكون علمية ، ومع ذلك ومع اختلافها مع كل مفاهيم العقل والفطرة وحركة التاريخ فإن القوى العاملة على تدمير مقومات العقيدة والكيان الإنسانى أخذت الخيط ومضت به بعيداً ، ونقلته من مفهوم البيولوجيا إلى علم الاجتماع؛ حيث تركزت الدعوة إلى (التطور) المطلق وصولاً إلى فصل العلم تماماً عن العقيدة وإنكار الدين تماماً وإقامة نظر فكرى واجتماعى متحرر من ضوابط الدين وقيمه ومنطلقه، وهذا أخطر تحول فى تاريخ الحضارة الغربية فى خروجها عن منهج الله تبارك وتعالى والاندفاع وراء هؤلاء الساسة والقادة فى الاستعلاء بالعنصر والانفصال تماماً عن المجرى الحقيقى لحركة الحياة وإحلال كلمة (الطبيعة) والجبرية والحتمية فى دعوى عريضة بان قوانين الطبيعة تسير بقوة دفع ميكانيكية تنكر قدرة الله تبارك وتعالى على طرق القوانين وعلى تصريف الأمور فى غير الوجهة التى تقرها القوانين.

وقد زعم دارون أن المادة أو الطبيعة الجامدة هى التى خلقت الكائنات الحية من نبات وإنسان، وأن الحياة بدأت من خلية واحدة وأخذت تتكاثر وتنقسم ، وفى كل طور من أطوار انقسامها كانت تتصارع فيها العناصر وفى كل صراع كانت الطبيعة تتدخل فتختار الأصلح من العناصر، ثم تقضى على غير الأصلح بالفناء .

ولم يكن هذا كله فى حقيقته إلا فرضية خاطئة لا تجد من الدليل المادى أو من الفطرة ما يؤيدها ، ثم جاء سبنسر فنقل التطور إلى مجال المجتمع ، وهكذا أحل دارون وسبنسر الطبيعة أو المادة محل الألوهية عند المؤمنين وقال : إن الطبيعة خالقة وليس لقدرتها فى الخلق حد ولا نهاية، ومن ثم أرسيت فكرة خطيرة هى أن الدين

من الأوهام وليس له حقيقة على الإطلاق ، وتلك هى قاعدة الإلحاد العالمى الذى توسع نطاقه من بعد ذلك إلى أبعد مدى .

ومن هنا حدث الانقسام الخطير بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى، ومازال هذا الانقسام قائماً ومتصلاً .

ثم جاءت التبعية للمناهج الغربية وفرض مذهب دارون على المدرسة العربية والإسلامية والمعاهد والجامعات، فأحدث ذلك ازدواجية خطيرة وحيرة شديدة فى صدور الشباب المسلم الذى تلقى عن طريق القرآن والإسلام مفهوماً للخلق يختلف عن نظرية دارون .

لقد وجدت القوى التلمودية والماسونية فى مخططها الذى رسمته بروتوكولات صهيونية من نظرية دارون منطلقاً لدعوى (حيوانية الإنسان وإنزاله من مكانته الكريمة التى قررها له الدين الحق) على النحو الذى سارت عليه الفلسفة المادية من بعد وفق مفهوم مختل حَلّ محل نظريات الأدب والنفس والأخلاق والاجتماع، ومن هنا انطلقت النظريات التى تطبق على الإنسان مما تقرر فى دراسة الحيوان وتشريح جسمه ، دون تقدير للفارق العميق بين التميز الخاص الذى أعطى للإنسان من عقل ووجدان وقدرة ترفعه فوق مجال الحيوان وتجعله قادراً على أن يكون مستخلفاً فى الأرض، وقد ذللت له كل مخلوقات الله تبارك وتعالى .

ومن هنا فإننا فى حاجة إلى إعادة النظر فى مناهج دراسة العلوم الطبيعية بحيث تقدم الرؤية الإسلامية إلى شبابنا وأبنائنا بحيث يفهم كل منهم مبدأ معيناً يدركه إدراكاً كاملاً دون تردد أو تحفظ، وهذا المبدأ هو أن الله (تبارك وتعالى) هو الذى خلق ظواهر الكون كافة ﴿ فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾. وأن تتحرر المقررات من هذا التصور الجاف الذى لا يعكس أية قيمة إسلامية ، وأن يبدأ المقرر بعبارة (الله خلق الانسان)، « الله خلق الحيوان »، وأن يفصل بين الإنسان والحيوان حتى يدرك المتعلم أن الإنسان يختلف اختلافاً كاملاً عن الحيوان فيتوجه عقله وتفكيره نحو المفهوم الإسلامى لخلق البشر كما يتعلم فى الوقت ذاته أن الله (تبارك وتعالى) هو الخالق . .

ويجب استبعاد هذه الصورة التى تضع الإنسان ضمن فصيلة الحيوانات مما يناقض المفهوم الإسلامى لخلق الإنسان .

كما يجب أن توضع عبارات (خلق الله المادة وصنع منها الإنسان والأشياء) ، (الحيوانات تحتاج إلى الطعام والله يمدها بالطعام) ، و(يحتاج الإنسان إلى الماء والهواء والله خلقها للإنسان) ، و(تحتاج الحيوانات إلى الماء والهواء وقد وفر الله لها هذه الأشياء) .

وأن تكون القاعدة فى دراسة الطبيعة أن تنمى لدى الطلاب القدرة على التوصل إلى الاستنتاج ومعرفة أن كل الأشياء وكل الظواهر إن هى إلا آيات الله فى الكون، فالله (تبارك وتعالى) يريد أن تدرس الأشياء والظواهر من هذا المنطلق :

وعلينا أن نسترشد بأسلوب القرآن فى قصة ابراهيم عليه السلام فى رؤيته للكوكب والقمر والشمس، فقد انتهى عليه السلام من ملاحظته أن الله تبارك وتعالى هو مسبب الوجود النهائى لكل الأشياء .

يقول الدكتور محمد عبد السميع الذى أعد هذا المنهج لمدارس الباكستان: وقد يخيل لبعض الناس أن ملاحظة الأشياء والظواهر باعتبارها آيات الله (تبارك وتعالى) من شأنه أن يؤدى إلى تأخير مسيرة العلم ودراسته، ولكن هذا افتراض ليس له ما يبرره، فالله رحيم وكريم لا يرضى لعباده المشقة، يقول فى كتابه الكريم: **﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾** (المائدة : ٦) .

ويفهم من هذه الآية أن الله تبارك وتعالى أراد بالقرآن والسنة أن يستهدفا التقدم المادى لبنى الإنسان وأن الله تبارك وتعالى أوصى بأسلوب الملاحظة (الذى قام به إبراهيم عليه السلام) لنتعلم من خلاله كيف ندرس التقدم العلمى ويشهد التاريخ كيف كانت إسهامات المسلمين فى انبثاق العلوم الطبيعية وتطورها .

واشار الباحث إلى أنه فى دراسة الشمس والقمر يجب أن تحل محله الآية الكريمة **﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾** ويجب أن يبدأ الفصل تحت عنوان: انظر إلى قدرة الله على الخلق، ثم يقول : من نعم الله أن جعل الشمس تمدنا بالطاقة اللازمة للحياة على الأرض، إن الله حكيم رحيم ، وإن من شأن هذا التعديل أن يغير موقف الطلاب إزاء هذه الحقائق العلمية؛ حتى لا يكون

تفكير الطلاب من منطلق علمانى .

وبالنسبة لموضوع (الإنسان والطاقة والمادة) يجب أن يبدأ الفصل بالآية الكريمة ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ فهذه الآية تقضى على مفهوم عباده المخلوق ، وعلى الطالب أن يفهم أن الطاقة وسيلة مادية لإحداث التغير وأن الله سبحانه هو وحده الذى منح هذه الطاقة والقدرة .

(لقد وهب الله الإنسان القدرات الجسدية والعقلية ليكتشف الطاقة ويستغلها لما فيه صالحه ونفعه) .

أما بالنسبة لمادة الإنسان فيجب أن يفتتح بالآية الكريمة :

﴿ **واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ . إن أبلغ تكريم للانسان كونه مستخلفاً فى الأرض، وأن القوة والسلطة التى منحها الله تبارك وتعالى للإنسان يجب أن تستخدم وفقاً لتوجيهات الله ، كما أن إساءة استخدامها يعد تمرداً على سلطة الخالق » .

وهكذا نواجه هذا المفهوم المادى الذى فرضته المناهج الأجنبية والمعارضة لمفهومنا الإسلامى الأصيل .

* * *

(١٧)
تمييز حقل العلوم عن حقل الفلسفات

حاول أصحاب الفكر الغربى أن يلبسوا الحق بالباطل على النحو الذى عرف عن أهل الكتاب وسجله عليهم القرآن الكريم فى عديد من القضايا والمصطلحات، ويظهر ذلك التلبيس واضحاً مقصوداً مستهدفاً تزييف الخصوصية التى تميز بها الفكر الإسلامى الذى يستمد مفهومه من القرآن الكريم ومن أخطر هذه المحاولات تصوير مفاهيم الفلسفات بأنها علوم فى دائرة العلم مراوغة فى إعطاء الفلسفة صفة التجريب، وهى خالية منه، وإسباغ صورة الحقيقة العلمية على تصورات الفلاسفة المادية وفروضهم وأهوائهم فى الأغلب .

وقد كانت فكرة التطور من هذه القضايا التى اضطرب فيها منهج الفلاسفة اضطراباً بيناً ، فقد جاءت من خلال تصور دارون البيولوجى، ثم تحولت إلى منهج اجتماعى على يد (سبنسر)، ثم تحولت عند هيجل تطوراً مطلقاً دون حدود، وهذا يؤدى إلى إسقاط دعائم الثوابت جميعاً، ويسقط القداسة عن كل الموروثات والمأثورات .

ولقد كان للإسلام موقفه من قضية التطور والتعبير سابقة للفلسفات الغربية وللنظرية المادية التى كانت تقول بالثبات الدائم فى عصر أرسطو ، ثم تحولت إلى التغير الكامل فى عصر هيجل ، فالإسلام يقر منهج الثوابت أساساً، ثم تجرى حركة التطور والتغيير فى دائرتها .

فالإسلام يقر التطور المنضبط فى دائرة الثبات، ويتوسط المنهج الإسلامى بين الثوابت وبين المتغيرات، ويجعل للتطور حدوداً واضحة، وذلك فى نطاق الإيمان بالله تبارك وتعالى من حيث إن الدين وضع إلهى ، أقر مختلف الحدود والضوابط، وأعطى منطلقاً فى الفروع والجزئيات، وأتاح لكل العصور والبيئات الفرصة للحركة.

* * *

وفى قضية الصراع الذى يحكم الفكر الغربى ويكبل الحضارة الغربية يقف الإسلام موقفه الوسط السمح فيقرر وجود عناصر الالتقاء بين القيم والتكامل، وُيحلّ الجمع والمواءمة والتوازن ؛ حيث تقوم حركة المجتمعات على الأمن والسلام، ويندفع فى ظله تيار العمل رفيقًا لا صدع فيه ولا اضطراب .

وقد كان لانشطارية الحضارة الغربية والفكر الغربى أثرها الواضح فى مفهوم الصراع الذى ساد الغرب والذى استمده من الدارونية التى جعلت الصراع سببًا أوحد للتطور والتقدم ، كما جعلته عامًا فى كل الظواهر الخاصة بعوالم النبات والحيوان والإنسان والجماد .

ثم جاءت الماركسية فجعلت التناقض والصراع هو المنطلق الوحيد لحركة المجتمعات وماعداه فهو نسبى .

ولقد تكشف فعلاً لكثير من علماء الغرب أن عوامل الالتقاء أكبر من عوامل الصراع ، وعوامل التكامل والتجاذب أوسع من عوامل التناقض ، وغير هذا ، وهذا ما يكشف عنه مفهوم الدفع الإسلامى فى قوله تعالى :

﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾ .

أى أنه لولا أن يدفع الله شر الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الأرض ؛ لأن الشر إن غلب كان الخراب والدمار ، وهو معنى مختلف تمامًا عن مفهوم الصراع (الغربى) الذى اتسم بالتعميم والأخلاق ، واتجه إلى تبرير الغزو والسيطرة والإبادة الجماعية للشعوب غير الأوربية .

ولقد قامت فكرة الصراع بين الطبقات كقاعدة للأيدلوجية الماركسية ، لا على أساس أنها واقع حقيقى ، بل على أنها خطة ترمى إلى هدم المجتمعات وتخريبها .

* * *

ومن أشد قضايا تلبيس الفكر الغربى فكرة (الحتمية) التى تقول : إن أفعال الإنسان وفقًا للقوانين السائدة لابد أن تصل إلى نتيجة محددة .

وهذه محاولة فى التحكم فى طلاقة القدرة الإلهية التى وضعت القوانين والسنن السائدة ، وهى وحدها القادرة على خرقها تعطيلها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن للإنسان مسئوليته الفردية وحرية إرادته فى أن يختار وأن يفعل ما تمليه عليه ارادته الخاصة بحرية ، وقد حدد الإسلام العلاقة والتفاعل بين إرادة الله تبارك وتعالى وبين إرادة الانسان واختياره ، حيث يُسأل الإنسان عن عمله ويجزى على ما قدم .

ومن جراء اضطراب مفهوم الجبرية والحتمية فى الفكر الغربى دمرت المسئولية الفردية والجزاء الأخروى ، وقدمت مسئولية المجتمع على مسئولية الفرد ، وفى ضوء هذه المفاهيم وقع الاضطراب الشديد ، وظهرت ثلاث طوائف فى الغرب : إحداها طائفة العلمانيين الذين يدعون إلى إبعاد الأديان عن الشئون العامة . والعقلانيين الذين لا يؤمنون إلا بمبدأ العقل الشامل والملاحدة الذين يرفضون الأديان فى مجموعها .

ولقد كان علينا نحن المسلمين أن نكون على وعى تام بمفهوم الدين السماوى المنزل (**تؤمن به وتؤمن بكل ما يتصل به من غيب ووحى ونبوة وكتاب وبعث وجزاء أخروى**) وأن نعرف أن العقل وحده لا يستطيع تقديم الإجابات الصحيحة ، ولكن المسلم يجمع بين عاملين (بالعقل يميز يحال بالوجدان يهتدى) وبهذا التكامل بين العقل والوجدان يحال دون السقوط فى هوة التلبيس الخطير الذى جاء نتيجة إنكار عالم الغيب والوجدان وتكاملهما مع المحسوس والعقل .

وإن علينا أن نفهم القانون الأساسى للحركة والتطور ، وهو قانون مترابط بين عنصر الثبات وعنصر الحركة ، بين القيم الموروثة والقيم المكتسبة ، بين الثبات والتغير .

وعلينا أن نحقق المواءمة بين روح الأمة وروح العصر دون إذابة الشخصية الإسلامية المتميزة أو تضييعها وإيجاد صيغة التغير الملائمة لشخصنا دون أن نخرج عن الثوابت فى العقيدة والاخلاق .

ولنعلم أنه من المستحيل التوفيق بين قيم الإسلام وقيم الفكر الغربى ، وان محاولة ذلك هى محاولة باطلة وفاشلة ومستحيلة ؛ لأن الإسلام يستحيل عليه التركيب والخلط ، فهو منهج ربانى محكم له طابعه المتميز .

إن العلوم تقوم على التجريب ، أما الفلسفات فهى فروض عقلية قد تصح وقد تخطئ ، فإذا حاول الفلاسفة الماديون الادعاء بأن فلسفتهم هى علم ، فإنهم لا يصدقون فى دعواهم ؛ لأن قضية الفلسفة تتصل بمفاهيم إنسانية لا تخضع لما تخضع له العلوم المادية ، فهى مرتبطة بنزعات ومشاعر وأحاسيس تختلف تماماً فى الحكم عليها عن المادة وعن الحيوان .

* * *

إن أبرز ما يتميز به الفكر الإسلامى هو الجمع بين ـ الأصالة والمعاصرة ، وبين الثبات والتطور ، وذلك فى مواجهة الخطرين اللذين يهددان مجتمع الإسلام وهو لا يقبل مفهوم الغرب للعلم والفلسفة ، أو لا يقبل بمفاهيم التطور المطلق، أو الثبات المطلق .

فالإسلام يدعونا إلى إقرار مفهوم الثوابت ومفهوم الحركة ، ولقد مرت الأمة الاسلامية بخطر الجمود فى عصور التأخر حين أوقفت الاجتهاد فى الفقه والإبداع فى العلم والأصالة فى الأدب والابتكار فى الصناعة (على حد تعبير الدكتور يوسف القرضاوى) وكان ذلك أخطر ما أصابها «تجميد» ما من شأنه التغيير والتطور والحركة .

ونحن الآن نواجه محاولة أخرى نحذر منها هو أن نخضع التطور والتغيير لما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار وان دعاوى بعض الناس فى إخضاع الإسلام للحياة اليومية مرفوض تماماً ، ولكن الصحيح هو ضرورة خضوع الحياة العصرية لثوابت الإسلام .

١٨
فى ضوء التعامل مع التراث والتاريخ

فى دراسة التاريخ والتراث يجب أن نضع فى اعتبارنا مجموعة من الحقائق ؛ وذلك حتى لا تخدعنا محاولات التغريب ولا نضل الطريق الذى رسمه لنا الإسلام فى هذا المجال .

أولاً : ارتفاع القرآن الكريم والسنة المشرفة على التراث ، فهى من عند الله تبارك وتعالى ، والتراث بعد ذلك هو تفسير وتوضيح ومجهود بشرى يضىء الطريق أمام الأصول .

ثانياً : لا أحد يؤمن بإعادة التاريخ أو العودة إلى التراث وإنما تتركز المطالبة بالعودة إلى المنهج الإسلامى ، والمنهج الإسلامى عالمى ، إنسانى واسع الآفاق قادر على الانفتاح على كل المعطيات والمتغيرات .

ثالثاً : التراث سلاح فى المعركة التى نخوضها فى مواجهة التحديات ، وفى التراث الإيجابيات والسلبيات؛ ولذلك فنحن لا نعامل التراث أو الدعوة إلى التمسك به باستخفاف .

رابعاً : إن أصحاب الاتجاه الإسلامى لا يمكن أن يطلق عليهم اسم (تراثيون) أو (سلفيون) لأمر واحد أنهم يستضيئون بالتراث ولا يقلدونه .

* * *

ونحن نعرف كيف وجه الاستشراق التراث الإسلامى ، وكيف خطط لاحتوائه على أيدى المستشرقين المتعصبين لتحقيق الهدف الذى يرمى إليه .

وقد تمثلت هذه الخطوات على النحو التالى :

١ ـ حركة إحياء الفكر المعتزلى والباطنى والجبرى الصوفى .

٢ ـ إعادة كتابة التاريخ الإسلامى بوجهة خاطئة ، مادية او ماركسية وبأقلام مسمومة .

٣ ـ تفسير التاريخ الإسلامى تفسيراً مادياً وإطفاء نوره .
٤ ـ حجب التراث الإسلامى الأصيل فى أوربا دون تمكين علماء المسلمين منه .
٥ ـ فرض التفسيرات الاستشراقية للفكر الإسلامى على طلاب البعوث والجامعات.
٦ ـ فرض مناهج دراسية تعليمية فى مدارس الإرساليات ، وهى التى انتقلت إلى وزارة التعليم والمعارف (دنلوب وشركاه) .
٧ ـ مهاجمة الشخصيات البارزة : الغزالى وابن تيمية وابن خلدون والمتنبى .
٨ ـ جمع شذرات الفرق وسموم القومية وصياغتها من جديد .
٩ ـ إعادة إحياء القرامطة والزنج وغيرها من الدعوات الباطلة .
١٠ ـ إدخال عنصر الأساطير إلى السيرة النبوية .

* * *

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد طرحت مفاهيم خاطئة مسمومة ، وجرى العمل على ترديدها حتى تصل إلى ما وراء الوعى ، وتصبح من المسلمات، وكان علينا دائما أن نكشف عنها ونرد عليها .

أولاً : ليس التراث العربى ترديداً للفكر اليونانى القديم كما يدعون ، وليس صحيحاً أن المسلمين أخذوا فلسفتهم من النظرية اليونانية (أرسطو وغيره) ولكن الفلسفة الإسلامية وضع قواعدها الإمام الشافعى برسالته المشهورة (وذلك حسبما وضحه الشيخ مصطفى عبد الرازق) وتلاميذه .

ثانياً : لم تصح دعواهم بان الحضارة الإسلامية كانت جسراً أو معبراً عبرت عليه الحضارة اليونانية إلى عصر النهضة .

ثالثاً : لا نقر دعواهم بأن الذين قاموا بالأثر الفعال فى الفكر الإسلامى مفكرون من الفرس أو اليونان أو الفينيقيين ممن دخلوا إلى دين الإسلام ؛ ذلك لأن كل من أسلم فقد صبغ بصبغة الإسلام ، ولم يعد يصدر عن عنصره أو جنسه ، وإنما عن المصدر القرآنى للفكر الإسلامى الذى اعتنقه .

رابعاً : لا نقر مقولة أن التراث الإسلامى عبء ، يجب أن نتخلص منه حتى

يمكن اللحاق بركب المدنية الحديثة ؛ ذلك لأننا لن نستطيع مواصلة العطاء الحضارى الإسلامى إلا إذا ارتبطنا بأصولنا التراثية التى وقف عندها علماء المسلمين.

* * *

ومن هنا فإن علينا أن نكشف دائماً عن التبعية للفكر للغربى فى التراث الإسلامى ، وهى مركزة فى كل الكتابات التى احتضنت الفلسفات اليونانية أو المجوسية الفارسية أو غيرها مما يتصل بالغنوص أو الأفلاطونية أو الزفانا أو التناسخ أو مفاهيم وحدة الوجود أو الحلول أو الفكر الباطنى والوثنى القديم .

وقد تأثر كثير من كتاب العصور الماضية بالفكر اليونانى أمثال تهذيب الاخلاق لابن مسكويه ورسائل إخوان الصفا ومقدمة كتاب كليلة ودمنة التى كتبها ابن المقفع ، وبغيرها من الكتابات التى لا تمثل المفهوم الإسلامى الصحيح وتعتمد على مفهوم الأخلاق اليونانية مما نقل عن مفهوم أفلاطون فى الجمهورية و أرسطو فى كتاب الأخلاق ، وكذلك كل ما يتصل بنظرية العقول العشرة ، وكل ما أخذ من الفكر اليونانى كالنظريات الكلامية والاعتزال والتصوف الفلسفى ، ويجب أن ينظر إلى ذلك كله فى ضوء مفهوم أهل السنة والجماعة ، ونحن دائماً نضع أمام أنظارنا أن القرآن الكريم والسنة النبوية لا يدخلان ضمن مقولة التراث الذى هو من عمل العلماء ، والذى هو تفسير للقرآن والسنة على اختلاف العصور والأزمان .

* * *

إن النظرة المثلى للتاريخ والتراث هى التى رسمها القرآن الكريم لها،فقد علق حقائق التاريخ الكبرى ممثلة فى رسالات الانبياء واستجابة الناس لها بالقبول أو الرفض على النحو الذى جاءت به سنة الله تبارك وتعالى التى لا تتخلف ، وهو إهلاك القرى التى تكفر بنعمة الله وتخرج عن السنن التى رسمها لها .

أما بالنسبة للتراث القديم فقد عرض له القرآن وكشف جوانب الزيف والاضافة والحذف والباطل الذى ادخله الفكر البشرى على القيم الربانية التى جاءت بها رسالات السماء ، وقدم الدليل والبرهان على فساد فكر طفولة البشرية التى وضعته أهواء الفلاسفة والكهان لإحلال الباطل وإبطال الحق .

ولقد كان مفهوم الإسلام قائماً على التكامل بين التراث والمعاصرة ، وأن المعاصرة نفسها قد نشأت من قلب التراث ، فليس هناك فجوة بينهما ، ولقد حرص المسلمون فى مختلف عصورهم على استيعاب ثقافات الأمم بشرطها ، وقبول ما يتفق مع الثوابت الإسلامية الأصيلة ولا يتعارض معها . وإذا كان الفكر الغربى قد أحيا تراث الوثنية اليونانية بما فيه من ضلال وفساد وإباحة ، وجعله أساساً لحضارته وفكرة العصرى مع الفصل الذى وقع بينهما خلال ألف سنة ، فإن الصلة بين التراث الإسلامى والعصر ـ الذى لم ينفصل أبداً ـ أشد أصالة وقيمة ، فقد قام التراث الإسلامى الأصيل (الذى حرره علماء المسلمين بعد أن كشفوا زيف فلسفات الأمم الوثنية ظاهرة على قيم الإسلام الأساسية : التوازن ، والوسطية ، والتكامل بين الجوانب المختلفة) .

ويعّد قيام الوحى هو الأساس لصدق النقل وسلامة العقل،فالعقل ، جهاز يهتدى بنور الوحى ، ولا خلاف فى الإسلام بين العقل والنقل ، وقانون التفكير والتطور يقوم على أساس الانطلاق من خارج ثوابت القيم أو القيم الثوابت .

بل إن الإسلام لم يعرف الصراع بين المسلم والقدر ، وهو المنطلق للدراما والمسرح والفنون ، ونحن نؤمن بالمعاصرة فى إطار الأصالة ، ولا نجعل التراث عبئاً ، بل نجعله ضوءاً يهدى إلى التقدم والمعاصرة دون أن يخرج المسلم عن ضوابط القيم والحدود التى رسمها الدين الحق .

* * *

١٩

يجب ان نخضع لمفهوم الإسلام والعلوم الطبيعية والتجريبية

أصبح من المقرر أن هناك خلافاً جذرياً وعميقاً ، بيننا وبين العلوم الإنسانية والاجتماعية التى يقدمها الفكر الغربى ، وقد تأكد ذلك فى عديد من المؤتمرات والأبحاث التى عقدت خلال السنوات الأخيرة ، ولكن هناك منعطفاً خطيراً ؛ حيث ترى البعض يقول : إنه لا خلاف بيننا نحن المسلمين وبين العلوم الطبيعية والتجريبية من حيث إنها تقوم على مقررات معملية محسوبة لا دخل للعقيدة فيها.

وهنا يجب أن تكون لنا وقفة واضحة من جانبين : فأما الجانب الأهم فهو وجهة العلم نفسه ، وهذه فى الإسلام لها مفهوم مختلف عن مفهوم الفكر الغربى، أما الناحية الأخرى فإنها تتصل بالأسس التى تقوم عليها هذه العلوم ، وهى انفصالها التام عن مفهوم الخلق الإسلامى وتجاهل الصانع الخالق أساساً ؛ حيث يجرى البحث على طريق غير مكترث بهذه الحقيقة الكبرى التى هى أساس ومدخل البحث العلمى كله .

يقول الأستاذ مسلم سجاد فى دراسته المستفيضة عن تدريس علم الحيوان إن المؤلفين المسلمين يكتبون كتبهم مقتبسين من كتب الغرب ثم ينقلوه من وجهة نظرهم دون أن يضعوا فى تقديرهم أن لنا نحن المسلمين وجهة نظر محددة ومميزة ازاء خلق الإنسان والكون ، وهى آراء تعتمد على المعرفة الحقيقية والعلم الذى ورد فى القرآن الكريم ، وعلى الأقل فإن علينا أن نتجنب تلك الرؤية التى تتعارض مع المفهوم الإسلامى عمداً أو بغير عمد ، وأن نكف عن نقل هذه الآراء إلى طلابنا ، فضلا عن أنه على مدرسى العلوم أن يتخذوا من العلم وسيلة لتقوية إيمان الطلاب، بأن ينقلوا إليهم النظرة الإسلامية إزاء الإنسان والكون .

وليس المطلوب إدخال كل جديد ، ولكن أهم منه هو مسئولياتهم باعتبارهم مسلمين .

إن أخطر ما فى مناهج العلوم الطبيعية والكيمائية وعلم الحيوان وغيره هو غياب

الرؤية الإسلامية (أو الدينية بصفة عامة) التى تتجاهل نسبة كل معطيات العلم إلى الله تبارك ونجعلها من الامور القائمة بذاتها ، وما كان لها أن تكون كذلك .

ومن ذلك ما نجده « القول بأن حقائق العلم تقول : إن الاشياء تنكمش بالبرودة ولكن الماء على العكس من ذلك يتمدد بالبرودة عندما يصل إلى درجة التجميد ويصبح أخف وزناً كالثلج ، وهذا هو السبب فى أن الثلج يطفو على الماء.

هذا التصور بهذا التعبير ينكر الحقيقة التى هى فوق كل الحقائق وقبل كل الحقائق وهى قدرة الله تبارك وتعالى ، ومن ثم فإن أسلمة العلوم تقتضى أن يقال : إن قدرة الله تعالى الذى رأى بحكمته ورحمته ان يهب الماء هذه الخاصية ، وذلك للإبقاء على حياة الكائنات الحية التى تعيش فى البحار والبحيرات والأنهار ، فلو لم يقدر الله هذا لتكثف الماء وتجمدت مياه البحار والبحيرات والأنهار ، ولما استطاعت الكائنات الحية أن تعيش فيها ، ومن هنا فنحن فى حاجة إلى إقرار هذه الحقيقة التى غفل عنها الكثيرون وراوغ فى تجاهلها الكثيرون أيضا ، وهى محاولة القول بأن العلم ظاهرة عالمية لاصلة لها بالمعتقدات الدينية ، وهو ما نادى به العلامة المودودى منذ ربع قرن حين دعا إلى ان كل جماعة من الجماعات وكل حضارة من الحضارات يجب أن تضع العلوم فى إطار أسلوبها ومفاهيمها ؛ ولقد كان للعلم مفهومه منذ ظهور المنهج التجريبى الإسلامى ، وإذا كان قد غاب هذا المفهوم خلال هذه المرحلة التى فرضت حضارة الغرب فلسفتها المادية عليه فانكرت صلته بالله تبارك وتعالى وتجاهلت التصور الإسلامى فإن علينا اليوم واجباً حتمياً وحاسماً هو ان نرد للعلم الإسلامى مفاهيمه ومصادرة الربانية الأخلاقية .

كذلك فإننا نجد ما يسمى بالحقيقة العلمية التى تقرر أن العقل هو أداة التفكير لدى الإنسان ، وأن الاشتعال إحدى خصائص النار .

ولكن التصور الإسلامى يرى أن الله تبارك وتعالى هو الذى أمد العقل البشرى بخاصية التفكير ، وأن الله جل شأنه هو الذى أمد النار بخاصية الاشتعال ، وأن من الضرورى فى الكتابات الإسلامية أن يكون هذا المعنى واضحاً ؛ لأنه يكون عميق الأثر فى قلوب الشباب المسلم .

* * *

إن المدخل الصحيح للعلوم الطبيعية والرياضية والتجريبية يجب أن يكون (القرآن الكريم) فهو المنطلق الحقيقى للعلم كله ولمناهجه ، وهو أساس المعرفة؛ حيث يمدنا بالمفاهيم الأساسية للعلوم ودورها فى حركة الكون والمجتمع والإنسان، ومن هنا يجب ان نتجاوز النظريات المادية التى تتعارض مع هذا المفهوم ، وبخاصة التصور المادى الذى يفترض أن الكون قد وجد من تلقاء نفسه من غير خالق ، وأن كل ما يحدث إنما يحدث بشكل آلى دون اى تأثير خارجى ودون قوة محركة سببت حدوثه ، فنظام الكون كله خال من المضمون وليس له هدف محدد ، هذا المفهوم الذى يحدد وجهة الحضارة الغربية التى ترى أن الإنسان لا يحمل أية مسئولية أمام خالقه ، وأنه ليس هناك حساب ولا عقاب .

هذه النظرية يجب أن ترفع من مناهج العلوم فى محيط مجتمع الإسلام ، فنحن نؤمن بان هذا الكون من صنع الله تبارك وتعالى يديره لحظة بعد لحظة ، وأن الانسان مستخلف ومسئول مسئولية فردية ، وعليه التزام أخلاقى فى كل سعيه وحركة حياته ، وأن لهذا الكون نظاماً وهدفاً ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك** ﴾ فقد خلق الله الإنسان فى إطار الاختبار والابتلاء .

ومن هنا فإن الحضارة الإسلامية حضارة مسئولية وتكليف ومن ثم فان العلوم التى توجد فى ظلها يجب ان تكون تعبيرا عن ذلك .

* * *

ويتطلب هذا التوجه أن نكشف أساساً عن الدور الذى قام به الإسلام فى بناء هذه العلوم ، وهذه المفاهيم فى مختلف العلوم التى أنشأها المسلمون خلال فترة ألف عام كان الإسلام وعلومه وثقافته فى القمة ؛ حيث اعتلى خلالها المسلمون منصة العلم والحضارة ، ويجب أن يعرف شباب الإسلام اليوم هذه الحقيقة وأن يكشف لهم عن عظمة الدور الذى قام به المسلمون استمداداً من منهج الإسلام لإقامة هذا الصرخ الشامخ ؛ حيث نجد كتبنا المقررة اليوم لا تشير إلى هذا الدور الضخم حتى مجرد الإشارة ، كما يجب تقديم أعمال العمالقة الكبار الذين

كشفوا حقائق العلم فى مختلف مجالاته (ابن الهيثم ، جابر بن حيان ، ابن النفيس ، .....) وكيف كانت ريادتهم بالنسبة لمن جاء بعدهم من علماء الغرب الذين أخذوا هذه الحقائق أساساً لأبحاثهم ، ومن شأن هذا أن يثبت القاعدة الاساسية القائمة على أن الجانب العقدى هو ركيزة أساسية لهذه العلوم وأن هناك فوارق عميقة أساسية بين مفهوم العلوم ، فى النظرة الغربية وبينها فى النظرة الإسلامية،وأن النظرة الإسلامية هى التى يجب أن تسود ، وأنه بغير سيادتها على دراسات العلوم الطبيعية والرياضية والتجريبية اليوم لن نستطيع أن نوجد القاعدة الأساسية لإعادة بناء الحضارة الإسلامية .

* * *

(٢١)
أسلمة العلوم الإنسانية والاجتماعية

إن مطالبة المسلمين بأسلمة العلوم الإنسانية والاجتماعية فى هذه المرحلة من تاريخهم تجىء كتطور طبيعى لحركة اليقظة الإسلامية التى تتجه نحو الأصالة وتلتمس المنابع إيماناً منها بانه لا يصح إلا الصحيح ، وبعد أن تبين فساد المناهج الوافدة فى هذا المجال للاختلاف العميق فى الوجهه والهدف والغاية بل والمنطلقات نفسها التى تقوم على العقيدة والثقافة والقيم فى كل أمة من الأمم .

وإذا كانت هناك صيحات فى عالم الغرب تتعالى اليوم وتدعو إلى إعادة النظر فى فلسفة العلوم الإنسانية عموماً بعد ما برهنت على فشلها بل افلاسها لانها قامت منذ انطلاقها على أسس واهية وأضافت الإنسان إلى ميدان الاختبار والتجربة وكأنه جزء من الطبيعة دون أى اعتبار لجوهره وحقيقته ، وكيف مضت فى طريق مسدود ؛ مما جعلها عاجزة عن تشكيل صورة واضحة متكاملة للإنسان والعمل على إصلاحه وتوجيه طاقاته .

هذا بالنسبة لمناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية فى الغرب ؛ حيث فشلت فى تحقيق رسالتها فى وطنها الأصلى ، فكيف تستطيع أن تقدم شيئًا فى أوطان أخرى تختلف اختلافًا واسعًا من حيث المنطلقات الأساسية وفى مجتمع يحكمه منهج ربانى أصيل ممتد منذ خمسة عشر قرنًا ؟

والواقع أن مفهوم العلوم الانسانية والاجتماعية يختلف بين عالم الإسلام وعالم الغرب .

(أولا) من ناحية النظرة إلى خالق الكون تبارك وتعالى .

(ثانياً) من ناحية النظرة إلى الإنسان .

(ثالثاً) من ناحية النظرة إلى الأخلاق والمسئولية الفردية .

فالمسلمون يؤمنون بالله تبارك وتعالى إيماناً قائماً على مفهوم التوحيد الخالص، المقر بأنه سبحانه خالق كل شىء والمتصرف فى كل شىء ، وأنه هو مبدأ الأمور

كلها وإليه ترجع الأمور ، ويؤمنون بأن الإنسان مستخلف فى الارض وهو مكون من قبضة الطين ونفخة الروح فلا يصلح له إلا منهج متكامل جامع وأن الإسلام قدم للإنسان هذا المنهج المتمثل فى أمرين متكاملين (عقيدة ونظام) ؛ ولذلك فنحن إيمانا منا بالألوهية الحقة والنبوة والغيب والوحى والجزاء الأخروى نختلف فى توجهنا عن الغرب الذى يختلف عنا فى هذا المجال ؛ ولذلك فنحن حين نأخذ نظريته فى العلوم الاجتماعية والإنسانية نكون قد ظلمنا أنفسنا ظلماً بيناً ؛ مبيناً لاختلاف وجهات النظر من عدة نواح :

أولاً : فى التعارض الواضح الصريح مع مفهوم التوحيد الخالص والوحى والنبوة والإيمان بالغيب والجزاء .

ثانياً : فى اختلاف النظرة الغربية عن النظرة الإسلامية ؛ حيث إن النظرة الغربية تنظر إلى الإنسان من حيث هو حيوان أو مادة أو إن تجارب المادة والحيوان يمكن ان تطبق عليه ، ومن حق العلم علينا نحن المسلمين أن نكشف درجة انحراف مفاهيم العلوم الإنسانية الحديثة عن الغاية الحقيقية للإنسان ، ومعنى وجوده على الأرض ، وبيان مدى بعد هذه النتائج عن روح الإسلام ونظرته الكلية إلى الكون والحياة الإنسانية التى انبثقت منها نظرة المسلمين إلى وحدة العلوم والمعارف وتوجهها خالصة لله تبارك وتعالى وخدمة بنى الإنسان ، ولقد تبين من دراسات الغربيين أنفسهم أن أكثر ما يسمى علوماً وحقائق موضوعية فى مجال العلوم الإنسانية ليس أكثر من وجهات نظر خاصة وفروض عقلية (قابلة للنقض) أملتها أيدلوجيات الهيمنة وعقدة التفوق ، وقد استطاعت أن تؤمن نفسها باسم البحث العلمى والفكر الحر ، ولا ريب فى ان هناك اختصاصات جديدة لم تكن تظهر لولا الذهنية الاستعمارية التى تجعل من الغرب وحده النموذج الأمثل للترقى والتجديد والحضارة والمرجع الأساسى فى تصنيف الشعوب والأمم إلى : بدائية متخلفة وسائرة فى طريق النمو دون اى اعتبار حقيقى للوضع الحضارى المتميز والنظرة الخاصة إلى الإنسان بوصفه كياناً متميزاً .

ومن هنا فنحن فى حاجة إلى أن يقوم اليوم (علم تصحيح المفاهيم) على

أساس إعادة النظر فى مذهب التفسير المادى للتاريخ ونظرية دارون ومفهوم فرويد للجنس ومفاهيم دوركايم ونسبية الأخلاق .

مع ضرورة الفصل بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية ، واتخاذ منهج مختلف عن المنهج التجريبى المادى فى دراسة الإنسان .

* * *

كذلك فنحن فى حاجة إلى إقرار أولية المسلمين فى بناء منهج العلوم والحضارة فإنهم فى الغرب عندما يؤرخون لنشأة العلوم يغفلون خمسة قرون من الحضارة الإسلامية ، فتراهم يبدؤون من القرن الثالث قبل الميلاد منطلقين من أكاديمية أفلاطون ، ثم يقفزون إلى القرن الثانى عشر بعد الميلاد للحديث عن جامعات اكسفورد والسربون فى إشارة ضعيفة إلى الأزهر والزيتونة والقرويين والمدرسة النظامية وجامعة قرطبة متجاهلين تلك النهضة الإسلامية الضخمة التى قدمت منهج التجريب ومنهج المعرفة ذى الجناحين ومنهج قوانين قيام الأمم والحضارات وسقوطها مستمدة إياه ، من القرآن الكريم ، وما يزال الغرب يقيم مؤامرة الصمت حول هذا الدور المنكر اياه وما يزال يدعى أنه مؤسس مناهج العلوم وصانع الفكر والحضارة ، ونحن لا ننكر أنه حمل لواء الفكر الإسلامى العلمى ومضى به إلى غايات بعيدة ، ولكن أين الاعتراف بهذا الدور حتى فى كتبنا نحن التى تدرس فى معاهدنا وجامعاتنا .

وما يزال الغرب يركز على علوم معينة تأثرت بالفكر اليونانى ويحفل بها ويتجاهل أولية الإسلام وريادته فى مجالات لم يسبق إليها ، وما زال عطاؤه قائماً فيها لم ينقطع .

* * *

لقد قطعت أسلمة العلوم الاجتماعية والإنسانية مرحلة لا بأس بها ، وتولى عدد من الباحثين المسلمين العمل فى مجال النفس والأخلاق والاجتماع وقدموا أعمالاً يمكن أن تكون بمثابة قاعدة أساسية تركز على التميز الإسلامى فى هذه

المجالات ، وما زالت الأبحاث تجرى نحو ربط هذه الوجهة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة بآخر ما توصل إليه علماء المسلمين قبل فترة التوقف التى أصابت الفكر الإسلامى ، وذلك لإعادة الربط بين ما سبق وما هو جديد على نفس الطريق والوجهة .

وأعتقد أن هذه الخطوات على هذا الطريق ضرورية وأساسية ، ويجب أن تجرى من خلال حركة تصحيح المفاهيم والمراجعة الشاملة للدخائل التى وفدت على الفكر الإسلامى خلال فترة النفوذ الغربى والماركسى ، وأبرز هذه الدخائل التفسيرات المادية لقضايا النفس والاجتماع والأخلاق وتجاهل الجوانب الأخرى المتعددة التى يمثلها الفكر الإسلامى بتكامل نظرته الجامعة وخاصة البعدين الخطيرين : البعد الربانى والبعد الأخلاقى .

وأخطر مفاهيم التصور الغربى للعلوم الإنسانية والاجتماعية تتركز فى تجاهل وإنكار التوحيد الخالص والنبوة والوحى والغيب وفهم الإنسان على أنه مادة ، وقيام المناهج والنظريات على أساس الهوى والظن ومن خلال مواجهة تحديات خاصة مما يجعل هذه النظريات غير قادرة على العطاء الإنسانى البحت وقصورها فى دوائر البيئة الخاصة .

* * *

٢١
ماذا استطاعت الصحوة الإسلامية أن تحققه للدعوة الإسلامية

ماذا استطاعت الصحوة الإسلامية أن تحققه للدعوة الإسلامية فى مواجهة الغزو الفكرى ، هل استطاعت الصحوة الإسلامية أن تحقق خطوة جديدة على طريق مواجهة مؤامرة التغريب والتبشير والشيوعية ؟ هذا هو السؤال الذى يثار اليوم والذى تقطع كل الدلائل على أن الإجابة عنه هى بالابحاث : قطعاً وبأكثر مما كان يتوقع المراقبون . لقد عملت اليقظة الإسلامية منذ ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على إدخال الإسلام وفكره وثقافته مرحلة جديدة تحقق مفاهيمه من الجمود ، وتحرر قيمه من التبعية ، وتصحح مفاهيمه بعد ان شابها الاضطراب لتعود مرة اخرى إلى التماس المنابع ، وقد مضت على طريق الخروج من التبعية شوطاً حتى جاءت مرحلة الصحوة التى هى البديل الحقيقى لنكسة ١٩٦٧ التى كشفت زيف مخططات الغرب وأيدلوجياته الليبرالية والماركسية جميعاً ، وظهور عجزها عن العطاء الحقيقى للأمة الإسلامية التى لم تجد فى مناهجها أشواق النفس أو زاد العقل ، وكان من اكبر معطيات الصحوة أن كشفت للمسلمين أنه ليس هناك سوى منهج واحد هو وحده القادر على بناء المجتمع الإسلامى المعاصر ، وتمكين حضارته الإسلامية المتميزة الوجهة من استئناف العطاء الإنسانى بعد أن قامت بهذا الدور اكثر من الف سنة فى وقت كان الغرب يعيش خلاله فى ظلمات القرون الوسطى ، هذا المنهج هو الإسلام بأبعاده الربانية والأخلاقية ومنظومته الجامعة بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة . ومن خلال طابعه المتميز عن أيدلوجيات وفلسفات الفكر البشرى ، من حيث اتساع آفاقه ومرونة جوانبه وقدرته على استيعاب متغيرات المجتمعات والعصور ، ولعل أعظم معطيات الصحوة الإسلامية أنها أرست قاعدة أساسية، لم يعد فى الإمكان تجاهلها أو تجاوزها هى فساد معطيات الفكر الغربى والوثنى المادى المطروح من خلال قنوات التبشير

والاستشراق بهدف إزالة ذاتية هذه الأمة وصهرها فى بوتقة الحضارة الغربية والقضاء على تميزها الخاص ، ومن ثم فقد أصبح الفكر الإسلامى اليوم قادراً على تحطيم محاولة احتوائه واستعادة كيانه الخاص ، ومعنى هذا كله أننا ننتقل الآن إلى مرحلة جديدة أشد أصالة بعد أن قضينا القرن الماضى فى معركة الدفاع عن حقائق الإسلام ودحض الشبهات الموجهة إليه ، تلك المرحلة التى بدأت فعلاً خلال هذا العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجرى هى اقامة القواعد الاساسية لبناء منهج اسلمة العلوم والمناهج وتصحيح دوائر المعارف المشوبة بالشبهات وإقرار دور المسلمين فى بناء العلوم الحديثة وإقامة حجة التوحيد الخالصة من خلال الإعجاز الطبى للقرآن .

وما يؤدى هذا كله إلى مرحلة التغيير البالغة الأثر لإقامة المجتمع الإسلامى الأصيل وفق منهج الله تبارك وتعالى وشريعته دون اعتداء أو عدوان على أهل الحضارة القائمة مع الإيمان الراسخ بحماية وسلامة جميع العناصر المشتركة فى المجتمع الإسلامى ورعايتها .

* * *

ولقد جاء هذا الوضع فى ظل عوامل تمكن المسلمين من امتلاك إرادتهم وتحقيق إقامة المجتمع الربانى ، حيث نجد أن القوة الإسلامية اليوم (على الرغم من تمزقها) تقوم على ثلاث دعائم كبرى هى الثروة والطاقة والتفوق البشرى ، وأن (أمة مسلمة) تتشكل فى قلب الأمة الإسلامية على مفاهيم الإسلام الحقة تؤمن بالتحرر من الربا والزنا والميسر والخمر وتعرف حدود الحلال والحرام وتقيم حدود الله فى بيوتها وأنفسها ، وتشكل أهلها وأبنائها على الإيمان بالمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى ، وهذه هى الدعامة الكبرى للصحوة الإسلامية ، وفى ضوء هذه المرحلة نجد اننا استطعنا خلال القرن الرابع عشر الكشف عن عديد من المسلمات الباطلة التى فرضت علينا التى تختلف اختلافاً واضحاً مع مفهوم الإسلام الأصيل ؛ حيث كشف علماء المسلمين فساد عدد من المفاهيم والنظريات الغربية التى طرحت فى أفق الفكر الإسلامى ، مفاهيم الاقتصاد السياسى الربوى ،

وعلم النفس الفرويدى ، ومفاهيم ماركس ودوركايم وسارتر ، وانكشف فساد نظرية العلمانية القائمة على الفصل بين الدين والمجتمع ، وتبين أنها نظرية غربية جاءت فى ظروف خاصة بالعلاقة بين الغرب وبين دينه وأنها لا تمتد إلى الإسلام الذى نشأ جامعا بين القيم متكاملاً ؛ حيث لم يعرف الصراع بين الدين والعلم أو بين الدين والمجتمع ، كذلك فقد انكشف فساد نظريات العنصرية ؛ فقد جاء الإسلام يفتح الأبواب أمام تعارف العناصر والأمم وتلاقيها فى مجال وحدة الفكر الإنسانى الربانى المستمد من رسالات الأنبياء ، كذلك فقد أكد الإسلام ترابط الانتماء (الوطنى ـ القومى ـ الإسلامى) فى ثلاث دوائر متكاملة ، وبين أن كثيرا من مفاهيم النظريات الغربية يختلف تماما عن نظام الإسلام فالديمقراطية ليست هى الشورى ، والاشتراكية ليست هى العدل الاجتماعى .

ولقد حاول الغرب فى سبيل احتواء الأمة الإسلامية طرح مفاهيم مضللة كشفها علماء المسلمين واحدة بعد أخرى ، ولم يدعوها تخدع المسلمين ، فقد تبين فساد الدعوة إلى وحدة الأديان أو وحدة الثقافة أو محاولة الربط بين فكرتى التحديث والتغريب ، وأعلن المسلمون أنهما قضيتان منفصلتان ، وأن المسلمين يقبلون التحديث بشروطهم ولا يقبلون التغريب ، كما انكشف فساد خطة الحوار قبل أن تتوقف حملات التبشير والتنصير على بلاد المسلمين .

كما استطاع المسلمون تصحيح موقف التاريخ من السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية ، وكشفوا عن أن أول التاريخ الحديث للعالم كله ليس سقوط الدولة الرومانية ، وانما هو ظهور الإسلام ، وأن الخنجر الذى طعن به المسلمون هو « التعليم» كذلك فقد كشفت الدراسات عن فساد كثير من مفاهيم الغرب وثقافته ، وأولها تناقض الكتب المقدسة القديمة ، وعجز الأيدلوجيات الحديثة عن تحقيق أشواق الإنسان وظهور عوامل النقص والقصور فى خطة الحضارة المعاصرة ، فضلاً عن فسادها وانحرافها الخلقى وإسرافها فى الاستهلاك واندفاعها وراء الاستعلاء العنصرى .

وأخطر ما فى ذلك كله أن الغرب اليوم يحول بين عالم الإسلام وبين امتلاك إرادته وإقامة مجتمعه واستئناف حضارته وعلى اصرار شديد على صهره فى بوتقة العالمية والأممية والحيلولة بينه وبين إبراز تميزه الذاتى ، وفى المقابل تماما ذلك

الشعور الذى يسرى فى الغرب كله وفى أمم الحضارة بأن الإسلام هو وحده المنقذ للبشرية مما تتردى فيه الآن من أخطار ، وأن سير المجتمعات الغربية والحضارة على منهج الانشطارية الخطير الذى تسيطر فيه الفلسفة المادية والإباحية والوثنية لن ينتهى بها إلا إلى ارتطام خطير ما لم تحاول أن توجد لنفسها مخرجاً من خلال التعرف على البعد الربانى والبعد الأخلاقى الذى لا يمكن أن تستغنى عنه الحضارة ولا المجتمعات .

ولا ريب فى أن هذا التيار الخطير فى أوربا يعطينا نحن المسلمين عبرة واضحة فى الخروج من هذه المعركة المدمرة ، وأن علينا نحن المسلمين ألا ننصهر فى بوتقه الغرب أو نستسلم لمنهجه الاقتصادى والاجتماعى ، وألا ندع ثروات المسلمين تهدر فى الإنفاق الاستهلاكى المفرط ، وأن نؤمن بأن التحديث المادى والتقنى ممكن للعالم الإسلامى دون أن يفنى المسلمون فى الحضارة المادية أو الفلسفات الإباحية الإلحادية ، ولا ريب وقد جاوز المسلمون اليوم مرحلة التبعية ودخلوا مرحلة الرشد الفكرى فى أن يكونوا قادرين على التماس منهجهم الأصيل، الذى كان دائماً قادراً على إخراجهم من ظلمات الأزمات والأخطار مما التمسوه وما رجعوا إليه .

إن المسلمين اليوم على أبواب مرحلة التغير الأصيل الحقيقية بعد أن دوخهم التغريب أكثر من قرنين وراء بريق المنهج الغربى المظلم المنكر لإرداة الله المتجاهل لسنن الحضارات والأمم والأكوان ، ونحن نشهد أنه عجز عن العطاء الصحيح للإنسان المسلم وإن كان قد قدم له بعض وجوه الترف التى أعجزته عن أن يكون قادراً على حماية وجوده وحراسة شعوره .

* * *

٢٢
مصطلحات الغرب وخطر التداخل اللغوى

أخطر المحاذير فى التعامل الفكرى استعمال مصطلحات الأمم الأخرى وقبول مفاهيمها ومحاولة تطبيقها على القيم الإسلامية على النحو الذى يجرى اليوم فى عشرات من المصطلحات الغربية الوافدة أمثال : (الديمقراطية والليبرالية والاشتراكية والقومية والعلمانية) ومحاولة بعض الناس تبسيط الفوارق ، فنرى من يقول : إن الديمقراطية هى الشورى ، والاشتراكية هى العدل الاجتماعى ، وهذا محض تزييف بالغ ، كذلك فإن الذين ترجموا الكلمات الغربية إلى العربية كانوا من عتاة الماكرين الخادعين حين ترجموا العلمانية ونسبوها إلى العلم أو العالم ؛ حيث كانت فى المصطلح الغربى تعنى (اللادينى) وكذلك كلمة الاشتراكية والقومية .

وهناك عشرات من المصطلحات التى وضعت فى الحقيقة لتمثل ظاهرة موجودة فى مجتمع الغرب أو فكرهوأدبه (كالرومانتيكية والكلاكسية) فى محاولة لاتخاذ هذه المذاهب قوالب لصب الأدب العربى فيها ، ولقد أشار العلامة الشيخ أبو الحسن الندوى إلى هذا المعنى حين قال :

[إن الألفاظ والكلمات عندما تنتقل من لغتها الأصيلة التى ولدت فيها إلى لغات أخرى كاللغات الفارسية والأوردية تفقد كثيراً من قوتها ، وقد وقع فرق كبير بين مفهومها الحقيقى ؛ لأن الألفاظ والكلمات لها رحلة تاريخية كرحلة القوافل البشرية ورحلة الحضارات التى تفقد كثيراً من طراوتها ونضارتها عندما تقوم بهذه الرحلة وتتفاعل مع أشياء كثيرة جديدة] .

وقد أشار الكثيرون إلى خطر هذه الازدواجية وإلى خطر التداخل اللغوى ، فهو كما يقول دكتور مجدى يوسف : (يعنى إما إسقاط بنية اللغة الأم على بنية اللغة الأجنبية المكتسبة أو فى مرحلة متقدمة من إجادة اللغة الأجنبية والتوحد بها أو إسقاط بيئتها أو مفاهيمها على بيئة ومفاهيم اللغة الأم .

ومن هنا كان من الضرورى أن تنشئ الأمة التى تريد أن تنتفع بالمصطلحات الحديثة الوافدة ـ كلمات جديدة متميزة تحمل مفهوم اللغة الخاصة ، ومن شأن هذا أن يحفظ ذاتية الأمة الاسلامية عن طريق لغتها العربية أو لغاتها القومية ، ولقد جرت المحاولات فى سبيل احتواء المسلمين عن طريق تزييف الكلمات الغربية (بحسبان أن اللغة العربية هى أخطر لغات المسلمين ؛ لأنها لغة القرآن الكريم) .

ولقد كان من أبرز وصايا حماية الذاتية الإسلامية من الانصهار فى الأممية التركيز على المنظور الخاص الذى رسمته اللغة العربية لمعانى الكلمات منذ نزل بها القرآن الكريم وحدد هذه الصور .

ولما كانت الهيمنة الغربية حريصة على احتواء الأمم فإنها تبدأ ذلك باحتواء اللغة حتى تنصهر الآداب الأجنبية فيها دون اعتبار للفوارق والاختلافات فى المضمون والأداء جميعاً .

ولقد حرص علماء المسلمين فى عصر الترجمة الأول أن يعربوا مختلف المصطلحات الخاصة بعلوم الاجتماع والنفس والأخلاق والتجريب أيضاً ووصلوا فى ذلك إلى قدر كبير من الحصانة لقيمهم ووجودهم .

ولكن يبدو اليوم أن الآلات التى تستعمل فى مختلف الصناعات والمعامل والمطارات وأدوات الحاسب الآلى وعشرات من الأدوات تنقل المصطلح الغربى نفسه دون تغيير مما يغرق اللغة العربية بأسماء أجنبية لا تحمل المدلول العربى لأدائها .

* * *

بل إننا لنذهب إلى أبعد من ذلك وأخطر حين نستعمل مصطلحات الغرب فى صراعه مع الكنسية دون أن يكون لهذه المصطلحات وجود حقيقى فى الفكر الإسلامى كعبارات الحق الإلهى والتفويض الإلهى والدولة الثيوقراطية ورجال الدين مما يتصل بالعلاقة التى كانت قائمة بين الكنيسة والملوك فى شأن توليهم وعزلهم .

فالثيوقراطية تعنى قيام حكومة دينية لا يحاسبها أحد سوى الله تبارك وتعالى وتعنى نظرية الحق الإلهى أن الحاكم غير مسئول أمام الشعب ؛ لأنه يستمد سلطته

من الله تعالى ، فهل الحاكم فى الإسلام غير مسئول ؟ « إن الإسلام هو أول من قرر أن الحاكم راع يحرص على مصالح الراعية وأن شرط العدالة شرط مقيد فى كل ولاية » .

وهناك من يستعمل كلمة الإسلام السياسى والإسلام الدينى دون فهم لحقيقة الإسلام الجامعة بين العقيدة والنظام .

وما تزال قضية العلمانية من أخطر وجوه الخلاف بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى من حيث قيام منهج الإسلام على قاعدة التكامل الجامع بين السياسة والعقيدة والأخلاق ، وعلى مفهوم أن الأخلاق ميزان للسياسة ولحركة المجتمعات وأنها قيم ثابتة ثبوت العقيدة على خلاف مفهوم الغرب .

ويختلف مفهوم الفكر الإسلامى عن الفكر الغربى فى مصطلحات التطور والنمو والتقدم والتغيير الاجتماعى .

وحين يقر الإسلام مفهوم التطور والحركة والتعبير يضعه فى دائرة نظام جامع بين الثوابت والمتغيرات ، لا بمفهوم الغرب الذى يعطى التطور حركة مطلقة ليس لها ما يضبطها أو يحفظها من الانحراف .

كذلك فإن الإسلام يجمع العنصر المادى والمعنوى فى مفاهيمه ومصطلحاته فلا يقر مفهوم التقدم الغربى المادى وحده ولا يضحى بالمعنوى من أجل المادى ، وفى الأدب لا يقر القيم الجمالية منفصلة عن الأخلاقية ، ولما كانت دلالات الألفاظ ترتبط باللغة فقد كان ضرورياً أن يكون للمسلمين مصطلحاتهم فى كل مجال تختلف فيه مضامين القيم عن الغرب ، وبخاصة فى مجال الفن والجمال والمرأة والعاطفة والحب وغيرها ؛ لأن هذا الباب اختلط فى الغرب بتجاوزات كثيرة نتيجة غمط الغرب للقيم الأخلاقية أساساً والقيم الخاصة بالعرض والزواج والعلاقات بين المرأة والرجل مما وصل فى العقود الأخيرة إلى حد خطير مما يتصل بصديق الأسرة وتبادل الزوجات وزواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة .

وهذا الانحراف يطفو بوضوح على القصة الغربية والمسرحيات والمسلسلات ويحاول أن يخترق المجتمعات الإسلامية .

وقد كان الإسلام بمفهومه الجامع وأطره الواسعة وتحركه فى دائرة الثوابت والمتغيرات قادرًا على مواجهة تطورات المجتمعات والعصور على نحو يحفظ للمجتمع حصانته وأخلاقياته وقيمه الأساسية .

* * *

لقد كانت اللغة العربية ولا تزال وحدة مستقلة تختلف عن اللغات الأوربية فى منطلقها ومنهجها ؛ ولذلك فهى لا تخضع أبدًا للنظريات الغربية التى وضعت فى ضوء لغات لا تبلغ من العمر أكثر من ثلاثة قرون بعد أن خرجت من لغات أخرى كاللاتينية وغيرها .

ومن هنا فهى فى حاجة إلى حماية واقية من أن تسيطر عليها المصطلحات الأجنبية أو تغزوها .

* * *

٢٣
المؤامرة على مفهوم الغيب ومسئولية اليونسكو

يتحول الفكر الغربى المادى حثيثاً ليسيطر بوساطة مؤسسات عالمية على الفكر الإنسانى كله على نحو يختلف تماماً مع مفهوم الدين الحق بعامة ومفهوم الإسلام بصفة خاصة ، وهى قضية خطيرة تولاها جماعة من دعاة التنوير بمعنى الإلحاد والمادية منذ عدة قرون ، مختلطة بالعلمانية وإنكار الغيب والبعث والنبوات ، وهى المؤامرة التى قادها الفكر البشرى على إثر الخلاف بين الكنيسة والعلماء فى الغرب.

وقد وصلت الآن إلى مرحلة خطيرة لا يقر بها العلماء المستنيرون فى الغرب من رجال التجريب الذى شهدوا بوجود الله تبارك وتعالى واعترفوا بالصلة بين عالم الحس وعالم الغيب بعد ظهور كشوف الذرة وتحول مفهوم الطاقة والمادة كل إلى الآخر .

وفى مؤتمر عقد أخيراً من ممثلى ثلاثة أديان (البوذية ـ الفاتيكان ـ الإسلام) وضم مائة عالم من علماء الذرة المتطورة تحت عنوان (أما آن للدين أن يصطلح مع العلم) وأشرفت عليه منظمة اليونسكو .

وقد دارت المناقشات حول ما يمكن أن يحدث والتطور الخاص بالذرة يتنامى إلى الحد الذى سيصل إلى أن قنبلة واحدة إذا فجرت يهتز لها نظام العالم ، فكيف إذا وقعت فى يد مجنون ؟

وكان رد علماء المسلمين الذين حضروا المؤتمر : أن العودة إلى الإيمان بالله هى وحدها القادرة إذا وصلت هذه القنبلة وجدت أصحاب العقول يقفون أمامها .

وقد جرى البحث حول موقف الكنيسة الغربية أمام تطور العلم مما اضطر العالم أن يمسى فى شكل مادى ، فهل آن للدين أن يصطلح مع العلم ؟ ولكن يبدو أن ظاهره العلمانية كانت مسيطرة ، فقد قيل إن البرامج العلمية علمانية ولا يجوز أن

تدخل فى برامج التعليم العلمية شيء من المغيبات ، ولا يجوز ان يُعلّم الطالب إلا ما كان علميًّا نكاية فى الكنسية ، بل وصل القول إلى ما هو أشد من ذلك خطراً، حيث قيل : إنه لما كان الله (تبارك وتعالى وجل وعلا عما يقولون علواً كبيراً) لا يخضع للتجربة ، فليس القول به من العلم .

وقد تصدى أحد علماء المسلمين لهذا الاتجاه الخطير وتساءل : هل الإيمان بالغيب يتنافى مع العلم والتجربة ؟ وهل الجاذبية تدخل إلى المختبر (وهى أى الجاذبية من غيبيات العلم) فلم تقبل غيبيات العلم ولا تقبل غيبيات الدين ؟

لقد كانت هذه القضية الخطيرة التى رواها الدكتور معروف الدواليبى فى المؤتمر العالمى للدعوة الإسلامية بمكة المكرمة ـ وكان شاهداً عليها ـ ذات أثر كبير فى الدور الخطير الذى يقوم به اليونسكو فى سبيل انكار وجود الله تبارك وتعالى وعالم الغيب كله ، ووضع هذا الفهم الخاطئ والزائف موضع التنفيذ فى برامج التربية فى العالم الغربى وفى العالم الإسلامى أيضاً بمفهوم أن مصطلح الدين هو كل ما يختلف مع العلم والعالم ، وأنه لا يجوز أن يدخل فى برامج التعليم العلمية ، والواقع أن هذا المفهوم الذى وضعه فلاسفة المادية منذ وقت بعيد يجب ان يعاد النظر فيه بعد ان وصلت العلوم التجريبية إلى مرحلة أصبحت فيها قريبة من مفهوم الغيب ، وبعد أن تحطمت فكرة الجوهر الفرد وأصبحت الطاقة تتحول إلى مادة والمادة تتحول إلى طاقة ، وظهر كثير من علماء الغرب ـ وبخاصة اولئك الذين جمعهم كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) ـ من أولئك الذين كشفوا عن الإيمان بوجود الله تبارك وتعالى وقدرته العظيمة وامتلاكه لإدارة هذا العالم كله من وراء هذه الظواهر المادية ، وأن فكرة أن كل معلوم يخضع للحس والتجربة هى فكرة باطلة قال بها الملاحدة وفلاسفة المادية القدامى ، وليس هذا القول من العلم فى شيء ، ولا ريب أن قيادة الفكر حين ألقى فى يد الفلاسفة الماديين أصبح امراً خطيراً بالنسبة للحضارة الغربية والعلم جميعاً ، إذ إن فلاسفة المادية قد انفصلوا منذ وقت بعيد عن العلوم التجريبية ، وان كتبهم تفيض بنظريات الإلحاد ولا تتحدث مطلقاً عن نظريات الإيمان ، فإذا كانت اليونكسو تروج اليوم لهذه المفاهيم وتنكر الايمان بالغيبيات ، وتحاول أن تقود هذه المعركة فى مجال

التربية العالمية وفى العالم الإسلامى ـ فإنها تزداد بعد أن أوغلت فى كتابة تاريخ الإسلام على النحو الذى ظهر فى المجلد الخاص بذلك من كتاب تاريخ العالم ، والذى وجد نقداً شديداً من مفكرى الإسلام ، ولا ريب أن المسلمين فى جامعاتهم ومناهجهم التعليمية والتربوية قادرون على رد هذه الموجة الإلحادية الخطيرة وتقديم المفهوم العلمى الإسلامى الصحيح بل أن الجامعات الإسلامية مطالبة فى كليات التربية الموجودة أن تدخل الإيمان بالله تبارك وتعالى كنقطة انطلاق .

والواقع أن نظرة منظمة اليونسكو إلى الإسلام ما زالت مستمدة من المفاهيم الغربية الشديدة التعصب والكراهية للإسلام التى تنظر إلى الإسلام على أنه تراث تاريخى ، وليس واقعاً عريضاً يمتد من حدود الصين إلى بحر القلزم ، يضم الف مليون مسلم يؤمنون بالله الواحد ويؤمنون بالغيب ، ومن هنا فما كان لليونسكو أن تصادم عقيدة الأمة الإسلامية وأن تنحاز للفلسفة المادية الملحدة ، وبذلك يسقط مفهوم الحياد الذى كان يجب أن تتمسك به وبذلك أيضاً يصدق عليها قول الذين هاجموها من أول يوم لولائها الصهيونى والعلمانى ، ولأنها تعمل منذ اليوم الأول لصهر الأمم والشعوب فى مفهوم الهومنيزم الذى دعا إليه الماسون وأشارت إليه البروتوكولات .

وتزيد الثقة فى هذا الانحياز ، أن تساعد اليونسكو إسرائيل على محو طابع فلسطين العربى الإسلامى ، بخلق آثار عبرية وإزالة معالم عربية وجعل الحاجز الكاذب امتداداً لما هو مختلف ، وحيث يحتضن نفراً من المستشرقين الأجراء للدول الحاقدة على الإسلام ، وقد ألفت فى هذا الشأن بحوث رخيصة طعناً فى تاريخ الإسلام وحضارة الإسلام ، فضلاً عما تقدمه اليونسكو فى أبحاث كتابها من دس وافتراء .

وبعد أن تكشفت هذه المغالطات ما تزال المنظمة مصرة على عدم تصحيح الخطأ .

* * *

كنا نود أن تكون اليونسكو مؤسسة عالمية غير منحازة حتى يصدق الناس ما يصدر عنها ، ولكنها عجزت عن أن تحتفظ بمصداقيتها وانخرطت فى موالاة الخطة التى وضعت من أجلها أساساً .

وإذا كانت اليونسكو تحمل لواء الدعوة إلى انصهار الدين فى العلم على النحو الذى يتنكر لوجود الخالق العظيم ، وتحاول أن تفرض هذا الخطأ والانحراف على العالم كله بإعلاء شأن المحسوس وإضفاء عوامل كثيرة منها مفهوم (الغيب) الذى هو حقيقة واقعة ، فان ذلك يجعلنا نحادر تماماً من كل ما يصدر عنها وما تمثله من فكر خاص بعد أن قالت فى موسوعتها (تاريخ الشعوب) : إن الإسلام مشبع بالوثنية وإنه تلفيق من متناقضات أخذها من اليهودية والنصرانية ، ولست أدرى كيف تقبل منظمة اليونسكو أن تصادم مشاعر ألف مليون مسلم بهذه المقولة الباطلة التى طالما رددها المستشرقون من قبل ، ولم تجد عند الباحثين المنصفين فى الغرب أى صدى ، بل على العكس من ذلك استطاع ، أمثال بوكاى وجاروى وهونكة وغيرهم ان يكشفوا أو يعلنوا استقلالية النص الإسلامى وسلامته وارتفاعه فوق الاتهام الباطل الذى تردده منظمة اليونسكو بعد أن رددته جميع دوائر المعارف الفرنسية والإنجليزية والأمريكية فى مؤامرة ما تزال مستمرة على ذاتية القرآن الخاصة وحماية الله تبارك وتعالى له عن التحريف والخطأ والتبعية

* * *

٢٤
تعويق وصول المسلمين إلى امتلاك ارادتهم وتطبيق شريعتهم

ما يزال تكاتف الغرب واتحاده فى سبيل التآمر على حل عقدة الإسلام وهدم بيضته من خلال أحقاد عميقة قديمة ـ ما زال هذا الأمر قائماً كما كان أيام بطرس الناسك على حد تعبير السيد جمال الدين الأفغانى بالرغم من كل علامات التمويه التى يجرى صبغ المخططات بها زيادة فى خداع المسلمين عنها وتغطية الانياب الأظفار بوضعها فى حرير سميك يخفى دمويتها وفتكها .

وفى كل يوم تتجدد هذه الخطط فى سبيل تزوير حقائق الإسلام واحتوائه واستقطاب قيمه ومفاهيمه فى سبيل صرف المسلمين عن عقيدتهم وتمزيق وحدتهم وتحريف منهجهم الأصيل ، وبخاصة فى مجال الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما دعامتا الإسلام الحقيقيتان .

ويجرى ذلك من أجل تعويق وصول المسلمين إلى امتلاك إرادتهم وتحكيم شريعتهم والالتقاء على المفهوم الموحد الجامع الذى يجعلهم قادرين على أن يكونوا القوة العالمية الثالثة .

المحاولة كلها فى وسائلها وغايتها ترمى إلى تزييف العقيدة الإسلامية وتزوير الفكر الإسلامى واحتواء الثقافة الإسلامية واستقطاب القيم الإسلامية فى محاولة متجددة لصهر الإسلام فى بوتقة الفكر العالمى أو الأممية أو دين البشرية ، وذلك بإخراجها من ربانيتها ومنابعها الأصيلة حتى تعجز عن أن تحقق الغاية . وإيماناً بأن الإسلام منهج متميز جامع إذا خلط بالمذاهب البشرية المادية فقد قداسته وقدرته الأصيلة على العطاء وعلى امتلاك ناصية التوجيه العالمى .

ومن هنا بدأت الحملة المكثفة على القرآن الكريم والسنة المطهرة واللغة العربية بإثارة الشبهات ولما وجدوا أن جدار القرآن حصين ومتين ، ولا يمكن أن تنفذ إليه المعاول تحولوا إلى السنة ، وهى حملة تهدف إلى أن يبقى الإسلام دين عبادة

وتذهب مسألة الأحكام ، ويجرى نسف الشريعة الإسلامية واعتماد القوانين الوضعية والتخلص من القيود والضوابط التى جاء بها الإسلام عن طريق السنة ، وبذلك تتحكم الاتجاهات الهدامة (وقد قاد الحملة على السنة جمع كبير ، بدأ بالمستشرقين جولد زهير وشاخت ومرجليوت وانتهت بعدد من العرب اسماعيل ادهم ومحمود أبو رية وزكى أبو شادى وغيرهم ممن طعنوا فى البخارى وغيره) وتجرى المحاولات واسعة ومكثفة وعريضة ومستمرة ، تغير من أثوابها ومظاهرها على جبهة واسعة وتكاد تمس كل مقومات الفكر الإسلامى بهدف القضاء على ربانية المنهج الإسلامى وأدلته واحتوائه والنيل من جوانبه القوية الحية ، وبالرغم من ضخامة الانفاق وأساليب الإغراء التى تفرض فى مجالات التربية والصحافة والثقافة فانها لم تستطع أن تقف أمام حقائق الإسلام المضيئة بالشهب بالرغم من ضعف القوى التى تحمل لواءها وقلة الموارد وتدنى المنابر بالنسبة لمنابر أعداء الإسلام وقدراتهم ؛ لأنها تملك الحقيقة التى لا يمكن أن يغلبها غالب وليس مطلوباً من المسلمين فى هذه المرحلة العارضة إلا الصمود والصبر والاستمرار فى إفساد القذائف والسهام الملقاة على معسكر الإسلام ايماناً بقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا ﴾ .

ذلك أن منطلقات الفكر الغربى المسيطر الآن فى العالم مرحلياً ليست على الحق وانها تسبح ضد التيار ، وضد نواميس الكون وقوانين الوجود الخاضعة لإرادة الله تبارك وتعالى وضد قاعدة الإسلام الكبرى : « إسلام الوجه لله ، والإيمان بإرداته العليا القاهرة لكل قوى الكون والوجود » وأن هذا التوجه المستعلى على قوانين الأمم والحضارات سوف يسقط ويتحطم ويدمر ؛ لأنه معترض على التناسق العام .

فهى تحمل وجهة (انشطارية مادية) وتتنكر للوجهة الجامعة التى تمثل تكوين الإنسان نفسه (روحا ومادة) وهى إما أن تعلى شأن الفرد أو تعلى شأن الجماعة ، بينما يقيم الإسلام عنصر التوازن بين الفرد والجماعة على أساس حفظ المصالح ودرء المفاسد وعلى قاعدة التضامن فى الحال والمصير .

وهى تتنكر للالتزام الأخلاقى بينما يقرر الإسلام ان الهيمنة على العلم والطبيعة لا تتم إلا على أساس الالتزام بالخلق والعقيدة فى الفكر ومنهجاً فى

السلوك ذلك ان التعبير القديم لشئون المجتمع مرتهن فى النص القرآنى بقدرة الانسان على تغيير ما بدأت به نفسه ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ .

فضلاً عن ضرورة الترابط بين جميع العوامل المادية والفكرية المؤلفة لإنسانية الإنسان والمؤثرة فى حياته الفردية والاجتماعية ، هذا المنهج الربانى القرآنى الإسلامى هو الذى يطمع الفكر الغربى الوثنى المادى المسيطر اليوم من خلال دوائر النفوذ الأجنبى فى إزالته والتشكيك فيه وتزييفه فى محاولة خطيرة ، تهدف إلى :

أولاً : الحيلولة دون قيام وحدة اسلامية جامعة تعيد الأمة الإسلامية مرة اخرى إلى قيادتها العالمية .

ثانيا : الحيلولة دون قيام الحضارة الإسلامية لعملية البث التى كانت تقوم بها قبل عصر الضعف والتخلف .

ولقد استطاع النفوذ الغربى أن يخدع المسلمين خلال أكثر من مائة سنة بأنه يعمل على تمدينهم وتحضيرهم ودفعهم إلى مصاف دول الغرب ، إذا هم تخلوا عن منهجهم وقيمهم وقبلوا الإسلام ديناً لاهوتيًا صرفًا قائماً على العبادة ، وارتضوا منهج الغرب فى السياسة والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك . وقد سار المسلمون شوطاً فى تقبل هذه المؤامرة ولم يعودوا منها إلا بعد أن صدموا حين أحسوا بأنهم يوردون أنفسهم وأمتهم مورد الهلكة . ولم يوقظهم إلا الارتطام الشديد فى معركة ما يسمى بالنكسة .

حينئذ عاد المسلمون إلى رشدهم وآمنوا بأن أزمتهم الحقيقة ليست إلا فى بعدهم عن الإسلام وأن كل ما أصابهم وحاق بهم إنما كان مصدره هو تخليهم عن منهج الله تبارك وتعالى ، وقد تأكد للمسلمين على مدى تاريخهم الحافل بأنهم كلما تخلوا عن منهج الله أذلهم الجبابرة والظالمون وكلما عادوا إليه رد الله عليهم وجودهم .

ومن هنا فقد تأكد للمسلمين خطأ الانسياق وراء مفهوم الحضارة المادية الغربية التى تؤمن بالاستهلاك والرفاهية وتضحى فى سبيل ذلك بقيم البذل والفداء والتضحية وحماية عناصر المجتمع على النحو الذى رسمه القرآن الكريم والشريعة المطهرة وفق نظام الزكاة والعدل الاجتماعى والحلال والحرام وأحكام الأمور وإقامة

الحدود .

وأعتقد أن هذا هو جوهر الصحوة الإسلامية الحقيقى الذى غاب عن المسلمين عقوداً طويلة على الرغم مما نبه إليه كثير من الدعاة إلى الله ، وأنه ليس هناك طريق للنهضة الإسلامية الحقيقية إلا مستمداً من منهج الله وحده ، وأن مقاييس الإسلام وقوانينه فى الحكم والاقتصاد والتعامل والعلاقات بين المرأة والرجل والأسرة والعلاقات الدولية هى وحدها القوة الحقيقية التى تمكن للمسلمين فى الأرض .

ولقد كان الإسلام دائماً قادراً على الانبعاث من الداخل ، فهو يحمل فى أعماقه عوامل الصحوة والنهضة الحقيقية التى تختلف عن المقاييس المادية التى تتوقف عندها حضارة الغرب والتى تصطدم كل يوم بقوانين الله وسننه فى الامم والحضارات حتى تصل إلى الغاية فتسقط وتهوى ﴿ **أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من اطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه** ﴾ .

يجب أن يكون واضحاً أمام المسلمين أن الحقيقة الاساسية هى أن التقدم المادى والرفاهية لا يحققان كامل طبيعة الإنسان ولا يعدانه بالجنة الموعودة فى الأرض ، وأن الرفاهية مثل الفقر تماماً يمكن أن تترك الفرد فارغاً من الداخل .

وأن الله تبارك وتعالى قد وعد المسلمين بالتمكين والنصر ، والأمن من الخوف إذا هم أقاموا منهجه فى الأ رض ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضي لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا** ﴾ (النور : ٥٥) .

وهذه هى الحقائق التى عرفها اليوم أيضاً بعض علماء الغرب ورأوا فيها منقذاً لهم من الدمار .

* * *

٢٥
لابد من مشروع حضارى إسلامى

إن كل المحاولات التى تبذل الآن لوضع أسس مشروع حضارى محدود ، سواء بحدود القومية أو بحدود العلمانية أو مرتبط بالمتغيرات دون الثوابت أو خاضع لمظهر من المظاهر العصرية أو الحضارية القائمة الآن ، كل هذه المحاولات تحمل عوامل مؤقتة وظواهر متغيرة وأوضاع مرحلية وطوابع لا تصلح لتقديم مشروع صالح للبقاء أو الاستمرار أو قادر على مواجهة كل المتغيرات ، لا يعتوره الانحراف أو الفساد مع اصطدامه بالعوامل التى تحدث التغيير سواء مع تباين المجتمعات أو اختلاف العصور ومن هنا وجب أن يكون المشروع الحضارى إسلامياً أساساً ؛ لأنه بذلك يكون قادراً على اشتمال عوامل الوطنيات والقوميات جميعاً وان يكون مستمداً جوهره من الأصل الثابت المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

هذا المنهج هو الذى يستطيع أن يرسى أعلى القيم وآكدها ، وهى المرابطة فى الثغور والقدرة على الردع والوقوف الدائم فى وجه العدو ، ثم يبسط فى داخل الأمة الإسلامية العدل والرحمة والإخاء البشرى ويقيم منهج أخلاقية المجتمعات وحدود الحلال والحرام ، ويحول دون الظلم والفساد وينمى روح الفريق ، ويربط بين الجماعية والفردية دون أن يفقد الفرد حريته أو تفقد الجماعة أمنها ، ولقد أقام الإسلام منهجه على أساس وحدة الفكر الجامع التى توسع دائرة الالتقاء والتعارف ، وتضيق دائرة الخلافات حتى تصل الإنسانية إلى عصر التراحم والوفاء من خلال المنهج الربانى الذى رسمه الحق تبارك وتعالى بديلاً لمنهج البشرية القائم على الصراع والقتال وإثاره الأحقاد والخصومات والمطامع على النحو الذى نراه الآن والذى يتطلع دعاته إلى شق القوى المتجمعة ، وهى تستهدف تحويل الكيان الإسلامى الكبير إلى كيانات وكانتونات متصارعة ، وذلك بايقاظ الخلافات المذهبية والتفرقة الجنسية .

ولا سبيل لأى مشروع حضارى علمانى أو قومى أو بشرى أن يمكن لقيام الأمة القادرة على حمل رسالة الله تبارك وتعالى للعالمين إلا إذا استمدت مفاهيمها

من الأصل الأصيل الخالد ، وهو النص الموثق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى جمع مختلف القيم الربانية العليا التى وهبها للبشر وأرسلها على لسان أنبيائه ورسله ، ويكون المنطلق الحقيقى من القرآن والسنة المطهرة على النحو الذى بدأت به النهضة الأولى ، إيماناً بأن القرآن كتاب البشرية الخالد الصالح لكل زمان ومكان ومنه تنطلق كل المناهج والخبرات التى تمكن المسلمين من جنى الثمار من خلال مخاطبة العقل والقلب والوجدان ، ومن هذا المنطلق يمكن تصحيح كل المنظمات القائمة : منظمة الانتماء ، ومنظمة المجتمع ، ومنظمة التعامل الخارجى مع الغير ، وتكامل المجتمع الداخلى ، وتصحيح مسار الاقتصاد ، ورفض بنوك الربا ، وإقامة المرأة فى مكانها الطبيعى عماداً للأسرة وكياناً للمجتمع كله ، وبناء التعليم على أساس التربية الإسلامية وتوجيه أدوات الترفيه والتسلية الوجهة السليمة التى تحقق هدف (الترويح) الذى هو هدف إسلامى أصيل دون الدخول فى دائرة الانحراف والتبذل وحماية الوجود الاجتماعى كله من الانحراف الأخلاقى ومن الفساد والفحشاء والإثم كله .

ويمتلك الإسلام قوة رائعة لا يمتلكها أى منهج بشرى أو أيدلوجية أخرى ، تلك هى التوازن والتكامل والمواءمة بين القيم ، بحيث لا يوجد من خلال ذلك صراع طبقى أو خصومة بين الأجيال أو تضارب بين الآباء والأبناء.

هذا التكامل الجامع فى الإسلام ظاهرة حية نابضة بالقوة ، وهو تكامل الفكر والوجدوان ، تكامل العقل والروح ، تكامل السلف والمعاصرة ، تكامل النظرية والتطبيق ، تكامل الثوابت والمتغيرات ، هذا التكامل يفرض مسئولية خطيرة على الفكر الإسلامى وهى أن يقف موقف المراجعة الواسعة للفكر المادى الغربى ، والفكر الروحى الشرقى باعتبار كل منهما يمثل نظرة انشطارية لا تحقق سلامة النظر ؛ حيث تقف النظريات موقف التجزئة ، بينما يتميز الإسلام بكمالية النظرة والتوجه.

ويجب أن يكون واضحاً أمام الأمة الإسلامية أن التجربة الغربية بشطريها قد انتهت بالفشل ، وأن المسلمين لا يأخذون نظم الآخرين ولكنهم يستفيدون من الانظمة والوسائل فيصهرونها فى بوتقة فكرهم ويحولونها إلى مواد ، ثم ينتفعون بها

إن منطلق الوحدة بين عناصر الأمة هو تكامل الفكر والقيم والثقافة والآداب ، وهى فى منطلقها من رسالات السماء تلتقى على أصول التوحيد والإخاء الإنسانى والأخلاق مع تفاوت قليل ، ولكن رسالة الإسلام منذ جاءت صهرت كل قيم الأديان وأخلاقياتها فى منظور جامع واحد قوامه اللغة العربية ، وقد جمع القرآن الكريم أصول رسالات السماء كلها من صحف إبراهيم وتوراة موسى وزابور داود وإنجيل عيسى .

فالواقع أن عوامل الوحدة موجودة وقائمة ، والثقافة الإسلامية تمثل الآن ثقافة المنطقة العربية والإسلامية كلها ، فإذا التمس أهل هذه المنطقة منطلقات التوحيد والعدل والشورى والإخاء ، بما جاء فى الإسلام من قوانين لحماية ورعاية وتكريم العناصر غير الإسلامية وإعطائها حريتها الدينية وإشراكها فى النهضة والحضارة والعلم ورفعت مؤامرات الغزو الفكرى التى يهدف إلى إثارة الفتن والوقيعة والصراع بين عناصر المجتمع ، تذلل هذا الهدف تماماً ، وكانت الشريعة الإسلامية عنصراً حامياً ومؤكداً لحقوق العناصر المختلفة التى صهرها المجتمع فى بوتقته .

ويبقى بعد ذلك النظر إلى العامل الخارجى وحماية الأمة منه ، وقد كان هذا العامل الخارجى متربصاً يبحث عن أية ثغرة لينفذ منها ، فإذا حصّنا هذه الثغور امكن دفع تداعى الامم .

ولاريب أن ذلك يتطلب تربية إسلامية خاصة تحفظ لعناصر الأمة قدرتها على الإيمان بحق الله تبارك وتعالى على المسلم من الاستخلاف والعمران والسعى والتحرر من الضعف والرخاوة والترف الوهمى والتراخى وكلها علامات الهزيمة .

وما لم تخرج الأمة الإسلامية من طابع الرخاوة والترف وتدخل مرحلة الاخشوشان والصمود والعزائم فإنها لن تستطيع أن تحقق وجودها الحقيقى ، ولن تستطيع أن تقيم مجتمعها المستقل القادر على العطاء وستظل تابعة ومنصهرة فى بوتقة الحضارة المنهزمة .

وهكذا يستطيع المشروع الحضارى الإسلامى أن يحقق كل ما تحاول أن تقدمه المشروعات القومية والعلمانية جميعاً ويزيد عليها أنه يقدم ما تعجز الحضارة الغربية

عنه اليوم ، وهو الأمن النفسى فى مواجهة القلق الهائل الذى أصاب النفوس والأرواح وما أحدثته عبادة المادة من زلزلة للقيم والأخلاق .

ومن قبل جرب المسلمون مفاهيم القومية والليبرالية والاشتراكية جميعاً ، وعادوا من بعد عجزها عن العطاء الحقيقى فى مجال الأمة التى بناها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، ومن هنا فقد أصبح الاختيار الإسلامى حقيقة واقعة وأصبح المشروع الإسلامى مطلباً لا محيص عنه ، وله من سعة الإسلام وقدرته على التوازن والتكامل والمواءمة بين القيم ما يحول دون الاصطدام أو الارتطام على النحو الذى يقع فى الأيدلوجيات ، كما أن له من سعة الأفق وتمدد الأطر ما يحول بينه وبين أن تصيبه مصيبة المتغيرات التى هزمت كل المذاهب البشرية ودفعتها إلى التغير، بالإضافة والحذف .

* * *

٢٦
التحول الخطير فى تاريخ البشرية

كشف القرآن الكريم عن مجموعة من الحقائق كان لها أبعد الأثر فى التحول الذى اتجهت إليه البشرية والذى ما زال قائماً إلى اليوم :

أولاً : أن هناك تحولاً حدث عن ملة ابراهيم (الحنيفية السمحاء) إلى مفاهيم أخرى ، وأن الإسلام الذى نزل على محمد ﷺ هو بمثابة العودة إلى الطريق الأصيل ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً** ﴾

ثانياً :إن الذين أحدثوا هذا التحول حيث فصلوا دينهم عن منهج الحنيفية قد حرفوا الكتب السماوية المنزلة عليهم،وقد أورد القرآن الكريم هذه الحقيقة فى أكثر من موضع ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾.

﴿ **قل فمن أنزل الكتاب الذي جاء به موسي نورًا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرًا** ﴾ .

ثالثاً : إن الله تبارك وتعالى أخذ العهد على الأمم السابقة أن تؤمن بالنبى الخاتم إذا ظهر .

﴿ **وإذ أخذ ربك ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ .

رابعاً : إن رجالاً من أهل الكتاب فى عصر النبوة شهدوا بالنص الصحيح الذى ورد فى كتبهم عن بعثة محمد ﷺ وأن هذا النبى مكتوب عندهم فى التوراة والانجيل .

﴿ **قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾ .

* * *

هذا هو التحول الخطير فى تاريخ البشرية التى كان بعيد الأثر فى تلك الوضعية التى عاشتها البشرية ولا تزال تعيشها ، وقد كشفها القرآن الكريم واضحة كاملة قبل أن تصل نتائجها إلى الوضع الذى انحرفت إليه الحضارة العالمية اليوم ، وعلى كل باحث يريد أن يتعرف أصول الأزمة العالمية الخطيرة التى تواجه البشرية اليوم ، وهذا المنحنى الخطير الذى تنحرف إليه ، أن يكون على وعى بهذه الحقائق الأساسية ، فهى وحدها القادرة على تفسير الانحراف الذى تردت فيه الأمم الغربية حين أوغلت فى إنكار منهج الله ؛ حتى وصلت إلى حد معارضة نظام الكون كله بإعلان الحرب على الوجهة التى رسمها الدين الحق بقوانينه الثابتة وسننه الطبيعية التى يخضع لها الوجود كله فى معارضة واضحة صريحة مستمرة للفطرة والعلم وحقائق الأشياء .

وكان أخطر ما فى هذا التحول اعتماد مفاهيم سابقة لدى بعض الأمم الوثنية من (فكر طفولة البشرية) وإعطائها القداسة مع أنها ليست من الدين المنزل ، كما هوجمت مفاهيم الإسلام التى قدمت فى إطار المنهج التجريبى والتى أعطت الفكر الغربى مفهوم البرهان والتجربة ، وتجاوز أساليب (اعتقد وأنت أعمى) أو أغمض عينيك واتبعنى ، وكان للعلوم الإسلامية أثرها فى تقديم أسلوب جديد ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ ودعتهم أن يبحثوا عن البرهان قبل الاقتناع ، وكان لهذا آثاره البعيدة المدى ، فإن (ميشيل سرفيه) أحرق ؛ لأنه لم يعترف بالتثليث ، وكان يؤمن بالتوحيد وأن (جاليلو) حوكم ؛ لأنه قال : إن الأرض تدور ، وهذا مخالف لما فى الكتاب المقدس .

ولكن التجربة العلمية لم تجد من الضوابط ما يحفظها من الانحراف حين ذهبت إلى قبول مبدأ التطور الدائم وأنكرت الثوابت كلية حين دعت إلى تقديس العقل وهو القاصر بنفسه عن الحكم فى الأشياء .

والدعوة إلى ان كل شىء يتغير، هذه نظرية أحادية خاطئة ترى جانباً واحداً ولا تستطيع أن تنظر إلى الجانب الآخر .

وكان أشد ما فى هذا التحول خطورة الادعاء بالمساواة الكاملة بين الرجل والمرأة دون تقدير لمهمة كل منهما واختلاف تركيبهما البيولوجى ، وفى أحدث ما كتب العلماء أن هناك اختلافات واسعة فى الكيمياء العضوية ومسام الأوعية

الدموية بين الرجل والمرأة واختلافات بيولوجية بين قلب الرجل وقلب المرأة .

ولم تلبث الحضارة الغربية أن فصلت بين الروح والمادة والعقل والقلب والنفس والجسم فأحدثت اضطراباً شديداً فى النظرة إلى القيم وتعذر تكامل المنهج والتطبيق.

وسايرت نظريات الفكر اليونانى الوثنى فأخذت مفهوم العبودية التى قال عنه أرسطو : إنه قانون طبيعى وأن غلفته ببعض الأغلفة الحضارية مع بقاء العقيدة الراسخة فى ضمير الغرب بالاستعلاء باللون والجنس عن باقى أجناس البشرية ، وإن هذا يعطيها الحق فى استعبادها والسيطرة عليها ونهب ثرواتها .

وفضلاً عن ذلك فقد قبلت من الأدب الاغريقى فكرة المأساة ، وهو ما يسمى بالصراع بين الانسان والقدر ، ولما جاءت المسيحية الغربية أقرت فكرة الخطيئة الأولى مصدراً للمأساة ونظرية دارون التى تقول بحيوانية الانسان .

بينما لا يقر الإسلام مفهوم الصراع بين الإنسان والقدر ، أو حيوانية الإنسان أو نظرية الخطيئة الأولى .

وفى ضوء نظرية المحاكاة اشتعلت من جديد مفاهيم التجسيم ، وبها أقيم عالم وهمى فى مواجهة عالم الواقع ، ويرتبط بهذا قضية الدراما والحبكة المسرحية .

ولا يقر الإسلام مفهوم التجسيم لكنه يقوم على فكرة الإله الواحد فنقل البشرية من الخوارق إلى آية البيان الكبرى (القرآن) ومن المعجزة الحسية إلى إيمان العقل والقلب .

(ما من نبى إلا أوتى الخوارق ، أما أنا فقد أوتيت وحياً يتلى ، فأرجو أن أكون اكثرهم تابعاً يوم القيامة) .

وقد أقام الإسلام مفهوم (التجريد) بدلاً من مفهوم التجسيم .

وكانت الحنيفية السمحاء قائمة على التوحيد أساساً ، ثم تحول الناس تحت تأثير تفسيرات خاطئة إلى التجسيم ، وجرى هذا حين اتخذ الناس الصورة والرموز لتذكرهم بالإله الواحد ، ثم لم يلبثوا مع الزمن ان تحولت هذه الصور إلى أصنام واوثان ، وتحولوا هم إلى عبادتها ، وقد قامت الوثنية اليونانية على الإباحية والتعدد والتثليث ، ثم انحرفت الأديان إلى مضاهاة الذين قالوا بذلك من قبل ، وما تزال

ظاهرة الفلسفات التى تدعو إلى التشكيك فى كل ما يخرج عن دائرة المحسوس ، إن آية الآيات فى الإسلام هى الإيمان بالغيب والألوهية والنبوة والبعث والجزاء .

ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى تحريم التماثيل ليس خوفاً من العودة إلى الوثنية بقدر ما هى غاية فى ذاتها للوصول إلى مفهوم الإسلام فى التجريد وإنهاء عصر (التجسيم) ومفهوم التجسيم : ذلك الخط الطويل الممتد على العصور منذ الوثنية الأولى المعارض لمفهوم التوحيد الخالص مع كل الديانات السابقة للإسلام

وينكر الإسلام ما يدعى من أن قدرة رجل الفن على تصوير الطبيعة أو التفوق عليها فإن المسلم لا يصور ما يفنى من خلق الله تبارك وتعالى ؛ ولذلك فهو يرسم المكعبات والدوائر ويتعالى عن تصوير الإنسان والحيوان .

ولقد كان واضحاً تماماً أن المسيحية المنزلة لم تجئ لكى تنظم حركة الحياة وانما جاءت لتعطى العنصر المفقود فى اليهودية التى أوغلت فى المادية ؛ ولذلك فهى لم تزد عن أن تكون وصايا ، وليس كذلك الإسلام الذى جاء منهجا جامعا لتنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؛ ولذلك فإن المسيحية عندما حاولت أن تسيطر على حركة الحياة وليس عندها (منهج حياة أو نظام مجتمع) اضطربت المحاولة ولم تحقق نتائج إيجابية ، ثم جاء الإسلام محرراً للمجتمعات المسيحية من الوثنية والرهبانية ودفعها بمنهج العلم التجريبى الذى قدمه استمداداً من القرآن إلى السعى والعمران ، وأعطى ذلك ثماراً إيجابية ، ولكن الغرب قبل من الإسلام الفكر التجريبى ، ولم يقبل منهج الحياة الجامع بضوابطه وحدوده ؛ ولذلك وقع فى محاذير الغرور والاستعلاء ، وتحول منها إلى مفاهيم عبثية الحياة ، وكان للإيغال فى النظرية المادية أثرها فى تدمير الوجود النفسى وقيامه مفهوم الغربة والقلق والتمزق الذى ما يزال يسيطر على المجتمعات الغربية بالإضافة إلى التحرر من القيم الأخلاقية والإيغال فى تجاوزات الجنس والإباحة إلى أقصى الغايات .

٢٧
تميـــــز الأمـــة الإسلاميـــــة

إن الأمة الإسلامية قد تشكلت على القرآن الكريم منذ اليوم الأول الذى وقف فيه محمد ﷺ على الصفا ينادى ، أمة متميزه بناها الاسلام على طراز متميز وكيان مستقل يختلف عن الأمم التى سبقتها أو عاصرتها أو جاءت بعدها ؛ إذ أقامها على إسلام الوجه لله رب العالمين ، تؤمن به وتتوجه فى مسئوليتها وسعيها إلى أداء مسئوليتها الحقيقية ، وهى إقامة المجتمع الربانى وتبليغ كلمة الله تبارك وتعالى للبشرية ؛ وتقيم نفسها على العزم والقوة والإعداد والقدرة على الروع حتى تحمى وجودها وتحفظ كيانها من أن يطمع فيها طامع أو يحاول الفكر البشرى أن يحتويها .

وهى فى هذه المرحلة التى نعيشها (مطالع القرن الخامس عشر الهجرى) محتواة فى مرحلة خطيرة من مراحل سيطرة الأممية عليها فى حلقة ثالثة من حلقات الصراع مع القوى العالمية الكبرى .

هذه المرحلة التى تلت مرحلة الحروب الصليبية والتتار التى عانت منهما الأمة الإسلامية أكثر من قرنين حتى انجلت فى مقاومة وتمكين استمر خمسة قرون ، ثم عادت تواجه جولة جديدة من السيطرة الغربية تحت اسم الاستعمار ، وقد تقلص أمر الاستعمار قليلاً ، ولكن قوة النفوذ الأجنبى ما زالت مسيطرة على كيان الأمة الإسلامية الاقتصادى والاجتماعى فى ثلاثه محاور : الغرب والشيوعية والصهيونية .

وهى محنة أشد خطراً من محنة الفرس والروم فى مطالع الإسلام ، ولكن معركة الأمة الإسلامية مع النفوذ الأجنبى ما تزال قائمة تحت عنوان الصمود والدفاع وحماية الذاتية الخاصة من أن تنصهر فى بوتقة الأممية أو تحتوى فى الحضارة العالمية التى تمر بمرحلة الغروب .

ولقد قاومت الأمة الإسلامية كل عوامل الإغراء والاستقطاب وعجزت الأيدلوجيات التى فرضت عليها عن أن تحقق شيئاً ، ولم تجد منذ اليوم الأول قبولاً

لدى الوجدان المسلم الذى شكله القرآن والتوحيد والإيمان بالبعث والجزاء .

ولقد جرت المحاولات لخداع المسلمين بالربط بين العدل الاجتماعى والاشتراكية أو الربط بين الشورى والديمقراطية .

غير أنه لم يكن هناك فى الحقيقة أية صلة حقيقية بين العدل الاجتماعى والاشتراكية التى هى الماركسية ، فالماركسية لا تعنى العدالة فى الاقتصاد وما يتفرع منه من تأميم الشركات ، وإنما هى شيء غير ذلك تماماً ، إنها التفسير المادى للتاريخ والصراع الطبقى ، كذلك فان الديمقراطية شيء مختلف تماماً عن الشورى الإسلامية.

* * *

وأبرز ما يجب التنبيه إليه أن لكل أمة خصائص تختلف بها عن خصائص غيرها وميزات تنفرد بها عمّا سواها وتركيباً وبنية هما علاقة وجودها ، هذه الخصائص أحياناً لا تكون ظاهرة للعيان وكثيراً ما يظن الباحثون من الأجانب أنها ليست ذات أهمية ، فيهونوا من شأنها ، نعم إن هناك صفات عامة بين البشر ، وأن البشر يتشابهون فى كثير من الخصائص ، ولكن ما تزال الثقافة والعقيدة توجد خلافات واسعة فى التعامل والتلقى وأساليب العيش والاجتماع ، ذلك ان الإسلام قدم لمعتنقيه منهجاً جامعاً كاملاً لحركة الحياة ، ليس هو بالضرورة قيداً على هذه الحركة ، ولكنه منهج مرن واسع فسيح الأرجاء قادر على حماية المسلم من الانحدار والتمزق ، ولكنه لا يحول بينه وبين السعى والكسب والعمران . ولكنه يقيمه على الجادة فيكشف له الحلال والحرام والحق والباطل والخير والشر . ولا يدعه فى هوة لا يعرف وجهته الحقيقية .

ومن هنا فقد كانت هذه الأمة متميزة على نحو يدهش له دارسو أخلاقيات الأمم ؛ حتى يقول المسيو ريمون الرحالة المشهور :

إنه عند تطوافنا فى مجاهل أفريقيا لم نكن نأمن على أنفسنا وعلى رجالنا إلا عند المسلمين ، وكنا نصادف منهم أنساً ولطفاً وحسن ضيافة بخلاف جيرانهم من

الناس الذين لا دين لهم ، الذين كثيراً ما غدروا بنا وبرجالنا حتى كنا نضطر إلى استعمال الأسلحة النارية دفاعاً وقال : إن نور الإسلام انتشر كثيراً فى جهات أفريقيا وآسيا ، وكان انتشاره طبيعيًا ؛ لأن المسلمين كانوا قدوة فى أعمالهم الحسنة لسائر جيرانهم ، فلحقوا بهم وحذوا حذوهم ، وبالتدريج عرفوا ما الإسلام فاعتنقوه وصاروا مسلمين ، وأن الألمان والإنجليز استخدموا كثيراً من المسلمين فى معسكراتهم فصادفوا منهم غاية الأمانة وحسن الوفاء إلى غير ذلك ..

وقال أرنولد توينبى : ان الغرب اتجه إلى استعباد الدول وسلب ثرواتها ، بينما اتجه الإسلام إلى تحرير الدول والإنسان ولم يكن الزحف الإسلامى قط استعماراً ولا استعباداً ولا استيلاء على الأرض ، بل كان عدالة مطلقة ، فقد تحررت البلدان الشرقية بالزحف الإسلامى من الاستعباد الرومانى ، وقد امتد هذا التحرر من سوريا إلى أسبانيا وشمال أفريقيا ، وقد كانت تلك البلاد تحت الحكم الإغريقى نحو ألف من السنين منذ زحف الإسكندر المقدونى حتى تحررت فى القرن السادس .

وقال سارتون : لقد شجع الإسلام الفكر الحضارى فى العلوم التجريبية ، فابن النفيس اكتشف الدورة الدموية قبل أن يعرف ميخائيل سرفيت الأسبانى ذلك بمائتين وخمسين عامًا . وقد عرف المسلمون فضل ابن النفيس ، أما سرفيت فقد أحرق علناً فى جنيف عام ١٠٥٣م ، أما التشريح فقد كان فى أوربا ممنوعًا ، ولكن صناعة التشريح بلغت أعظم مدى فى المستشفيات الإسلامية ، وما يقال فى هذا يقال فى أمراض العين ، فقد كان المسلمون فى القرن الثالث قادة العالم فى أمراض العيون .

إن نهضة الغرب لم تبدأ من إيطاليا مع إحياء الثقافة اليونانية والرومانية ، بل بدأت فى أسبانيا مع اتساع العلوم والثقافة العربية الإسلامية ، ولكن النهضة الغربية لم تأخذ من المسلمين إلا المنهج التجريبى والقوانين العلمية ، وتركت الإيمان الذى يوجهها نحو الله ويسخرها لخدمة البشر .

وقد حرم الإسلام وأد البنات ، وعضل المرأة عن الزواج ، وتعدد الأزواج للمرأة الواحدة ، وقرر الميراث للمرأة ، وجعل لها الحق فى اختيار زوجها ، وجعل المهر للمرأة ، وأباح تعدد الزوجات بحدود معقولة فحال بينها وبين التعدد غير المشروع

الذى يسود المجتمعات الغربية .

ويقول أحد المثقفين الغربيين الذين اعتنقوا الإسلام (اسماعيل دمسلوا) لقد أدهشتنى النظم الاجتماعية التى قررها الإسلام ، وعلى الأخص الزكاة وتشريع المواريث وتحريم الزنا وتحريم الحروب العدوانية وفريضة الحج واباحة تعدد الزوجات فى حدود المرسوم ، وشتان بين دين الإسلام وبين دين لا يبيح إلا مبدأ الزواج من واحدة الذى تؤمن به الشعوب الأوربية شكلاً ولكن دون وفاء حقيقى .

* * *

إن تميز الأمة الإسلامية ليس قضية المسلمين وحدهم ولكنها اليوم قضية عالمية يحفزها تطلع إلى مشرق شمس عصر جديد فى ضوء هذه المفاهيم والقيم ، ولعل هذا مما يعيد الثقة إلى نفوس الشباب المسلم ايماناً بدينهم وبالدور الضخم والخطير الذى قام به فى بناء الإنسانية ، وما زال مرجوا لإتمامه بعد أن انحرفت الحضارة الغربية عن الطريق الربانى الأصيل .

* * *

٢٨
التأصيل الإسلامى للعلوم التجريبية والاجتماعية

ان تيار التأصيل الإسلامى قد أصبح من الركائز الأساسية لكل المناهج والعلوم، سواء فى مجال التربية أو النفس أو الأخلاق أو الاجتماع أو فى مجال العلوم التجريبية نفسها ، ويستمد التأصيل الإسلامى قاعدته من مجموعة قيم واضحة الدلالة فى نظام الإسلام نفسه أبرزها :

(١) تكامل القيم وترابطها ، وبخاصة الترابط المادى والمعنوى .

(٢) تقويم مفهوم الإسلام على أن الإنسان مستخلف فى الأرض ، له مسئوليته الفردية والتزامه الأخلاقى .

(٣) الإيمان بالغيب القائم على الاعتراف بالألوهية والنبوة والوحى والجزاء الاخروى .

(٤) الإيمان بالقيم الإنسانية : وهى قيم الرحمة والإخاء الإنسانى والعدل الاجتماعى وسكينة النفس واعطائها أشواقها ومطامحها .

* * *

فإذا نظرنا إلى النظرية الاجتماعية الغربية المطروحة من خلال ما يسمى علم الاجتماع الغربى أو الماركسى نجد أنها تعتمد على :

(١) المحسوس . (٢) الصراع . (٣) الطبيعة . (٤) الانشطارية .

(٥) حيوانية الإنسان . (٦) نسبية الأخلاق . (٧) إنكار الدين جملة .

ومن هنا فهى تختلف مع مفهوم الإسلام اختلافاً جذرياً ، وهذا يستدعى العمل على صياغة النظرية الاجتماعية الإسلامية المتميزة التى تعيد إلى الشباب المسلم هويته الأصلية والأصيلة ولا تفصله فى الوقت نفسه عن العصر الذى يعيش بين معطياته وآثاره ويعنى التأصيل : العودة إلى الأصالة بعد فشل كل التجارب التى

امتدت طويلاً دون أن تحقق الا الخيبة والخسران ؛ لأن الحلول التى استمدت من مفاهيم العلوم الاجتماعية الغربية كانت مصدر اضطراب شديد لمجتمع قائم على قيم تختلف من حيث ربانيتها وتكاملها ومن حيث مفهوم واضح لاستخلاف الإنسان ومسئوليته ، ومن حيث ترابط الفردية والاجتماعية فيه .

ويعنى التأصيل : أسلمة المناهج والقيم جميعاً وقيام منهج معرفى على أساس القرآن والسنة والمفاهيم التى قدمها علماء النفس والاجتماع المسلمين على مدى العصور ، والتى تقوم أساساً على التكامل بين الدين والمجتمع بمفهوم الدين الجامع لشطرى العلاقة بين الإنسان وربه وبين الانسان ومجتمعه .

* * *

وما تزال الجهود تتواصل فى سبيل بناء إطار إسلامية المعرفة ؛ حيث تمضى المسيرة نحو علم اجتماع إسلامى فى اتجاهين (كما يشير إلى ذلك الدكتور محمد كمال إمام) :

الاتجاه الأول : يحاول أن يوجد أصولاً اسلامية تتواءم مع ما وصل إليه هذا العلم ، وأهمية هذا الاتجاه هو التذكير بضرورة إقامة علم اجتماع متميز فى العالم الإسلامى .

الاتجاه الثانى : محاولة إقامة علم اجتماع متميز من خلال النصوص الإسلامية ، وأشير فى هذا الصدد إلى علم الاجتماع الباكستانى المعاصر الذى وضع قواعده (بشارات على) الذى كرس جل أعماله العلمية من خلال صياغة علم اجتماع قرآنى بعد استيعاب متخصص للتطور العالمى فى هذا اللون من المعرفة أو ذاك ثم دراسة شاملة وعميقة لأساسيات الإسلام (التصوف والفقه) .

وقد عرف هذا الباحث :

(١) بسلامة معتقده الدينى وعمق اتصاله بالفكر الإسلامى .

(٢) إدراكه الواسع لكل تيارات علم الاجتماع المعاصر وتلمذته على أعلام هذا العلم فى الغرب ، وقد وضع نموذجاً حياً لعلم الاجتماع فى ضوء القرآن؛

حيث يقرر أن نزول القرآن الكريم كان البداية الحقيقية لوضع نسق فكرى شامل يتعلق بالحقيقة الاجتماعية ؛ لأن القرآن يتضمن أول إطار لتنظيم الحقائق المتصلة بمختلف الظواهر الاجتماعية والثقافية والعقلية باعتبارها كتابات ذوات معنى .

* * *

إن أخطر محاذير الفكر الغربى الاجتماعى والعلمى هو النظرة الغربية للمادة وقوانينها ، والدعوى العريضة الكاذبة بأن العلم خاضع لعوامل ذاتية بحتة تحكمه وتنظمه تلقائياً دون وجود منظم لها ، ومن ثم تنشأ من خلالها النتائج الميكانيكية لحركة الكون والحياة ، أما الفهم الإسلامى للمادة فيختلف؛ حيث يقوم العلم والحضارة فى الإسلام على أساس وجود الخالق المبدع : خالق القوانين الكونية ومحركها وحافظها الذى يمسكها لحظة بعد اخرى .

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ .

﴿ والذي أنزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ﴾ .

﴿ والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ .

﴿ لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ .

يقرر الإسلام :

(١) الارتباط العميق بين الواقع الروحى وبين السعى إلى اكتشاف الوسائل الديناميكية .

(٢) تأكيد ارتباط العلم بالخالق .

(٣) دور الانسان وحركته مع العلم لأداء الدور الذى منح له لكى يمارس خلافته.

***

ومن هنا يجب أن توضع الرؤية الإسلامية موضع التطبيق فى مجال العلم والتعليم والمناهج وتصحيح هذه الوجهة وإخراجها من مادية النظرة الغربية التى تنكر وجود الله تبارك وتعالى وقدرته وإدارة هذا النظام كله ، ولا أمل حقيقى للمسلمين ما لم يصححوا هذه النظرة ويأخذوا بمفهوم الإسلام ، وأن يتم ذلك منذ بدأ التربية لترشيد الأجيال المسلمة ، وحتى الآن يتعرض شباب الإسلام لغزو المفاهيم الغربية التى تقدم لهم باسم العلوم والمدنية الحديثة بحجة أنها حقائق علمية تقوم على أسس موضوعية .

ولابد من أن تسيطر هذه الوجهة الإسلامية على المناهج وتكون بمثابة إطار حقيقى لها ، وأن توجه كل مفاهيم العلم إلى الوجهة الإسلامية من حيث إن الله تبارك وتعالى هو الذى قدم هذه المعطيات العلمية إلى الإنسان ، فإسلامية المعرفة ضرورية وأساس لما بعدها من العلوم التجريبية والعلوم الانسانية .

ومن هنا فإنه لابد من إعادة النظر فى عشرين فرعاً من المناهج الجامعية بما ينسجم مع الرؤية الإسلامية ، ومن قبل نجحت دول كثيرة فى حل هذه المعادلة بأن وضعوا الصيغة الملائمة للمحافظة على الشخصية الذاتية للأمة وحمايتها من الذوبان، وفى مقدمة هؤلاء (اليابان ، الصين ، الاتحاد السوفيتى) وقد نجحت اليابان فى التفوق على الغرب فى المجالات الحيوية والتكنولوجية ، فقد أدرك هؤلاء أن الحضارة ليست امتلاك الآلات وإنما امتلاك الإنسان لشخصية ذاتية فاعلة .

فالمحافظة على الوجود الحى لشخصية الأمة وتخلصيها من الشوائب مقدم على كل شىء ، وقد حسمت قضية ترجمة علوم الطب فى بلاد كثيرة ، وفى فيتنام بالذات ، واليابان تمتلك تكنولوجيا خاصة بها ؛ حتى أصبحت المنافسة الأولى للصناعة الشرقية والغربية على السواء ، وهناك أيضاً تجارب روسيا ، والتجربة اليهودية قائمة على أساس الحفاظ على الذاتية ، وقد أعيد إحياء اللغة العبرية بعد موتها وترجمة العلوم إليها ، ولابد أن يواجه المسلمون خطة تأصيل المعرفة وأسلمتها وإعداد الكتب الإسلامية المنهجية فى مختلف فروع المعرفة ، واللغة مدخل حيوى لامتلاك العلوم ، ويعنى التأصيل (الأسلمة) ، وهى تشمل مختلف المناهج بحيث تنتهى عملية التعريب تماماً .

فصل القول فى قضية تأصيل المعرفة وأسلمة جميع فروعها أنها هى الحل الحضارى لازمة المسلمين الكبرى فى العصر الحديث (وهى أزمة اختراق العقل المسلم والتصور الاسلامى وتحريفهما) وهى ضرورة الضرروات ؛ حيث لا يمكن أن يجتمع الإسلام مع العلمانية الليبرالية أو مع الماركسية فى نمط واحد على النحو الذى يحلم به بعض المتصدرين الذين يجهلون حقيقة الإسلام الذى لا يمكن أن يختلط أو يذوب مهما جرت محاولات الإغراء حول الليبرالية أو القومية أو الاشتراكية فسيظل الإسلام هو السيد والمسيطر ، ولن يستطيع العلمانيون أن يعزلوا الإسلام عن الحياة كما عزلوا المسيحية الغربية عن المجتمع الأوربى وحكموا عليها بالسجن فى الكنائس والأديرة ، ووضعوا لأنفسهم حياة مادية علمانية إلحادية لا صلة لها بالروح أو بالقيم الإنسانية الكبرى.

* * *

٢٩
فلنحذر أخطار الدراما ومنطلقات الفلسفة المادية على مجتمعنا الإسلامى وشبابنا

ما يزال موضوع (الفن والموسيقى والمسرح) هو المنطلق الخطير الذى ينطلق منه النفوذ الغربى فى محاولته الخطيرة لتدمير قيم المجتمعات ودفع الناس وراء الرغبات والأهواء وإخراج المسلمين من مفهومهم الأصيل للترويح السليم الذى يحفظ كيان الأمة ويحول بينها وبين التمزق والانهيار والاندفاع وراء الشهوات

ويرجع هذا كله إلى محاولة إغراق مجتمعنا وفكرنا بمفاهيم العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية التى تقدس الشهوات وتنظر إلى الجنس وإلى اللذات على أنها مصادر لمنطلقات الحياة على النحو الذى رسمه (فرويد) والذى ساد دوائر الأدب والقصة وفرض نفسه على مناهج الدراسة فى الجامعات وفى البلاد الإسلامية على أنه علم ، بينما هو فى حقيقية الأمر فروض ، بعضها يخطئ ، وبعضها يصيب ، وهى فى مجموعها تختلف فى الأساس عن مفاهيم الإسلام للعلوم النفسية والاجتماعية.

وقد جاءت آراء فرويد التى كشف عن ريفها عشرات من علماء النفس الغربيين بمثابة منطلق مشروع يدفع الشباب إلى الخطيئة ومصدر للأدب الفاضح ، ادب الفراش الذى اتسع نطاقه فى مجتمعنا على أيدى توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وغيرهم ، والذى اتسع نطاقه فى المسرحيات والسينما.

الأدب الرخيص ـ أدب الفراش ـ كان مخططاً مدروساً لتخدير الشعوب ومنعها من القدرة على امتلاك إرادتها وبقائها حتى تبقى تحت سيطرة القوى الأجنبية المسيطرة على موارد الأمة الإسلامية ، ولقد كانت فكرة (تدجين الشباب المسلم) وتفريغه من مفاهيم الإسلام وإغراقه فى مفاهيم العرب وخاصة فى مجال النفس والأخلاق من المخططات الأساسية التى كان يطمح النفوذ الأجنبى بفروعه الثلاث (غربية وماركسية ويهودية) إلى احتواء الشباب فيها ، ومن ثم ، تدميره خلقيًّا ؛ حتى لا يكون قادراً على التماسك أمام الأحداث أو المقاومة ، أو حماية الوجود

الحقيقى للأمة ، وقد توالت الأخطار وتنوعت وكان منطلقها هو هذا التحلل من القيم الإسلامية الأساسية ؛ وصولا إلى غزو المخدرات والمارجوانا وغيرها .

وقد صاحب نكسة ١٩٦٧ حملة خطيرة من حملات الأفلام الجنسية الفاضحة والصارخة التى دفع بها النفوذ الأجنبى فى وجه المسلمين والعرب ، مما دفع المنتجين المحلين إلى التسابق فى إخراج أفلام تماثلها .

ولقد أقاموا هذا التيار على مفهوم فلسفى فاسد وخاطئ عندما باعوا لنا فكرة أن التربية المتحررة وعدم الترقب وإطلاق الحريات الفردية فى كل شئون الحياة هو الحل الوحيد والعلمى لمحاربة الفساد وأن الانحلال هو الطريق الطبيعى لتنشئة المواطن الذى لا يعانى من العقد النفسية التى يخلقها الكبت .

وما تزال هذه النظرية قائمة يروج لها خصوم الإسلام ، بينما شبعت فى الغرب نقضاً وتزييفاً ، وجاء نقضها بناء على التجارب التى قام بها الباحثون فى المجتمعات أساساً والتى تبين منها أن كل ما يقال عن أنه مصدر للكبت أو تدمير الشخصية كلام زائف ، وأن أصول التربية كما عرفتها المجتمعات من خلال الحماية والحصانة والتوحيد والرعاية والترغيب والترهيب وهى الاصول الحقيقية لبناء شخصيات صالحة.

كما تبين أن البلاد التى وصلت فيها الحريات الجنسية إلى أقصاها قد دمرت من خلال الانتحار وتفكك الروابط الاسرية .

وهكذا ظل الباحثون يكشفون فساد هذه المخططات التى لم تكن علماً أصيلاً بل كانت محاولات مرسومة لتدمير البشرية ، وقد تبين من الوقائع الثابتة أنه كانت هناك علاقات وترتيبات بين هرتزل وفرويد من أجل رسم خطة تدمير مجتمعات الجويم (غير اليهود) وان هذه الخطة ما زالت تسير فى طريقها ، وقد أكدتها بروتوكولات صهيونى ، وسجلت خطتها ومقرراتها ، ولقد استعلى طابع (الإثارة) على كل الطوابع من خلال الصحافة والثقافة والمسرح والفن والقصة جميعاً فى محاولة خطيرة لتدمير النفس الإنسانية وهدمها وإخراجها من فطرتها .

ومن هنا تعالى طابع (الجنس والجريمة) فى مختلف مجالات القصة والفن، وقذف بالشباب المسلم إلى مهاوى الفساد والتدمير .

وقد جاء (كامى وسارتر) على أثر قرون لنقل المعركة إلى مجال بؤر الليل

وسهرات الأرصفة ، ومضى الرجلان فى أثر فرويد فزللا النفوس للإلحاد والإباحة ، وجاءت سيمون دى بوفوار لتتحدث إلى المرأة فى كسر قيد (حصانة المرأة) وأمانتها والقضاء على كرامتها بأن تقبل المراة أن تعيش مع رجل دون عقد شرعى : حياة الزنا والفاحشة تحت اسم حرية العلاقة أو على سبيل التجربة ، وذلك لتدمير قاعدة (القوامة) التى أقامها الإسلام والدين الحق على حد تعبير هذه السيدة حين تحدثت إلى السيدات المصريات ، ومن ثم ظهرت تلك النعرة المضللة التى تتحدث الآن فى كبرياء كاذب عن حرية المرأة .

ولقد كان لهذه المنطلقات التى رسمها فلاسفة المادة والإلحاد فى الفكر الغربى أثرها العميق فى أفق المجتمع الإسلامى ، فظهرت الوجودية ، وظهر التحلل فى مجتمع المرأة والرجل جميعاً ، وأعان على ذلك قصور القانون الوضعى وموقفه من الربا والزنا والخمور وقصور القانون فى مواد الحدود بما يحول دون قيام الردع إذا ثبت تعدى حدود الله .

وقد جاءت القصة لتصور المرأة (فى المجتمع العصرى) بصورة رديئة ؛ حيث تبدو فى كتابات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وغيرهما على نحو يجعلها تفرط فى عفافها من أجل البحث ، ليس عن الطعام ، ولكن فى البحث عن اللذة المحرمة ، وما فتح الباب دونه من صديق العائلة والبحث عن رجل آخر غير الزوج ، تكون مرافقته فى الحرام مما يرسم للقصة (تلك الحبكه الدرامية) التى لا يمكن أن تتم من خلال مجتمع مسلم مستقيم تحافظ المرأة فيه على حدود الله وترتفع فوق أهواء المرافقة والميل إلى الغريب ، وهو ما دعا الإسلام إليه من حماية البيوت ؛ حيث أمر بالتفرقة بين الرجال والنساء فى المجامع وفى الأندية ، وفى العمل ، وما جاء فى ذلك من وصايا دقيقة تتصل بأدق هذه الأمور ؛ حتى فى كشف المرأة عن جسمها للمرأة الأخرى .

وتظهر المرأة فى قصص هؤلاء الكتاب على نحو المومس الفاضلة أو المرأة المتحررة ، وتقول الدكتورة سهير القلماوى : إن المرأة هى المسئولة عن تلك الصورة التى يرسمها الرجل ، فهى التى غذت الفكرة الخاطئة عند الرجل بأن قيمتها فى شكلها فقط وليس فيما هى عليه .

وكذلك تظهر النماذج النسائية فى كتابات القصاصين بصورة التمرد والاندفاع نحو الغريزة الجنسية .

ومن ناحية أخرى ظهرت كتب متعددة مترجمة ومختارة من الخبثاء لإغراء الشباب بإثارة الغرائز الجنسية ، وهناك ما هو أشد خطراً ، وهو تلخيص هذه الكتب على صفحات الجرائد المؤتمنة على أعراضنا وكراماتنا ، فإذا هى تقدم لبناتنا وأولادنا ـ الذين هم فى سن المراهقة أو دون هذه السن ـ هذا الفن الخبيث ـ وفى غيبة الثقافة الإسلامية والتكوين الخلقى فى البيوت التى أصبح أهلوها تطاردهم الحياة ـ لا لقمة العيش ، ولكنه الصراع على الثروات الحرام من تحت فتات موائد القمار والرقص ولعب الليل ، ويتلقف الشباب هذه القصص دون أن يجد من يوجهه ويكشف له عن أخطارها ، بل لقد أصبحت تقدم لنا الآن حيوات الراقصات والمغنيات على أنها صفحات من البطولة ، فضلاً عن تقديم أسماء (عبد الحليم حافظ ويوسف وهبى ونجيب الريحانى وأم كلثوم) على أنهم أبطال هذه الأمة وثروتها القومية ، فضلاً عن إحياء القصص المكشوف تحت عنوان ما يسمى (رائعة أمين يوسف غراب) وغيره .

إنها محاولة حصار شديدة الخطر على شبابنا المسلم الذى لابد أنه يعى تماماً أبعاد المؤامرة ويتحرر منها ، ويتواصى بألاّ يسقط فى مستنقعها ولست أنسى كُتّابْ المسلسلات وما يبثونه من سموم فى حواراتهم المظلمة التى لا توحى بأى ضوء نحو إيمان أو رحمة أو أمان واحذر من أخطار هذه المسلسلات على الذوق العام وعلى المزاج النفسى للمسلم والمسلمة حين يعيش ليلة بعد ليلة فى ظلمات هذه «الدراما» التى تقوم على الخوف والمكر ، وتتفنن فى خلق أجواء الغدر والحقد المتصل ياويل كُتّاب السناريو من لقاء ربهم ، ولا أنسى كلمة لمخرج مغربى يقول: (نحن نزوّر التاريخ وانتم تدفعون الثمن) .

والقاعدة التى يرسمونها مغلوطة ، ويجب أن تدمر ، وهى ما يسمح به للفنانين من تغيير الحقائق طلباً للدراما أو الحبكة أو الخدعة ، وإذا امتد هذا إلى تاريخ الإسلام والى شخصياته فإن الخطر يكون كبيراً .

وإذا كانت (الدراما) قد أصبحت على هذا النحو الغربى التى لا يتفق مع

روح الإسلام أبداً ـ فإن السؤال هو : ما مدى مصداقية هذه الأعمال بالنسبة للوقائع التاريخية ؟ ما المطلوب من أجل حماية أجيال هذه الأمة المسلمة من الانهيار والتمزق ؟ وما هو المطلوب بناؤه فى ضمائر الشباب من الثقة بعظمة هذه الرسالة وقدرتها على العطاء ، ان كل كتاب الدراما ـ مغربون ـ وكثير منهم يعمدون إلى تقديم ما يهدم الشخصية الإسلامية من داخل دور تجريبى تفترضه بروتوكولات صهيون لهدم الفطرة الإنسانية القائمة على الإيمان والسماحة والخلق والارتفاع فوق الشرور والآثام .

هذه قضية خطيرة تحتاج إلى مزيد من العرض والتبسيط

* * *

٣٠
حماية التراث الاسلامية
من الانصهار فى بوتقة الغرب
هى أخطر ما يواجه الصحوة الإسلامية اليوم

كان السؤال المهم فى ندوة الاعتصام عن تلك المحاولات المتعددة لفرض تصورات خاطئة للقيم والمفاهيم الإسلامية فى محاولة للقضاء على طابع التميز الإسلامى الواضح ، وعلى طمس ذاتية الإسلام الأصيلة ، والحقيقة أن القضية الأولى والكبرى الآن عند كثير من المفكرين المسلمين هى حماية الذاتية الإسلامية من الذوبان فى الأممية وفى مفاهيم الغرب التى تقوم اساساً على الفكر المادى ، وتنطلق من خلال نظريتين أساسيتين : العلمانية والماركسية .

وكلا النظريتين ترميان إلى تفسير الحياة والمجتمعات والتاريخ تفسيراً مادياً صرفاً يتجاهل تماماً قيم العقيدة والوحى والغيب والجزاء الأخروى .

ولما كان التوحيد والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى والإيمان بالوحى والغيب والبعث هو أساس المفهوم الإسلامى فى مختلف مجالاته قاطبة ، سواء فى مفهوم العلوم التجريبية أو العلوم الإنسانية وفى مختلف مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع فإن قبولنا لتلك التفسيرات الخاطئة المطروحة اليوم إنما يرمى إلى القضاء على (تكامل المفهوم الإسلامى) فى مواجهة انشطارية المفهوم الغربى وتجريد المفهوم الإسلامى من أصالته ومن وجهته ومن ارتباطه بالله تبارك وتعالى أساساً ؛ حيث يغيب البعد الربانى عن الفكر الغربى والحضارة الغربية والمجتمعات الغربية ويغيب معه البعد الأخلاقى أيضاً تلك قضية أساسية ومقولة محكمة ، ومن هنا وفى ضوء هذا نستطيع أن نجد أن كثيراً مما يطرح الآن على الساحة وفى أفق الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى يجب رده وكشفه وتوضيح الوجهة الإسلامية منه ، ومن أخطر ذلك مقولة (التجديد الإسلامى) التى يوصف بها لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى ولويس عوض وهيكل والعقاد حيث يحاولون الارتباط

بجمال الدين ومحمد عبده وعبد الحميد بن باديس ومصطفى الرافعي وحسن البنا، والحقيقة أن هؤلاء شيء وهؤلاء شيء مختلف ، فلو قالوا (التجديد الأدبى) لكان في الامر نظر ، فإن هذه المقولة ترددت بمفهوم النقل من أساليب الغرب وترجمة كتاباته ومحاولة تطعيم الادب العربى بمفاهيم مستمدة من النظرية الغربية للنقد وتأريخ الأدب ، وهى نظرية مستمدة من الفكر الداروني ، المادى ، الفرويدى الذى لا يعترف بالإنسان روحاً ومادة ، ولكنه يحاكمه على أنه حيوان ناطق خاضع لغريزتى الجنس والطعام

والواقع الذى تكشف عنه حقائق التاريخ أن بعض هؤلاء اتصلوا بمدرسة الاصلاح التى قادها جمال الدين ومحمد عبده ، ولكنهم سرعان ما انفصلوا عنها وساروا فى وجهة النظرية الليبرالية الغربية

ولا يمكن مطلقاً أن يجمع بين هؤلاء وبين رجال التجديد الإسلامى مفهوم العودة إلى المنابع والتماس الأصالة المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة على النحو الذى دعا إليه رجال الأصولية الإسلامية عبد الحميد بن باديس وحسن البنا والمودودى والندوى ، هؤلاء ورد آخر لا يوصف بكلمة التجديد التى كانت تتردد فى ثلاثينيات القرن العشرين ، والتى كان يطلقها دعاة المدرسة الغربية فى جريدة السياسة الاسبوعية وغيرها ، وحتى فى المرحلة التى كتب فيها العقاد وطه حسين وهيكل عن السيرة النبوية فإن الأمر فى هذا لا يضاف إلى حركة اليقظة الإسلامية؛ لأن القائمين بذلك لم يكونوا يؤمنون بالاسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، وكأنهم كانوا يركبون الموجة ليقدموا مفهوما منحرفا للتاريخ والسيرة ، وقد وجهت إلى كتابات طه حسين وهيكل والعقاد فى السيرة ملاحظات أساسية ورئيسة تكشف عن تحيزها للمفهوم الغربى لكتابة التاريخ من إنكار للمعجزات ، ومن انتقاص للصحابة ، ومن وصف النبى بالعبقرية بدلاً من النبوة ، ومن ظلال كثيرة من الشك حول الوحى والغيب والمعجزات وقد فصلنا ذلك كله فى كتابنا (جيل الرواد والقمم الشوامخ) وفى نقطة أخرى من الشبهات التى تثار نجد محاولة إضفاء مفهوم التوحيد الخالص الذى لم تعرفه البشرية إلا فى الإسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله خاتم رسل الله ﷺ وفى القرآن ـ على مراحل متعددة قديمة

من التاريخ ومحاولة إضفاء مفهوم التوحيد على (إخناتون) مع أن كل المصادر الصحيحة تؤكد أن اخناتون قد وحّد عبادة الأوثان حول قرص الشمس فى وثن واحد ، وكان قومه يعبدون اوثاناً مختلفة .

وفى بعض المسلسلات خلط كثير يضع ما قبل الإسلام فى صورة التوحيد ؛ مما يعنى أن رسالة محمد ﷺ لم تكن ذات هدف واضح ، وقد جاء الإسلام ليصحح تلك المفاهيم التى خلطها رؤساء الأديان بالأساطير ، وربما كان الهدف من تقديم هذه الأطروحات محاولة إثارة ما يسمى وحدة الأديان ، فإذا كانت على النحو الذى هى عليه الآن فإنها تحتاج إلى مراجعة ، ذلك أن وحدة الأديان هى فى الحقيقة وحدة المصدر الربانى ، ولكن الأديان اختلفت بعد ذلك ، وقد شهد يوسف عليه السلام على قومه ﴿ أأرباب متفرقون خيرأم الله الواحد القهار ﴾ وفى عهد موسى كان الناس يعبدون الفرعون ، وكل ذلك يؤكد الحقيقة الأساسية وهى أن الإسلام هو الذى أعاد الناس مرة أخرى إلى عقيدة التوحيد الخالص بعد أن حرفها أهل الأديان السابقة ولم يحفظ أهلها ما استحفظوا عليه.

* * *

ومما يثار أيضاً تلك الدعاوى الباطلة التى يرددها بعض خصوم الإسلام حين يصفون الصحوة الإسلامية بأنها:(الانسحاب من العصر والارتداد)وهم حين يطلقون هذه الكلمات يظنون أنها تخيف الناس كدعاوى الرجعية والتزمت والجمود وكلمات السلفية والتراثية وغيرها،ولكن الواقع أن ذلك كله لم يعد يواجه إلا بابتسامة السخرية؛حيث كان يظن هؤلاء أن هذه الأمة قد استنامت إلى البرامج التى فرضت عليها والمناهج التغريبية التى بثت فيها، أو الدعوات الهدامة التى قدمها دعاة الماسونية والشيوعية والبهائية وغيرها من كُتّاب الباطنية والزنادقة والشعوبين،كما حاولت بعض الدوائر وصفه بأنها علوم،وهى لم تزد عن أن تكون نظريات فلسفية وفروض ثبت بطلانها،وتكشف فسادها،بدءاً من نظرية دارون إلى نظرية فرويد ونظرية سارتر ونظرية ماركس ونظرية دوركايم،فضلاً عن الغرب نفسه الذى أعلن

إفلاس هذه المناهج وفشلها فى التطبيق فى البيئة التى أصدرتها ، وإذا كان أمثال هؤلاء قد أتيحت لهم الفرصة لأن يطلقوا هذه الكلمات ، سواء عن طريق صحف واسعة الانتشار، أو عن طريق إذاعات ، فإنها لم تعد تخدع احداً ، وليست العودة إلى المنابع والتماس الاصالة ، هو اتجاه قوة وايمان وثقة بالنفس ، مما يمكن أن يطلق عليه (انسحاب من العصر) وأن روح الأمة أعظم من روح العصر ، وأن هذه الأمة تؤمن اليوم بأن أخطر ما يهمها هو تأكيد ذاتيتها الإسلامية ووجودها الخاص ، وليس فى هذا ما يسمى بالانسحاب والارتداد ، ولقد كانت رسالة الإسلام دائماً فى كل العصور والبيئات هو بغية المجتمعات والحضارات ؛ لكى توائم بين وجودها وبين تعاليم الإسلام وقيمه وضوابطه وحدوده ، ومن هنا فليس المطلوب أن يحل الجديد محل القديم أو الحاضر محل الماضى ، ولكن المطلوب فى كل الأمم والحضارات أن يتكامل الماضى مع الحاضر والأصالة مع المعاصرة .

إن هؤلاء القوم يعملون على تدمير مقومات هذه الأمة ليفرضوا مفهوم العلمانية أو الماركسية وكلاهما أصبح مرفوضاً فى أفق الأمة الإسلامية بعد التجارب المبهرة التى كشفت عن زيف الدعوتين .

وبعد فإن هناك مفاهيم زائفة تطرح اليوم من قوى متعددة تحاول ان تهدم مقومات هذه الأمة ، وعلينا ان نكون على وعى دائم بها لنردها وندحض شبهاتها ونكشف عن أفق الإسلام المشرق المضىء الذى تتطلع إليه البشرية كلها اليوم منقذا لها من الاحتواء والحصار والانصهار فى بوتقه الأممية العالمية للحضارة على طريق الأفول والانهيار .

* * *

٣١
مؤامرة حول قضية الغزو والتغريب

من الظواهر الخطيرة فى مواجهتنا مع الفكر الغربى فى هذه المرحلة توسع نطاق عمليات الغزو والتغريب فى مقابل تنامى الصحوة الإسلامية ، لقد واجه رجال حركة اليقظة الإسلامية هذه المؤامرة منذ اليوم الأول لظهورها وتابعوها وكشفوا شبهاتها وصححوا مفاهيمها ، وقد توالت الدراسات والأبحاث خلال أكثر من خمسة عقود منذ ظهرت علاماتها الواضحة .

ويمكن أن يقال : إن مؤامرة تغريب الإسلام (منهجه وشريعته ولغته) هى قضية قديمة متصلة وانها هى الطور الثانى لحرب الكلمة التى بدأت بعد هزيمة الحروب الصليبية ؛ وحيث اتجه الغرب إلى تشويه مفهوم الإسلام وتزييف قيمه على مراحل متعددة ، من خلال مخططات الاستشراق الغربى والماركسى واليهودى، ومن خلال مؤسسة التبشير الخطيرة التى تعمل فى مجال التنصير واخراج المسلمين من دينهم ، ومن خلال محاولات سميت باسم الحوار والتبادل الثقافى وتحت بريق كلمات التقدمية والعصرية والتحديث فى محاولة لتدمير مقومات قيم الإسلام وثوابته عن طريق العلمانية والوجودية والماركسية والفرويدية والفلسفة النسبية لاجتياح قاعدة رصيدية اساسية وحصن ثابت لا يريم من حصون الإسلام هو « ثوابت الإسلام » التى قام عليها نظامه ، والتى تتمثل فى القيم الاساسية والضوابط والحدود التى رسمها والتى جاء الإسلام ليرسم خطة التغيير والتطور والتحول من داخلها دون المساس بمقوماتها الأساسية ؛ هذه هى القلعة التى ترمى الآن بالسهام المسمومة من كل مكان من أجل النيل منها ؛ ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن حركة اليقظة استطاعت أن تحقق عديدا من الإيجابيات والخطوات المدعمة التى يمكن أن تمثل ثوابت حقيقية للصحوة الإسلامية .

أولى الخطوات المهمة : هى « الوعى » ، تلك الظاهرة الواضحة فى محيط الشباب المسلم المثقف ، من حيث إنه أصبح يؤمن بأن هناك مؤامرة يخطط لها

النفوذ الأجنبى ترمى إلى عزل المسلمين عن أصالتهم ومنابعهم وتقديم مفاهيم مغربة تحاول أن تصوغ الإسلام فى قوالب غربية ووثنية وعلمانية .

ولعل هذا هو حصيلة العمل فى المرحلة السابقة خلال القرن الرابع عشر ، فقد تكشف للشباب المسلم خطة التغريب والغزو الثقافى ، وفهم بوضوح مخطط الاستشراق الذى هو فى الحقيقة مصنع الشبهات ، ومخطط التبشير الذى يحمل هذه الشبهات إلى عقول الشباب من خلال التعليم والثقافة والمسرح ووسائل التسلية والترفيه .

ثانيها : تبين بوضوح اليوم أن هذه المحاولات المتجددة فى الحملة على الإسلام وشريعته وتاريخه وعن اللغة العربية ما هى إلا إعادة صياغة لنفس الشبهات القديمة منذ بداها كرومر ودنلوب وزويمر ، يجرى إعادتها فى قوالب جديدة بدعوى أن الأجيال الجديدة لم تطلع على الحقائق التى قدمها رجال اليقظة فى دحض تلك الشبهات.

ثالثها : هناك تركيز شديد على التاريخ الإسلامى بهدف إطفاء نوره ، ولقد كان التاريخ فى كل أمة هو مصدر انبعاث نهضتها ، وموئل ثقة الأجيال الجديدة فى بطولات أمتها واستعلان الدور الذى قامت به هذه الأجيال .

رابعها : تأكد للباحثين فى الإسلام والحضارة الغربية حقيقة أساسية هى عجز الحضارة الغربية والأيدلوجيات المطروحة عن العطاء الحقيقى لنفس أمم الغرب ، مما دعا هذه الأمم إلى المطالبة بمنهج اقتصادى واجتماعى جديد يختلف عن الرأسمالية والاشتراكية .

كما تأكد لهؤلاء المفكرين الغربيين الذين أرسوا ما وصلت اليه الحضارة الغربية من انحلال وفساد ، ان الإسلام ـ والإسلام وحده ـ هو القادر اليوم على إنقاذ البشرية .

ولقد امتدت قضية سقوط الحضارة وهزيمتها منذ كتابات شبنجلر فى الثلاثينات وفى كتابات عشرات من كتاب الغرب من بعده .

خامسها : تبين أن الحملة المقامة على الإسلام إنما ترمى فى الحقيقة إلى حجب الإسلام عن المتطلعين إليه فى المحيط العالمى ، الذين فقدوا أملهم فى

الأيدلوجيات الغربية ، ومن هنا تجرى محاولة تزييف مفهوم الإسلام بإقامة الديمقراطية ، و الاشتراكية ، أو العلمانية ، في نفس الوقت الذى تميز الإسلام بطابعه الخاص المفرد .

سادسها : أن محاولة التغريب ترمى اليوم ـ ومن خلال المراحل المتعددة ـ إلى القضاء على الذاتية الإسلامية وحجب المنابع الإسلامية وتحطيم طريق الأصالة ، فى محاولة لوضع قضية التقدم فى مقابل قضية حماية الذاتية الإسلامية التى كانت على مدى العصور هى التحدى الحقيقى الذى واجه المسلمين ايماناً بأن لهم شخصية قرآنية خاصة لا يجوز أن تنصهر أو تحتوى أو تحاصر ، لأن لها رسالتها الحقيقية فى تبليغ الإسلام للعالمين بعد بناء المجتمع الإسلامى فى أرضها .

سابعها : أعتقد أننا فى مطالع القرن الخامس عشر الهجرى قد تقدمنا خطوة نحو بناء المنهج الإسلامى ـ بعد أن توقفنا خلال القرن الماضى عند عملية الدفاع عن الشبهات المثارة ، وأننا نجد الآن أن محاولات تأصيل المناهج قد بدأت فعلاً ، وهى التى يطلق عليها اسم الأسلمة فى ميدان الاجتماع والأخلاق والاقتصاد والأدب .

وأعتقد أننا فى أشد الحاجة إلى التركيز على تأصيل العلوم الإنسانية والاجتماعية حتى يمكننا أن نتحرر من مذاهب دارون وفرويد وماركس ودوركايم وسارتر ، وهى المناهج المفروضة الآن على مناهجنا .

ثامنها : كذلك نحن فى حاجة إلى توحيد الجهود نحو تحرير (دائرة المعارف الإسلامية) من الشبهات الغارقة فيها والتى أقلها خطراً أن جميع النحل المعارضة للإسلام تدخل فى هذه الدائرة على أنها مواد إسلامية ، وقد جرت محاولات كثيرة فى هذا الصدد ، أهمها محاولة جامعة البنجاب التى حررت المواد الإسلامية من التبعية وكتبتها بمفهوم إسلامى أصيل من جديد .

تاسعها : أما العمل الثالث الذى نحتاج إليه تماما هو تقديم المناهج العلمية والمدرسية والجامعية بمقدمات توضح دور المسلمين الأول والأصيل والسابق فى بناء مناهج الرياضيات والعلوم والفلك وعلوم الاجتماع والنفس وغيرها ؛ حتى يتبين لأبنائنا فى الجامعات أن لحضارتنا دوراً اساسياً فى بناء المنهج العلمى التجريبى

الذى تقوم عليه الحضارة المعاصرة .

عاشرها : لقد استطاعت حركة اليقظة الإسلامية أن تصحح كثيراً من المفاهيم الأساسية ، سواء بالنسبة للعقيدة أو التاريخ أو الشريعة ، وأن تقضى على مؤامرة الصمت التى ظلت تتجاهل عطاء الإسلام للحضارة العالمية وقتاً طويلاً ، كما أنها صححت الموقف بالنسبة للدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ، كما كشفت عجز المناهج والأيدلوجيات الغربية عن العطاء ، ووضعت زعماء العلمانية فى قفص الاتهام ، وبذلك أفسحت الطريق أمام الحقائق الأساسية وأمام العودة إلى المنابع الأصيلة ،كما كشفت عن نظرية الانقطاع الحضارى بين ما قبل الإسلام وما بعده ، وأوضحت عالمية الإسلام وحاجة البشرية إليه كمنقذ وحيد لها من السقوط فى هوة الطوفان ، هذا وبالله التوفيق .

* * *

٣٢
الإسلام يدعو إلي بناء العقل المؤمن

تتركز محاولة (التغريب) فى العمل على هدم مقومات المنهج الإسلامى الربانى الجامع : أمل البشرية وأغرودة الإنسانية ونور عين الوجود كله ؛ حيث يجرى العمل من خلال قناتين خطيرتين :

الأولى : الفصل بين موقعنا المعاصر وبين الوجود الإسلامى منذ بزوغ ضوء الإسلام ، فى محاولة لتشويه هذا المنهج،وهذا التاريخ جميعا والدعوة إلى احتقار الماضى والسخرية من التراث ، والعمل التغريبى الدائب فى إعادة تصوير هذا المنهج، وهذا التاريخ ، وهذا التراث بصورة زائفة مفرغة من اضوائه وروحه وعطائه الباذخ الفياض ، وذلك عن طريق فرض مناهج مادية وعلمانية لتفسيره ومحاولة وضعه تحت ضوء مادى علمانى يتنكر اساسا للروح وللغيب وللقيم الخلقية وللعطاء الإلهى وإبدال ذلك بمفاهيم مضللة فاسدة .

ومحاولة فرض هذه المفاهيم التى هى ليست فى الحقيقة إلا فروض عقول بشرية ، لها ظروفها وأوضاع مجتمعاتها ولها معركتها مع الدين فى الغرب بما لا يمكن أن يكون حقيقة علمية أو قيمة مستقلة منفصلة عن التحدى الذى ظهرت فيه .

الثانية : إعلاء شأن مجموعة من الفلاسفة الواغلين فى الأهواء والكراهية للإسلام والحقد على الرسالة الخاتمة وعلى القرآن الكريم ، مع أن هؤلاء الفلاسفة عندما تعرض حياتهم فرداً فرداً تتكشف عن الضعف البشرى بمختلف صور فساده العقلى والخلقى ، ويظهر مدى عجز هذه الشخصيات عن الإنصاف والتقدير للدور الخطير الذى قدمه الإسلام بمنهاجه : التجريبى ،والتاريخى الخاص لقيام الأمم والحضارات ، ومنهج المعرفة ذى الجناحين ، ومن هنا نرى أن الخطة التى يجرى تنفيذها فى خفاء ومن وراء النصوص فى مجالات (الصحافة والتعليم والثقافة) ترمى إلى :

(أولاً) تدمير نوابغ الفكر الإسلامى وإثارة الشبهات حولهم وإعلاء شأن

كتاب الغرب .

(ثانياً) خلق روح الانبهار ببريق الغرب وحضارته البراقة الزائفة .

(ثالثاً) الفصل بين واقعنا الحاضر وبين الماضى والتاريخ والتراث وإثارة عوامل ترمى إلى الغض من شأنها .

يظهر هذا واضحاً فى تلك الادعاءات التى تتردد من خلال كتابات جماعات المغربين ، وبخاصة من كان منهم فى صفوف الماركسيين والشيوعيين ، ثم انصرف عنها ليحمل راية هدم التراث الفكرى الإسلامى بدعاوى عريضة على النحو الذى نراه فى كتابات حسين أحمد أمين وفرج فودة والغروى وشرابى وعابد الجابرى ، وفؤاد زكريا ، وهى محاولة جديدة لكسب ثقة القوى الظاهرة على الساحة الإسلامية بادعاء أصحاب الأقلام أنهم يعملون فى حقل الاسلام خداعاً وتضليلاً **﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدروهم أكبر ﴾** وهم يمررون الكرة بينهم حتى لا تصل إلى أيدى أصحاب الاصالة فى مكر عجيب وخبث شديد .

ويجرى القول حول تشكيل ما يسمونه العقل النقدى ، أى بناء منهج الشك الفلسفى فى نفوس الشباب ووجدانهم ؛ حتى يشكوا فى كل شىء ، وينقموا على كل شىء ، ظناً منهم أنهم بذلك سيتحقق لهم خروج جيل ناقم على الإسلام متذرع بمفهوم الحس رافض لما وراء الطبيعة ، وعند ذلك يكونون قد حققوا غايتهم باسقاط الإسلام والوحى والغيب والآخرة والحساب والعقاب ، ولا ريب ان الفكرة الداعية إلى إنشاء العقل النقدى هى فكرة خاسرة مضللة ؛ لأنها لا يمكن أن تقوم أبداً فى قلب الصحوة الإسلامية .

ان فكرة العقل النقدى دعوى قديمة حاول طه حسين الدفاع عنها ، ولكنها تحطمت بين يديه ؛ لأن المسلمين والعرب لا يعرفون الا عقلاً واحداً هو العقل الإسلامى الذى ارتبط بالوجدان الإسلامى وتشكل من خلال التوحيد الخالص ، دون أن يتمزق كما يريدون إلى عقل ووجدان **﴿ لهم قلوب يعقلون بها ﴾** حسبما جاء فى الآية الكريمة :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ .

ومن ذا الذى يستطيع أن يفرض على الأمة الإسلامية مفهوماً مغرباً صكه المغربون ليفسدوا أصالة الفكر الإسلامى وثقافته وكم وضعت قبل ذلك خطط ومصطلحات طرحها العلمانيون ليخدعوا بها الناس ، ثم تبين فسادها ، وسقطت ، وسقط معها دعاتها ، إن عيب هؤلاء أنهم لا يعلمون أن الفكر الإسلامى قام على أساس محكم من علم الله تبارك وتعالى ، وأنه منسجم مع حركة الكون نفسه ، لا يمكن تحويله أو تزييفه أو احتواؤه أو صهره فى بوتقة فكر وثنى مادى تشكل من فتات فلسفات الرومان واليونان والمجوس والهلينية والغنوص .

إن محاولة قطع الخيط بين الفكر الإسلامى المعاصر وبين القرآن إنما تعنى سقوط الفكر الغربى نفسه وانهياره بعد أن وصل إلى تلك المراحل التى يمر بها من الغربة والتمزق والعبث والدمار ، ولو رجع هؤلاء المثقفون إلى تجارب العمالقة من مفكرى الغرب لوجدوا الجواب الصحيح ، لوجدوا أن (الانتحار) هو النهاية الحتمية لتجربتهم ، وليقرأ إخوتنا ماكتبه فى هذا الصدد الدكتور رشدى فكار الذى عايش هؤلاء القوم فى ديارهم وجرت التجارب على يديه.

إن الإسلام وفكره يستطيع أن يقدم للمسلمين والعرب اليوم ما هو خير من منهج العقل النقدى ، إنه قادر على ان يقدم منهج العقل المؤمن القادر على قبول كل ما يتفق مع التوحيد والعدل والإخاء البشرى وما يضىء طريق الحياة أمام الأجيال لتعرف طريقها إلى الله تبارك وتعالى لبناء المجتمع الربانى بعيداً عن الزيف والوحل ، هذا العقل المؤمن يكشف فى ضوء القرآن تلك السموم الناقعات التى يطرحها اليوم الفكر الغربى (ليبرالياً وماركسياً وصهيونياً) فى أفق الإسلام من أجل حصاره واحتوائه ، ومن أجل القضاء على قواعد أساسية فيه هى : (الخصوصية ، الذاتية ، التوازن ، التكامل ، النظرة الجامعة) .

لقد ربى الإسلام المسلم من خلال تلك الرسالة التى كلف المسلمون بتبليغها إلى العالمين ، فهم حريصون أشد الحرص (من خلال نقد الفكر البشرى الوثنى المادى الذى تغرق فيه القارات الخمس اليوم) فى الكشف عن أصالة الفكر الإسلامى الربانى الذى تتطلع اليه الإنسانية فى سعيها إلى الخيرية الحقة ، وبخاصة

بعد أن تهاوت نظريات الديمقراطية والقومية والاشتراكية والوجودية وأصبحت أثراً بعد عين إن أسلمة الثقافة العربية (وأسلمة كل الثقافات التركية والفارسية والهندية) هي مسألة ضرورية وأساسية لإعداد المجتمع الإسلامي للقدرة على امتلاك إرادته ، وهي اشد ضرورة اليوم في وجه هذا المخطط الذي تحيكه مجموعة من العلمانيين الماركسين بعد أن تعانقت الماركسية والعلمانية لتقف في وجه الصحوة الإسلامية ، وهم يتبادلون الكرة الآن ويمررونها فيما بينهم بهدف حصار الفكرة الإسلامية ومصادرتها وتدميرها ، وحتى لا يتهموا بأنهم ماركسيون أو علمانيون فهم في خط جديد يحاول أن يصور نفسه على أنه طليعة مستنيرة ، ونحن نعرف ان التنوير في معناه الحقيقي - عندهم - يعني إنكار الغيب ، ونعرف أيضاً أن عصر التنوير في أوربا كان دعوة إلى الإلحاد ؛ ولذلك فنحن نرد إليهم مصطلحهم، ولا نقبل التعامل به .

ويجب أن نكون على حذر من العلوم الإنسانية (الوافدة) فهي تقوم في مجالات النفس والأخلاق والاجتماع والتاريخ والاقتصاد على تجاهل الركيزتين الأساسيتن للفكر الإسلامي، وهما الربانية والأخلاقية؛ حيث تقوم على إنكار الغيب والنبوة والوحي والجزاء الأخروي ، وقد بدأ التحول بنظرية دارون ، وجاء بالتطور المطلق (سبنسر وهيجل) وجاءت الفرويديه والليبرالية والوجودية والاشتراكية على نحو واضح يستمد قاعدته من أن الإنسان حيوان، وأن لا إله، والحياة مادة، ويعتمد على التفسير المادي للتاريخ وقاعدة النسبية الأخلاقية وإطلاق الإباحيات، وما العلمانية والعقلانية إلا إنكار للغيب وإنكار لوجود الله تبارك وتعالى، هذه هي قاعدة الفكر الغربي التي تدعونا إلى ان نبني عليها توفيقيتها المضللة حين تنادي بالأخذ من الغرب مع الاحتفاظ بالهوية العربية المصرية (دون أن تذكر الإسلام) ونحن نسأل أصحاب الفكر العربي: ماهي الثقافة الغربية؟ أليست هي فرويد وماركس وسارتر ودارون، وهذه المجموعة من المفاهيم التي تنكر الألوهية والغيب والنبوة، فكيف يمكن أن يمتزجا، ولو أننا أخذنا العلم التجريبي لنصهره في بوتقة فكرنا الأصيل الذي أوفى على خمسة عشر قرناً من السمو والعطاء لكنّا نقبل ذلك، ولكنهم يتنكروا لمفاتيح الامور والغيب ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾وهم أشد تنكراً

للانحراف والفساد والإباحية التى تمر بها الحضارة الغربية كأنهم لا يرونها ، فهل تراهم يقبلونها كما دعا اليها سلفهم طه حسين من قبل ، حين قال : (نقبل الحضارة الغربية حلوها ومرها وخيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب) .

إن مرحلة الصحوة تختلف تماماً عن المراحل التى مضت ، والتى استطاع فيها عتاة المغربين أن يخدعوا الناس ، أما اليوم فقد عرف المثقفون المسلمون أبعاد مؤامرة التغريب والغزو الثقافى ، وظهر العمالقة الجدد فى ثوب الأقزام ، ولم يجدوا ما يقولونه غير أن يرددوا ما قاله كرومر ودنلوب وزويمر وما دحضه الأبرار من قادة اليقظة الإسلامية وكشفوا زيفه ، حين قامت قاعدة بناء العقل الإسلامى المؤمن .

* * *

٣٣
قدرة المجتمع الإسلامي على التقدم في إطار ضوابطه الأخلاقية

ماذا يتطلب نمو المجتمع وهدمه واستمرار حركته حتى لا يقع فى أزمة التخلف والجمود ، هل هو يتطلب التخلص من كل مقومات الثبات فى المجتمعات وإطلاق الحركة الحرة التى لا ترتبط بأى ضوابط أو نظم والتى ترى أن الأخلاق والقيم تتغير بتغير البيئات أو تتطور بتطور المجتمعات بحيث لا يتقيد المجتمع بأى قيد مهما كان وان تحرك المجتمع من خلال ثوابت من الدين والأخلاق من شأنه ان يعيق حركته ويحول بينه وبين التقدم أو يجعله يتخلف عن ركب الحضارة ؟

هذه هى الصورة التى يضعها بعض الفلاسفة والمفكرين المغربين اليوم أمامنا لتحذيرنا من خطر الجمود والتخلف فى دعوة عاصفة لأن ننطلق دون قيود .

ونحن فى كل أمورنا نسأل الإسلام رأيه فيما يعرض علينا ، ونعرف أن إجابته المحكمة هى الهدى والضوء الكاشف الذى يحمى مجتمعنا من التمزق والأنهيار ، ونحن نرى أن الغرب فى انطلاقه نحو التغير الدائم والتطور المتصل وحجب جوانب القيم والأخلاق عن حركته إنما يدفعه إلى هاوية لا يحس بها الآن ، ولكنها تقترب منه رويداً رويداً .

ونعــرف أن انطلاقته تصدر عن فساد فى تركيب منظومته الفكرية والاجتماعية والحضارية أساساً ، وهى ما يدعو بعض كتاب الغرب اليوم إلى إعادة النظر فيها نتيجة للانهيارات الضخمة والتجاوزات الخطيرة التى يواجهها مجتمع الحضارة الغربية فى مجالات التعامل والأخلاق وعلاقات الرجل والمرأة والآباء والأبناء .

وحين نرى مأساة الغرب نذكر كيف أن أبرز معالم المجتمع الاسلامى هى من صنع الإسلام ، نشأت بنشأته وتكونت بتكوينه ، وأنه بنىَ منذ اللحظة الأولى على الإيمان بالله وتحقيق إرادة الخالق فى إقامة المجمتع الربانى ، وأن الإنسان مستخلف

فى الأرض للسعى والتعمير من خلال مسئوليته الفردية والتزامه الأخلاقى وإيمانه بالبعث والجزاء ، فضلاً عن إيمانه بالغيب والنبوة والوحى .

إن الإسلام دعا إلى بناء الفرد أولاً ، ثم شكل منه الجماعة ، دون أن يفقد الفرد ذاتيته ، وإنما كان دائماً يتسامى ، فينتقل من الأنانية إلى الغيرية ، ومن تحقيق مطامعه الخاصة إلى رعاية الجماعة ، فالإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه سيد الكون تحت حكم الله ، وأن الرجل والمرأة متساويان فى الحقوق ، وللرجال على النساء درجة ، ومن الرجل والمرأة تتكون الأسرة التى هى البناء الاجتماعى الحقيقى على اساس التكامل والتعاون ، وتمتد إلى البذل والرحمة والانفاق والتضحية ، وبذلك يمثل الإسلام طرازاً فريداً من التعاطف الانسانى حيث يقوم المجتمع الإسلامى على أمرين أساسين :

الأول : التعادل بين جانبى الفرد (الروح والمادة)

الثانى : التوازن بين الفرد والمجتمع .

فالفرد يتكون من جانبين متقابلين أو متنازعين ؛ يتكون من الإيمان الذى يوحى إليه بالاعتدال ومن الهوى الذى يدفعه إلى التطرف ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ ويتكون من وجدان وعقل ، ومن روح وجسم ، كل منهما يتجه إلى مصدره : الروح إلى الملأ الأعلى ، والجسم إلى الأرض ، والإسلام يدعو إلى الارتفاع والتسامى ويدعو إلى التوفيق بين شطرى الانسان والانتقال إلى دائرة خدمة الجماعة ويصل إلى درجة البذل والتضحية والفداء بالنفس والمال فى سبيل حماية الفكرة .

والإسلام يقر طبيعية الإنسان على حقيقتها (مادية وروحية) . وبذا لا يحول بينه وبين رغائبه من متاع الحياة المادى ، ولكنه يحوط ذلك بضوابط تجعله أقرب إلى الاعتدال وابعد عن الاعتداء على حقوق الآخرين ، ثم يدعو الإسلام الرجل المسلم إلى إقامة الأسرة كمنطلق لاكتمال دينه من حيث تنظيم رغائبه وغاياته عن الطريق الصحيح ، فإذا أقامها دعاه إلى إقامة التوازن بين الأسرة الصغرى والأسرة الكبرى ﴿ **وبالوالدين إحسانا وبذي القربى** ﴾ ويدعوه إلى الانفاق والإحسان إلى الأهل والجار وإلى اليتامى والمساكين وكل من يتصل به من معين أو خادم .

وفى هذا كله يحرك الإسلام المجتمع من خلال ثوابت من الدين والأخلاق

وضوابط من القيم ، بحيث يعطى حركة المجتمع إيقاعاً متميزاً كريماً ، وهذه المقررات الثابتة لا يمكن أن تعيق حركة المجتمع ولا تحول دون تقدمه ، بل تحميه من التمزق والاضطراب والانهيار .

أما العوامل التى تعيق حركة التقدم فى المجتمع من أعراف وتقاليد والتى تنشأ نتيجة لاضطراب المجتمعات نفسها فإن الإسلام يدعو إلى التخلص منها وتجاوزها ، وفى مقدمتها عوامل الترف والانحلال وانهيار الأسرة وغلبة الشهوات والمطامع ، كل هذه الأشياء يحاربها الإسلام ويقاومها فى سبيل بقاء المجتمع كله نقياً طاهراً فى مجال الحركة والقدرة على العمل والكسب وحماية المجتمع من الانهيار تحت تأثير الخمر والبغاء والصراع الداخلى .

ولقد كانت المجتمعات الإسلامية (حين تتمسك بنظامها الربانى) قادرة دائماً على التحرر من أخطار الانحراف والعودة مرة أخرى إلى المنابع إذا ادلهمت الخطوب وأظلمت الطرق .

وكذلك فإن الإسلام لا يقبل التضحية بالضوابط والحدود التى أقامها لحماية المجتمع وتحصينه من خطر الانهيار أو التفكك ، فلا يقبل التضحية بذلك من أجل مفهوم التقدم الغربى أو الماركسى المطلق الذى يضحى بكل القيم فى سبيل الوصول إليه .

ونحن فى هذا المجال لا نقبل النظرية الغربية فى نسبية الأخلاق ولا تطور المجتمع المطلق ولا تغيير ثوابت الأخلاق بتغير المجتمعات أو العصور ، ونرى انها من العوامل الاساسية فى انهيار المجتمع الغربى وفساده واضطرابه .

والمسلمون لا يضحون بسلامة ذاتيتهم الإسلامية القرآنية فى ضوابطها وأوضاعها التى قررها الإسلام فى سبيل الوصول إلى أى عطاء مادى مهما بلغ ، وعندما يكون هناك تفاضل بين التقدم المادى ، فإن المسلمين يرفضون تسليم قيمهم نظير عطاء مادى حيث إنه لا قيمة لهذا العطاء المادى بجوار القيم .

هذا مع العلم بأن التقدم الجامع فى مفهوم الإسلام الذى يراوح بين الروح والمادة لا يتطلب التضحية بالقيم أو بتجاوز الضوابط والحدود .

ولقد كان المسلمون دائماً قادرين ـ خلال ألف سنة من حضارتهم المزدهرة ـ

على الجمع بين التقدم المادى والمحافظة على القيم ، وكانت حركة المجتمع النابضة بكل عناصر القوة والحياة تتحرك فى دائرة الثوابت الإسلامية التى لم تحل يوما ما دون نهضة أو تقدم .

وإن ما يدعونا إليه التغريبيون زيف مضلل ، ونحن نعرف أنهم يكذبون على هذه الأمة ولا ينصحونها بالحق .

* * *

٣٤
كيف نحاور العلمانيين بعيدًا عن التمويه والزيف ؟

إن محاولات دعاة التغريب لجر الباحثين الإسلاميين إلى نقاش يجب ان يواجه بحذر شديد وحيطة كاملة ؛ للفوارق البعيدة بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى ، ويجب ألا يقدم الباحث الإسلامى على دخول هذه الحلبة إلا وهو واع تماماً بأبعاد المؤامرة ومعرفة الخطط التى يرتبها التغريب لرجاله لإيقاع كُتَّاب الإسلام فى الشرك، فلا يستطيعون إحراز النصر بإحقاق الحق ، بينما هو بيِّنٌ واضح كفلق الصبح . ونحن فى الأساس فى حاجة إلى ان نعرف أن التيارات القومية والاشتراكية والعلمانية لا تنطلق من منطلق نزيه ، ولا ترغب فى الوصول إلى الحق، وإنما هى تنطلق من مسلمة مسبقة ويبحثون عن النصوص التى تؤيدها ويستغلون أسلوب البريق والكلمات اللامعة وأسلوب المغالبة الماكر الساخر الممتلئ بالحقد لخداع البسطاء الذين لا يعرفون بعض الزوايا الأساسية ؛ وهذه بعض الأضواء الكاشفة:

أولاً : الإسلام فوق كل المناهج والأيدلوجيات البشرية ؛ حيث إنه ربانى المصدر ، سواء فى مجال السياسة والاقتصاد (كالماركسية والراسمالية) أو فى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية (النفس والأخلاق والاجتماع) ؛ لأنه وضع من قبل الحق تبارك وتعالى فى إحكام شديد ، وبأبعاد واسعة قادرة على مقابلة متغيرات الأزمنة والبيئات .

ثانياً : تكامل مفهوم الإسلام فى بيان العلاقتين بين الانسان وربه ، وبين الانسان ومجتمعه ، فليس الإسلام ديناً لاهوتياً مقصوراً على العبادة ، ولكنه منهج جامع .

ثالثا : تكامل القيم : الروح والمادة والعقل والقلب والعلم والدين والدنيا والآخرة .

رابعاً : أن الاشتراكية ليست هى العدل الاجتماعى الذى قدمه الإسلام ، وأن الديمقراطية ليست هى الشورى الإسلامية ، ومن الجائز أن يكون بينهما تقارب

وتشابه ، ولكن أين من أين ؛ أين المنهج البشرى من المنهج الربانى ؟ وقد عجز المنهج البشرى عن مواجهة المتغيرات ، وقصر عن مطاولة العصور ، واحتاج إلى الإضافة والحذف .

خامساً : تكامل الوطنية والقومية فى دائرة الإسلام ، حلقات ثلاث تتكامل ويسلم بعضها إلى بعض وفق مفهوم (التعارف) ورفض مفهوم القومية الغربى والوافد المفرغ من التكامل بمعنى أن الإسلام يجمع بين الدفاع عن الأرض وعن الوجود القومى فى ضوء الإسلام وتحت مظلته فى إخاء مع القوميات الأخرى .

سادساً : هناك وضوح كامل بالنسبة للفوارق العميقة بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى ، وبخاصة فى مفهوم العقيدة الإسلامية الجامعة ، وتكامل القيم فى دائرة الفكر الإسلامى .

فقد قام الفكر الغربى فى دائرة المنابع الثلاث : الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى والمسيحية القادمة من الشرق ولكنها تختلف عن المسيحية المنزلة .

وقد أخذ الغرب المنهج التجريبى الإسلامى وصهره فى دائرة فكرة الوثنى المادى دون أن يقبل ضوابطه وحدوده التى تحميه من الانحراف ، ومن هنا نتج ذلك الانحراف الذى تتسم به الحضارة المعاصرة .

هذه واحدة يجب أن نكون على وعى بها ، أما الأخرى فهى أن مفاهيم زائفة دخلت إلى الفكر الإسلامى عندما ترجمت الفلسفة اليونانية مما كان له تأثيره فى إعلاء جانب على جانب ؛ حيث أعلى جانب العقلانية تحت تأثير المعتزلة ، وأعلى جانب الروحانية تحت تأثير التصوف الفلسفى ، ولكن علماء المسلمين استطاعوا تحرير الفكر الإسلامى من هذه التجاوزات فى مواجهة استمرت عدة قرون حمل لواءها : الشافعى وابن حنبل والغزالى، وكان فارسها المبرز الإمام ابن تيمية ؛ حيث صهرت فى بوتقة مفهوم أهل السنة والجماعة خير ما فى الدعوات من إيجابيات.

وقد صور هذا المعنى الإمام حسن البنا حيث قال : إن الإسلام الحنيف قد ألزم العقل البشرى لوناً من ألوان التفكير هو أكملها وأتمها وأكبرها انطباقاً على واقع الحياة ومنطق الكون وأعظمها نفعاً لبنى الإنسان ؛ ذلك هو الجمع بين

الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل ، فنحن نعيش فى عالمين فعلاً ، لا فى عالم واحد، ونحن عاجزون عن تفسير كثير من ظواهر الكون ، ونحن عاجزون عن إدراك كل الحقائق الأولية التى تحيط بنا ونحن فى إدراكها ننتقل من مجهول ؛ إلى مجهول ؛ حتى ينتهى بنا العجز إلى الإقرار بعظمة الله تبارك وتعالى ، ونحن نشعر فى أعماق قلوبنا بعاطفة الإيمان قوية ومن هنا كان لزاما على الناس أن يعودوا إلى الإيمان بالله وبالنبوات وبالروح وبالحياة الآخرة وبالجزاء فيها على العمل ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره** ﴾ .

كل هذا فى الوقت الذى يجب أن يطلقوا لعقولهم العنان لتتعلم وتتعرف وتخترع وتكتشف وتسخر هذه المادة الصماء وتنتفع بما فى الوجود من خيرات وميزات ، وإلى هذا اللون من التفكير الذى يجمع بين (العقلية الغيبية والعقلية العلمية) وهكذا تنكشف حقيقة المعادلة الإسلامية التى عجز الغرب عن فهمها والانتفاع بها .

* * *

ومن هنا فنحن نقف موقف الرفض والتجاوز لمفاهيم غربية كثيرة قامت على أساس انشطارية الفكر الغربى وعجزه عن معرفة (الغيب والوحى والقدرة الإلهية التى تقود الوجود كله) وفى ظل هذا الفهم الغربى القاصر طرحت مسلمات وجرى العمل على إقناع المسلمين بها ثم اتضح فسادها من عدة نواح:

١ ـ أن الانسان حيوان ، أو من أصل قرد ، وحتى اليوم وبعد مرور أكثر من مائة عام على مقولة دارون ، وبالرغم من إضافتها إلى كثير من مناهج التعليم فى بلاد الإسلام ، فإن العلماء لم يستطيعوا حتى الآن أن يثبتوا هذه الفرضية ، وأن العلم نفسه عجز عن إثبات النظرية القائله بأن الإنسان أصله مرتبط بالحيوان .

بل إن الحفريات كشفت عن صحة ما أورده القرآن فى خلق الإنسان ، وأنه خلق كاملاً ومستقلاً عن العناصر الأخرى ، وأنه كان منذ ملايين السنين يمشى على قدمين مرتفع القامة .

٢ ـ أن مهمة المرأة شيء آخر غير رسالتها الحقيقية ، ولقد عجز العلم أن يثبت للمراة مهمة أخرى غير الأنوثة ، وقد كشف ذلك علماء بيلوجيا وأطباء وفى مقدمتهم الدكتور اليكسى كاريل .

كذلك فقد عجز العلم أن يثبت مقولة : إن المرأة والرجل جنس واحد ، أو انهما متساويان .

فقد كشف العلم تلك الفوارق الدقيقة فى التكوين البيولوجى والتكوين الخلقى والتكوين النفسى بما يدحض مقوله التلموديين .

٣ ـ لم يستطع العلم أن يمكن الإنسان من مد الحياة أو إلغاء الموت أو أن يتحرك خروجاً عن القوانين الإلهية .

* * *

إن المسلمين اليوم على وعى بالمؤامرة الخطيرة التى تدبر لاحتوائهم فى دائرة الفكر الغربى ، ولذلك فهم يتطلعون إلى تقديم التحفظات القادرة على حمايتهم ، وما دامت الدراسة النظامية ليست كافية فى تقديم هذه الحصانة فإن المسئولية تقع على الأب ومفكرى الإسلام لتقديم ما ينقصهم ، على ان تكون التربية الإسلامية قائمة على نحو سليم لحماية هذه الأجيال :

أولاً : تنمية الحجاب لدى المرأة المسلمة وتشجيع الانفصال فى التعليم عن الرجل .

ثانياً : توضيح اختلاف نظرة الإسلام لكثير من الأمور النصرانية واليهودية وعن الفكر البشرى بشقيه .

ثالثاً : ملء قلوب الشباب المسلم بالإيمان بالله تبارك وتعالى والثقة به .

رابعاً : التصدى للشبهات المثارة .

خامساً : الربط بين العناصر الثلاثة للإسلام (التوحيد ـ الشريعة ـ الأخلاق) وتجميع القوى العاملة على وحدة الفكرة .

ومن ناحية أخرى لابد وأن يتضح موقف المسلمين من التيارات الوافدة :

١ ـ فالمسلمون يرفضون العلمانية ولا يقبلون منهجاً مختلطاً من الليبرالية والماركسية كما لا يقبل المسلمون لغة وسطى بين الفصحى والعامية ، كذلك لا يقبلون حضارة مختلطة بين تراث المسلمين وواقع الغرب .

٢ ـ العودة إلى مصطلحات القرآن والسنة والتحرر من مصطلحات الفلسفات، والرفض الكامل لمفاهيم الحلول والاتحاد ووحدة الوجود والإشراق والتناسخ وغيرها .

وليكن فى وعينا دائماً أن الإسلام هو القوة الوحيدة التى لها قدرة التعبئة وقت الخطر ولحظة المصير وهو الذى يسارع فيجمع العناصر كلها حين يهددهم التحدى ؛ ولذلك فإن (الدين) هدف النفوذ الأجنبى ؛ إذ إنه يرى إذا أمكن نزع فتيل الدين من أرض الإسلام تتحول الأرض إلى قطعة من الحديد لا فعل لها ولا أثر، ويصبح المسلم أجنبياً فى أرض بلا هوية ولا بطاقة ، وقد اتفقت جهود الدول الغربية على تفتيت وحدة البلاد الإسلامية فى كل العهود .

إن هناك قوة إسلامية حقيقية اليوم ، قوامها الثروة (الطاقة والتفوق البشرى) ومن شأنها أن تغير مسيرة التاريخ الإنسانى وتقدم للبشرية أشواقها ومطامحها التى فقدتها فى ظل الحضارة المادية ، وأن الغرب اليوم يحول بين الأمة الإسلامية وبين امتلاك إرادتها وإقامة مجتمعها واستئناف مسيرة حضارتها ؛ ولذلك فإننا مطالبون ان نكشف فساد مناهج الغرب فى مجال النفس والاخلاق والاجتماع والاقتصاد والتربية .

* * *

٣٥
مواجهة
مسلمات طرحها الفكر الغربى واتضح فسادها

فى محاولة لخلق روح اليأس والقنوط فى الوجدان المسلم ، وإثارة روح الشك والانتقاص فى النفس المسلمة ، طرح التغريب عدداً من الشبهات المغلوطة .

أولاً : محاولة القول بأن أهل الامة المسلمة لا يستطيعون مسايرة الرقى العالمى ما لم يقبلوا النظم الغربية الاجتماعية والاقتصادية ، ولاريب أن هذه دعوى باطلة وزائفة . فإن المفهوم الإسلامى يقرر أنه لابد من أن تسير نزعة الأصالة إلى جوار نزعة المعاصرة ، الأولى تتعلق بالحفاظ على العقيدة والقيم الإسلامية ، والأخرى تتطلع إلى مسايرة التحديث ، ولقد وضع الإسلام منهج الثوابت والمتغيرات من أجل هذا ، وقرر أن تكون المعاصرة فى إطار الأصالة ، وأن المسلمين يستطيعون قبول العلم التجريبى دون قبول العلوم الإنسانية التى هى من اختصاص كل أمة .

ثانياً : محاولة القول بأن المسلمين جاهدوا النفوذ الغربى تحت لواء الاقليمات والوطنيات .

والحقيقة ان حركات المقاومة التى امتدت على طول العالم الإسلامى وعرضه إنما استمدت وقودها من مفهوم الإسلام للجهاد والاستشهاد وحفظ العرض والمرابطة فى الثغور ، وقد قرر كثير من الباحثين ان حركة النضال القومى والاستقلال الوطنى إنما تحركت تحت لواء العقيدة الإسلامية .

ثالثاً : حاول الغرب أن يدعى بأن المسلمين والعرب نهضوا من خلال ايدلوجيات الغرب وقوانينه : الليبرالية والاشتراكية ، وقد كذبت الأحداث والوقائع هذا الادعاء ، وثبت بعد مرور أكثر من قرن كامل أن قانون نابليون كان بعيد الأثر فى تدمير المجتمع الإسلامى ، وأن أنظمة الربا والعلمانية وأنظمة الغرب لم تحقق أشواق الإمة الإسلامية ، بل لقد أثبتت هذه الأنظمة فشلاً فى مجتمعها ؛ مما دعا كثيراً من مفكرى الغرب إلى المطالبة بنظام عالمى جديد .

رابعاً : حاول الغرب أن يدعى أن اللون والعنصر هما عامل التقدم ، وأن الأمم

البيضاء الغربية قد أعطيت خاصية التفوق ، وأن هناك أمة متفوقة ، وأمم متأخرة متخلفة بحكم تكوينها البيولوجى والعنصرى ، وقد باءت نظرية الأجناس هذه بالهزيمة بعد أن أثبتت الأبحاث العلمية الحقيقة ، وأن التكوين العقلى والنفسى واحد ، وأن البيئة نفسها هى التى تفرق ، وأنه ليس صحيحاً أن للجماجم أو اللون أثراً فى التفوق ، هذا فضلاً عن أن الإسلام نفسه منذ أربعة عشر قرناً أعلن وحدة البشرية واعلن مساواة الأجناس ، وتفوقها إنما يكون بالعمل الصالح .

فقد قال رسول الله ﷺ : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى فضل على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .

خامساً : حاول الغرب أن يقنع العرب ان حملاته الاستعمارية هى التى أيقظتهم من التخلف والجمود ، ولم يكن هذا صحيحاً فى جملته ولا فى تفصيله، وأنما كانت يقظة العرب والمسلمين من داخل عقيدتهم ومجتمعهم ، وأن الإسلام كان قادراً دائماً على الانبعاث من الداخل ، وان صيحة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربية بالدعوة إلى التوحيد الخالص سبقت حملة نابليون على مصر بأكثر من أربعين عاماً ، وأن علماء الأزهر أخذوا العهد على الأمراء بالعدل فى الرعية قبل الثورة الفرنسية بوقت طويل .

سادساً : حاول الغرب الادعاء بأن العالم كله تحكمه حضارة واحدة بدأت باليونان والرومان وانتهت أخيراً بالحضارة الأوربية الحديثة ، وأن الحضارة الإسلامية لم تكن إلا حلقة من حلقات هذه الحضارة ، وقد أكدت الأبحاث المنصفة والجادة فساد هذا الرأى ، وأن الحضارة الإسلامية التى صاغها المسلمون بعد نزول القرآن هى حضارة متميزة مستقلة تختلف اختلافاً واسعاً وعميقاً فى معناها ومبناها عن الحضارات : اليونانية والرومانية والفارسية والهندية والفرعونية جميعاً ؛ لأنها قامت على التوحيد الخالص ، وعلى تحرير الإنسان من عبودية الفرعون والقيصر والامبراطور ، كما أنها حررت العقل البشرى من عبادة الأوثان والأصنام والملوك .

سابعاً : حاول الفكر الغربى الادعاء بأن المسلمين لم يكن لهم دور فى الحضارة إلا حفظ مواريث الفكر اليونانى والرومانى المعروفة بالفلسفة الهلينية ، وأنه سلمها للغرب فى مطالع عصر النهضة ، وقد كذبت وقائع التاريخ الصحيح هذه

الدعوى الباطلة ، واكدت الدور الرئيسى والطليعى الضخم الذى قام به المسلمون انطلاقاً من القرآن الكريم ودعوته إلى النظر فى السموات والأرض وتقديم البرهان ؛ حيث قدموا للإنسانية لأول مرة فى تاريخ البشرية كلها (المنهج العلمى التجريبى) بعد أن كان العالم غارقاً فى مفاهيم الفلسفات التأملية ، كما حرر الإسلام البشرية من نظريات أفلاطون وأرسطو التى تقر (الرق) أساسا من أسس الحضارات، وصحح المسلمون أخطاء جالينوس وأرسطو وغيرهم فى الفكر السابق للإسلام ، ويمكن القول بأن المنهج العلمى التجريبى الإسلامى هو أساس النهضة العلمية والتكنولوجية المعاصرة ، وأن الإسلام هو الذى أخرج البشرية من العصور الوسطى المظلمة التى كانت تظل الغرب ؛ حيث كان الإسلام وخلال ألف عام من حدود الصين إلى حدود نهر اللوار يظلل العالم بحضارته الباذخة .

ثامناً : ادعى الغرب أن المسلمين خرجوا من الجزيرة العربية للفتح من أجل الطعام وليس من أجل نشر كلمة الله فى العالمين .

وقد دحض كثير من الباحثين المنصفين هذه الفرية :

يقول العلامة محمد أسد (ليوبولد فايس) لقد انتشر الإسلام فى وقت شديد القصر بمقياس التاريخ على رقعة عظيمة الاتساع من الدنيا المأهولة والمعروفة عند ظهوره ، ولم ير الكتاب والمؤرخون الأوربيون تفسيرا لذلك التحول الحضارى العظيم إلا أن العرب كانوا يعانون ضيق العيش وشظف الحياة فى جزيرتهم القاحلة فاندفعوا شرقاً وغرباً يشقون لأنفسهم بحد السيف طريقاً إلى بلاد الفرات الوافر والحياة الناعمة ، وهكذا حسموا القضية فى بساطة وثقة ، إن خروج العرب من شبه الجزيرة كان بدافع الجوع ، وقد فرضوا الإسلام على البلاد المفتوحة ، ولكن المنصفين من المؤرخين على قلتهم تصدوا لهذا التفسير ووضعوه فى مكانه الصحيح، بين ركام هائل من الأباطيل التى شاعت عن الإسلام وأهله ، والتى لم تكن تنبعث من الجهل بقدر ما كانت اتباعاً للهوى .

تاسعا : حاولت الحضارة المعاصرة فى دعوى عريضة أن تثبت أن المرأة كالرجل تتساوى معه فى كل شىء ، وقد كذبت أبحاث العلم والطب هذا المفهوم الباطل الذى تروج له الدعوات الإلحادية والإباحية التى تستمد مفاهيمها من الماسونية،

وأكدت هذه الأبحاث مفاهيم الإسلام التى أعلنها قبل أربعة عشر قرناً. وقال اليكس كاريل فى كتابه الرائد (الإنسان ذلك المجهول) بعد تجارب طبية ثبت أن الانوثة والذكورة ليست مظاهر جسمية فقط بل هى تكوين عاطفى ونفسى ، وأن التكوينات الجنسية والمزاج حتى أصغر خلايا الجسم تحمل طابع جنس الانسان ، سواء كان رجلا أم امرأة ، وهذا يعنى أن لكل منهما قدرات ومهام خاصة فى الحياة ينبغى أن يمارسها دون ان يتمرد أو يتجرد من طبيعته ووظائفه البيولوجية والاجتماعية .

عاشراً : كذلك فقد كذبت الأبحاث العلمية المعملية والتحليلية والإحصائية كثيراً من النظريات الفلسفية التى رعاها النفوذ الأجنبى وفرضها فى مناهج الدراسة فى الجامعات والمعاهد بدعوى أنها حقائق علمية ، بينما هى فى الحقيقة ليست إلا فروض عقل بشرى ، قد تصح وقد تخطئ ، قد تتصل ببيئة ما أو عصر ما أو تواجه تحد جزئى ما ، ولكنها لا تكون بأى حال من الآحوال حقائق علمية أساسية تصلح لكل البيئات والعصور ، ولقد تبين أن جميع هذه النظريات الفلسفية لم تلبث ان أصابها الصدع والاضطراب بعد ظهورها بقليل ؛ مما دفع اصحابها إلى الإضافة اليها أو الحذف منها فى محاولة لمواجهة متغيرات العصر ، وهذا هو الذى يكشف عمق الفارق بينها وبين الحقائق التى قدمها الإسلام فى مجال العلوم السياسية والاجتماعية وفى مقدمة هذه النظريات التى أصابها العطب :

نظرية دارون ، نظرية فرويد ، نظرية دوركايم ، نظرية سارتر ، نظرية ماركس ، وقد وجه إلى كل هذه النظريات مداخلات متعددة فى مؤتمرات علمية حضرها رجال من باحثى الغرب نفسه ، كشفوا عن تجاوزات واضحة فى نظرية التحليل النفسى لفرويد والتى أعلاها النفوذ الصهيونى على نظريات اخرى قدمها ولز ويونغ لأن فرويد أراد أن يدمر الحصانة الإنسانية بفرض مفهوم الجنس كتفسير لكل تصرفات الإنسان ، وكان خط التدمير الذى حمله الفكر الغربى قائماً على هدم إنسانية الإنسان ، وقد استخدم فى ذلك نظرية دارون التى ادعت الصلة بين الإنسان والقرد ونظرية فرويد الغالبة بالجنس ونظرية ماركس المتصلة بالطعام ، وفى مواجهة تلك المفاهيم المسمومة التى طرحتها نظريات الفكر الغربى التى عملت بالبث المتصل على إقناع المسلمين بها ، وقامت حركة اليقظة الإسلامية بدحض هذه الشبهات :

أولاً : لم يستطع العلم إثبات النظرية القائلة بأن الإنسان أصله من القرود ، ولقد كان واضحاً منذ اليوم الأول أن نظرية دارون متصدعة ؛ لأنها تنقصها (الحلقة المفقودة) التى لم يعثر هو عليها والتى لم تظهر بعد مرور مائة عام حتى الآن من إذاعة النظرية وقد أقام أولياء أمور الطلاب فى الولايات المتحدة قضايا فى المحاكم تطلب إسقاط هذه المادة من مناهج التعليم لتعارضها مع قصة الخلق التى تقول بها الأديان ، وحكمت المحكمة بصلاحية دعوى أولياء الأمور ، أما نحن فى العالم الإسلامى فما زلنا نعتبر نظرية دارون قاعدة أساسية فى علم الأحياء على الرغم من تعارضها مع مفهوم الإسلام والقرآن .

ثانياً : لم يستطع العلم أن يثبت حتى الآن ولن يستطيع فيما بعد أن يثبت أن مهمة المرأة شيء غير الأنوثة ، وما تزال المرأة تتجه إلى المنزل والحجاب كلما طهرت فطرتها وعرفت حقيقة الإسلام وجوهره مهما أزعج ذلك بعض خبراء التغريب الذين ينطلقون من خطة التبشير العالمى فى هدم كيان الأسرة والمجتمع الإسلامى من خلال تغريب المرأة المسلمة وإخراجها من دينها ، وما تزال مؤامرة تحرير المرأة تمثل تحدياً للصحوة الإسلامية .

ثالثاً : لم يستطع العلم أن يثبت أن المرأة والرجل جنس واحد أو يفرض مساواتهما .

رابعا : لم يستطع العلم ان يمكن لانسان من اختيار الحياة أو الموت أو أن يتحرك خروجا عن القوانين الإلهية .

خامساً : أن محاولة وصف الإسلام بالبربرية والقسوة إنما هى محاولة ترمى إلى دفع المسلمين إلى التنازل عن مفهوم الإسلام الجامع بين الإعداد والاحتشاد فى الثغور والقدرة على الدرع حتى يستسلم للغاصب وحتى يوصف بأنه متسامح ، فهل التسامح هو إلقاء السلاح ؟ إن الجهاد فى الإسلام إنما يعنى الدفاع فى حاله العدوان ، ولا يعنى الاعتداء على أحد .

* * *

٣٦
مواجهة
تنقية المصادر بالعودة إلى المنابع

تكاد تجتمع كلمة مفكرى الإسلام على أسلوب جامع من شأنه أن يمكن المسلمين من ترشيد صحوتهم ، ويتمثل هذا فى عدة أمور أساسية :

أولاً : إعادة النظر فى الدراسات التى تشكل ثقافة المرأة المسلمة ، بحيث يكون هدفها تنشئة جيل مؤمن ، من خلال تربية متكاملة متوازنة من الناحيتين النظرية والعملية ، مع الاهتمام أساساً بالتربية الجهادية لحماية عقيدتهم ومؤسساتهم والتأكيد على دور المرأة المسلمة فى بناء الأسرة والمجتمع .

ثانياً : تقريب وجهات النظر بين الدعاة والرعاة وإزالة الجفوة واتخاذ خطوات جادة لتطبيق الشريعة الإسلامية والخضوع لمنهج الله وإعداد صياغة كاملة لفقه إسلامى تجمع بين الأصاله والمرونة .

ثالثاً : الخروج من العنصرية والقبلية والإقليمية والقوميات إلى الوحدة الإسلامية بوصفها الدائرة الأساسية والكبرى التى تشكل داخلها المسلمون والتى يجب العودة اليها ؛ حيث بدأ العمل بها وأخرجتنا منها مؤامرات النفوذ الغربى ولابد من احياء مفهوم الأمة الواحدة بدلا من المفهوم الاقليمى الضيق .

رابعاً : لا إصلاح للمجتمع الإسلامى إلا بإصلاح التعليم وأسلمته وإعادته إلى منهج التربية الإسلامية ؛ ذلك لأن الواقع القائم الآن يمثل وجود عقليتين متناقضتين ، وذلك يمزق وحدة الوجود الفكرى الأصيل للأمة ، هذا فضلاً عن أن العلوم الحالية لا تسهم فى تقدمنا ؛ لأنها لم تنبع من فلسفة إسلامية ؛ ولذلك فلابد من إعادة النظر فى مناهج العلوم التى تدرس فى المعاهد والجامعات ، لأننا ما زلنا ندرس ما ورثناه من الاستعمار .

خامساً : العالم الإسلامى يمثل جغرافياً وسكانياً قارة واحدة ، تتمثل فى مناطق استوائية ومناطق معتدلة ، وخبرات فنية وقاعدة صناعية ؛ ولذلك لابد أن

تقوم برامج لدعم التعاون بين الدول الإسلامية ، وإلى زيادة التجارة بين أقطارها (من خلال تعاون صناعى - زراعى - تجارى) وتوجيه الموارد حسب مفهوم الحلال فى الإسلام ، وتوسيع قاعدة الزكاة .

سادساً : التحذير من دعوات التغريب التى تقدم إلينا تحت أسماء براقة ، مثل (التقدم - الحداثة - المعاصرة) ذلك ان هذه الدعاوى انما ترمى إلى القضاء على الشخصية الإسلامية والتميز الخاص الذى يختلف به المسلمون عن غيرهم من الامم وأصحاب العقائد والأيدلوجيات .

وهو تميز ضرورى وخطير يدخل فى صميم العقيدة ، وأقل محاذيره أنه يَدَعُ المسلمين هملاً ليس لهم طابع معين أو وجهة واضحة ، فيضيعون فى قطيع (الاممية العالمية) الواسعة التى ترغب الحضارة الغربية اليوم أن تصهر فيها كل الأمم.

ان تأبى المسلمين على الذوبان فى كيان الأممية هو أكبر انتصاراتها فى هذا العصر من حيث يكثف الخصوم حملاتهم لتحطيم هذه الحصون التى تحمى وجودنا الحقيقى ، حيث يضربون بمعاولهم تحت الأساسات حتى تنهار ، والمسلمون يواجهون هذه المؤامرة الخطيرة بقوة الإيمان وبتراص الأجساد ؛ حيث لا يملكون ما يملك خصومهم من وسائل لإذابتهم .

وحين نطالع جهود المسلمين للاحتفاظ بشخصيتهم الإسلامية فى مواقع كثيرة فى عالم اليوم (فى فلسطين المحتلة والهند وتايلاند والفلبين) يدهشنا هذا الجهد الضخم المبذول ، وهذا الإصرار على التماسك ومقاومة الانصهار ؛ حيث تجرى المحاولات عن طريق الإرساليات التبشرية فى حملة مسعورة على العقيدة الإسلامية والشريعة المحمدية عندما تعمل الوثنية مع التنصير للقضاء على الكيان الإسلامى ومن ورائهم مؤامرة الصهيونية العالمية .

سابعاً : أن على كتاب الإسلام توجيه قدر كبير من العناية إلى كشف الجوانب التى وقع فيها الالتباس وفقاً لتوجيه القرآن الكريم .

﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ .

ولابد من إزالة الالتباس بين العروبة والإسلام وفق مفهوم القوميات الوافد وإزالة الالتباس بين الثوابت والمتغيرات وبين الإلهى والبشرى فى مفهوم الإسلام

وهدم ما جاء الإسلام لهدمه : الأساطير والفكر الباطنى ومفاهيم الوثنية والإباحية وكشف الدعوات الجديدة التى تحمل هذه المفاهيم كالقاديانية والبهائية والفرعونية.

وتحرير وقائع التاريخ بالنسبة للدولة العثمانية والمماليك والسلطان عبد الحميد وتوثيق مفهوم اليقظة الإسلامية المنطلقة من قلب عالم الإسلام قبل الثورة الفرنسية أو الحملة الفرنسية ، والكشف عن حقيقة العلاقة التى قامت بين العرب والأتراك فى اطار الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية لمواجهة تآمر الغرب مما يطلق عليه كذباً اليوم (الاستعمار التركى) .

وعلينا أن نكشف حقيقة الشخصيات التى لمعت بالباطل أمثال لطفى السيد وقاسم أمين وعلى عبد الرازق وجورجى زيدان وسلامة موسى وطه حسين ورد الاعتبار للصادقين المخلصين أمثال عبد العزيز جاويش وفريد وجدى ، وكشف كتابات ابن سينا والفارابى والحلاج وابن عربى ورسائل إخوان الصفا ، وكشف فساد التفسير المادى للتاريخ ومنهج العلوم الاجتماعية وعلوم النفس والأخلاق ، وضرورة تحرر الفكر الإسلامى من أفكار سارتر وفرويد وماركس ، وتجاوز مؤامرة دنلوب وقانون نابليون ومؤامرة زويمر ، وكشف فساد المنهج المنطقى الأسطى المعتزلى ومنهج التصوف الفلسفى ، والعودة إلى منهج القرآن .

ثامناً : إعادة الاعتبار إلى منهج الإسلام بوصفه المصدر الذى صدرت عنه العلوم التجريبية والرياضية والطبيعية ، وأصول مناهج العلوم الاجتماعية والنفس والاخلاق ومنهج المعرفة ذى الجناحين ، فضلاً عن التاريخ والتربية والاقتصاد ومفهوم الحضارة القائم على تحرير العقل من الوثنية وتحرير الانسان من العبودية والرق .

تاسعاً : تصحيح موقف المرأة المسلمة من بناء الأسرة ومن العمل الخارجى ومن العلاقة بين الرجل والمرأة والآباء والأبناء والارتفاع بالثقافة الاجتماعية عن المفاهيم المضللة التى طرحتها سيمون دى بوفوار وسارتر ودعاة التحلل والكشف عن تحرير الحوار من طابع انتقاص الرجل لحق المرأة وانتقاص المرأة لحق الرجل جريا وراء تصورات الفساد الاجتماعى الهدام للأسرة والممزق لكيان الأمة .

عاشراً : تحرير الاقتصاد القومى من النظام الربوى وتطهير التعامل من الحرام والتخلص من التبعية والاستدانة .

إن الخطوات الإيجابية لبناء مجتمع إسلامى عالمى يجب أن تبدأ بوحدة الفكر الإسلامى ، فهو المنطلق الحقيقى لتلاقى الإقليمات والقوميات وتحريرها من العنصرية والقبلية ودفعها إلى تماسك وتكامل جامع من خلال الاقتصاد والتجارة ، على أن يكون مفهوم الوحدة الثقافية الإسلامية مقدمة لالتقاء اجتماعى وفكرى وسياسى واقتصادى جامع .

ولا ريب فى أن بناء قاعدة الثقافة الإسلامية فى الجامعات فى مختلف أنحاء الأمة الإسلامية هو الخيط الأول الذى تنطلق منه القدرة على التماسك والتلاقى بين عناصر المجتمع الإسلامى كله

* * *

٣٧
مستقبلية الأمة مرتبطة بالجذور الإسلامية

لا ريب أن هذه الصيحة المنطلقة الآن بالدعوة للنظر إلى المستقبل وتكوين أساساته وبناء قواعده والعمل على الإعداد له وتدعيمه دعوة كريمة سامية ، ولقد كان الإسلام حريصاً على هذه الدعوة وعلى التحرر من تقليد الآباء والتبعية للماضى ، ومن ثم فإن الدعوة إلى الخروج من الآثار التى خلفتها ظروف الماضى امر ضرورى ومحتم ، ويجب أن نتحرر منه ، بتغيير العوائد والأساليب التى أوصلتنا إلى ما وصلنا اليه من ضعف وتخلف وجمود ، ولاريب أن الصيحة التى تدعونا اليوم إلى أن نغير مسارنا وأن نجدد وضعنا وأن ننظر إلى المستقبل فى ضوء ما وصلنا إليه من أزمات تقتضينا العودة إلى الأصول ، وتحتم علينا ان نستمد طريقنا من منهج ثابت أصيل ربانى المصدر لم يخب،من استمسك به ولم ينهزم من التمسه ؛ إن النظرة إلى المستقبل تحتاج إلى إعادة النظر فى الماضى ، لنرى كيف انطلقت المسيرة ، ولماذا تعثرت ؟ وما هى عوامل التخلف التى رانت على الحاضر حتى تعالت الصيحة بالتماس مستقبل أكثر إيجابية وعطاء .

ولما كانت الأمم لا تستطيع أن تفصل مستقبلها عن ماضيها فقد كان من الضرورى العودة إلى الأصول الأصيلة للأمة التى تستمد منها حركة الحياة أصلاً ، وإلى المنابع الأساسية التى قامت عليها قواعد الحركة لنرى هل نحن حقاً كنا نتحرك فى دائرتها أو تحركنا والتمسنا مناهج أخرى من أمم أخرى تختلف عنا فى الوجهة والعقيدة وأسلوب الحياة .

لقد انتهت منذ وقت بعيد تلك الدعوة إلى مزج مادية الغرب بروحانية الشرق فإن هذه المحاولة باطلة بطلاناً شديداً ، وليست مقبولة بأى وجه من وجوه المنهج العلمى أو الأسلوب العملى؛ لأن الإسلام حين جاء قدم منهجاً جامعاً للروح والمادة ، فى صياغة ربانية مرنة يقبلها القلب والعقل جميعاً ، ولقد تبين قصور الاتجاه المادى جملة وقصور الاتجاه الروحى جملة ، فكلاهما غير صالح بمفرده ،

ونحن حين نرى أننا نسطيع أن ندمج حضارة الغرب بفكرنا الجامع نجد وجوهاً للخلاف ، كما نجد فوارق ومعارضات ، ولا نجد شيئاً هنا يمكن أن ينسجم مع شيء هناك ، فقد مضت حضارة الغرب فى طريق المذهب المادى إلى أبعد حد ، حتى لم يعد فى الإمكان الالتقاء مع مفهوم الإسلام الجامع بين الروح والمادة ، ومن هنا فقدت النظرة الغربية أمرين خطيرين ، هما لدينا من الأسس الأصيلة : هما البعد الربانى والبعد الأخلاقى .

ولا أعتقد أن أمة تكونت على منهج الله الذى صاغ للإنسان وجهة عمله وأسلوب حياته ومنطلقاته كلها منذ أربعة عشر قرناً إذا واجهت مأزقاً خطيراً كالذى نواجهه اليوم ، يمكن أن تنظر نظرة مستقبلية إلى الأمور متجاوزة ماضيها كله ، سواء ما يتصل بالمنهج أو بالتاريخ ، وإذا كان الفكر الغربى ينظر إلى الامور فى أوضاع منفصلة ، ويمكنه أن ينظر إلى المستقبل منفصلاً عن الحاضر والماضى لا عن المنهج الأصيل الذى هو بمثابة المنطلق لكل خطواتنا على طول طريق حياتنا .

لقد كان من أخطر ما حاول خصوم الإسلام وأعداء هذه الأمة الدعوة اليه ودوام الحديث عنه والعمل على اقناعنا به هو (النظرة المستقبلية) غير المشروطة أو غير المنضبطة ، ونحن من منطلق مفهوم الإسلام والقوانين التى رسمها لنا القرآن لا ننطلق إلى المستقبل أبداً من فراغ ، وأن الذين حاولوا أن يخدوعنا بعد نكسة ١٩٦٧ بالدعوة إلى إقامة الدولة العصرية بالتنكر لكل ماضينا وتاريخنا وعقيدتنا وقيمنا إنما كانوا يهدفون إلى تدمير وجودنا كلية وصهرنا فى أتون الأممية العالمية ؛ لنفقد ذلك الشيء الذى ميز الله به هذه الأمة وهو (الذاتية الإسلامية) القائمة على مفهوم التكامل الجامع بين القيم الفردية والجماعية ، السلفية والتجديد ، الثوابت والمتغيرات ، التكامل والتجربة ، الدين والعلم ، الأصالة والمعاصرة ، العروبة والإسلام .

إن دعاة الفكر الغربى بشقيه العلمانى والوثنى والماركسى والوجودى لا يؤمنون بتلاقى هذه القيم المتكاملة فى الإسلام ويرونها أضداداً لا تلتقى ؛ ولذلك فهم يدهشون كيف يقدم الإسلام منهجاً جامعاً ، بينما يقوم الفكر الغربى على أساس الانشطارية ، والتطور المطلق ، والنسبية ، والعلمانية التى تنكر الدين والمادية

التى تنكر الروح .

إن قاعدة الإسلام فى بناء المستقبل ليست بوصفه تراثاً أو فلكلوراً أو شارة مميزة، ولكنه بوصفه منهج حياة ودعامة أساسية ومنطلقاً لكل خطوط العمل ،إن موقفنا من الإسلام فى بناء المستقبل ليس كموقف الغرب من عقيدته التى تخلى عنها فى انطلاقته عندما وجدوها تحول دون تقدمه ، أما نحن فإن الاسلام هو الذى صنع لنا التقدم والنهضة والمنهج العلمى التجريبى ، وقدم لنا قوانين قيام الحضارات والأمم وسقوطها فهو مستقبلى النزعة والهدف والغاية منذ اليوم الاول وما يزال على مدى العصور يدفع المسلمين إلى التحرر من الجمود والتخلف والانطلاق إلى تأكيد التراث وبناء الثقة وإقامة بناء الإنسانية على الرحمة والإخاء والقدرة على مواجهة العدو وحماية الثغور .

إن الذين يدفعوننا وراء (المستقبلية) يبغوننا ألاَّ نتحدث عن المنابع وعن الارتباط بالمنهج الربانى الذى قامت به عقلية الأمة ووجهتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعالمية ، فهم يريدون أن نلهث وراء حضارة الاستهلاك التى تدمر كل مقومات العطاء الربانى فى شراسة وعنف من أجل السيطرة على الموارد والمعطيات التى هى من حق جميع شعوب الأرض ، والتى يجب أن تدار فى أمانة دون أن تستنزف على هذا النحو ، وكأن العالم طفل لا يحسن التصرف ، وفى حاجة إلى وصى.

نحن المسلمين لن تخدعنا الكلمات البراقة أساساً ، ولن تدفعنا وراء أهواء الغرب، وكلمات التقديم والحداثة والمستقبلية هى كلمات مغلوطة تدفعها قوى معروفة لا تريد للأمة الإسلامية أن تبنى مجتمعها الجديد على قواعدها الأصيلة ، وتهدف إلى احتوائها حتى تكون حركة الحضارة الإسلامية محتواة داخل حضارة الغرب المنهارة الغازية ، والمسلمون يؤمنون أساساً بالمحافظة على الذاتية والكيان المتميز ، ولا يقبلون الانصهار فى حضارة لا تعتمد أصول الوجهة الربانية أو الأخلاقية طريقاً لها، ولن تكون الكلمات اللاهثة فى التعجل والإسراع والانطلاق بالتى تخدعنا أو تدفعنا إلى أن نتنازل عن مفهومنا الجامع بين القيمة الروحية والقيمة المادية فى فهم منطلقات المجتمع والحضارة .

فليوفروا كلماتهم اللاهثة فإنها لن تدفعنا إلى اغراق وجودنا الإسلامى فى أتون الحضارة المنهارة الغاربة ، ونحن فى ذلك لا نتخلف ولا نتراجع ؛ لأننا كنا وسنظل أول من وضع أسس التقدم والتجدد وبناء مناهج التجريب والمعرفة الإنسانية وفى خلال ألف عام كاملة .

إن مستقبلية الإسلام شأنها شأن كل القيم والمفاهيم لها طابعها الخاص الذى تستمده من الأصول الأساسية لدعوة التوحيد الخالص ، ومن هنا فإنها تختلف اختلافاً جزئياً أو كلياً عن مستقبلية الغرب أو مفاهيم الحضارة المادية التى تتخذ موقفاً معارضاً لكل ما يسمى بالتراث أو القديم أو الثوابت فى انطلاقة نحو التطور المطلق أو التغير الدائم أو نسبية القيم .

فنحن نضع النظرة المستقبلية فى مكانها الصحيح ، دون أن تزعجنا هذه الصيحات اليائسة المثيرة التى نحاول أن تخرجنا من طابعنا الأصيل الذى تشكل منذ أربعة عشر عاماً على أساس قاعدة (الثوابت والمتغيرات) فنحن لا نرى فى الاعتماد على قاعدتنا هذه جموداً ولا تخلفاً ولا سلفية منكرة ولا تراثية مرذولة ؛ ذلك لأن المنطلق الحقيقى للنظرة إلى المستقبل هو قانون الدين المنزل بالحق متمثلاً فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وهذه لا يمكن أن توصف بأنها تراث أو قديم أو لا يمكن الادعاء بأنها تتسم بالجمود أو أن تكون مصدراً للتخلف ، بل نحن نؤمن كمسلمين من مصادر الإسلام نفسه أن مرحلة التخلف التى يمر بها المسلمون ترجع إلى خروجهم عن قانون الأصالة وذهابهم شوطاً طويلاً فى التبعية لحضارة وقيم ومفاهيم تختلف عن قيمهم ومفاهيمهم ، وإن المستقبلية يجب ان تبنى أساساً على العودة إلى المنابع ، وقد جرب المسلمون التعلق بفتات الموائد وانكشفت التجربة عن مؤامرة الاحتواء الخطيرة وها هم أولاً يعودون اليوم إلى منابعهم ليستمدوا منها منهج الحياة ومنطلق المجتمع والحضارة ، وليس فى ذلك بأس، فإن التقدم والنهوض والتحديث فرائض أساسية ، ولكن بأسلوب الإسلام ، وليس بما يحاول أن يفرضه علينا خصومنا وأعداؤنا ، نحن نعرف طريقنا إلى المدنية، وقد دعيناها منذ ألف عام أضاءت فيه العالم حين كانت أوربا فى ظلمات القرون الوسطى ، أما سوقنا على هذا النحو المرهق فإننا نرفضه تماماً ؛ لأن

مفاهيمنا الأساسية فى النظر إلى دورة الحضارة المعاصرة ووجهتها ، وهى تختلف عن متابعة أهواء أمبراطورية الربا والعجل الذهبى .

* * *

٣٨
فى مواجهة الحملة على الإسلام

من المعتقد تماماً أن (الحملة على الإسلام) تـدخل اليـوم مرحلة جديـدة وأشد خطورة بتكتل دعاة العلمانية ودفعهم بقوة فى وجه الفكر الإسلامى السمح الكريم الذى يتسم باليسر والبساطة وإشراق الفطرة والبعد عن التعقيدات والمغالاة والمراوغة التى هى أبرز معالم الفكر الذى يطرحه علماء الفلسفة الغربية المادية فى خطة تقوم على تبادل المواقع ، ويقوم هذا الفكر على عناصر اساسية هى .

(أولاً) إنكار الثوابت كلية .

(ثانياً) افضلية الحاضر على الماضى ، والنظر إلى الماضى نظرة الإنكار الازدراء .

(ثالثا) توظيف التاريخ لخدمة المذهبيات الطارئة .

(رابعاً) تزييف التاريخ وتقديمه فى قوالب مزورة .

(خامسا) تغيير الهوية بالدعوة إلى مذاهب قديمة سابقة للإسلام .

(سادسا) إعلاء شأن العقل وتحكيمه فى القيم الأساسية .

وأبرز من يرد به على هذه الدعوات أنها تقوم على التعتيم والهوى وحشد كل القـوى الفكرية لهـدم هدف يرى أنه زاحف ومـخيـف يكاد يأتى بالعلمـانيـة من جذورها ، وأن هذه القوى لا تفهم تطور العقل البشرى نفسه وتحوله عن كثير مما فرض عليه فى عصور مختلفة من نظريات لاهوتية مضطربة كانت تمنعه من التفكير والبحث وتقول له : (اتبعنى أولاً) ثم انتقلت منها إلى فلسفات مضللة أقامها دعاة لهم هدف يرمى إلى تدمير البشرية وتحطيم مقوماتها ، تقوم على الجبرية المطلقة وإنكار التكامل بين القيم وتحصر نفسها فى التطور المطلق ، والتغير الدائم والنسبية المطلقة ، فإذا جاء عصر جديد يريد أن يفهم الحقائق ، ويبحث عن ضياء جديد ، قامت فى وجهه القيامة بالتمويه والتضليل حتى لا يتمكن من الرؤية الصحيحة .

(إن مقوله : إن الانسان كائن جوهره التعبير) مقولة باطلة ؛ لأنها تنكر قانوناً أصيلاً من سنن الله تبارك وتعالى فى الكون والوجود يفرض وجوده على الحضارات والمجتمعات ، تلك هى قاعدة : (الثوابت والمتغيرات) التى قررها الإسلام من منطلق الفطرة والعلم التى تولدها وقائع التاريخ وتطور المدنيات ، أما الغرب فى ظل تفسيره للدين وانغماسه فى الفلسفة المادية فقد انتقل من نظرية الثبات الدائم إلى نظرية التطور المطلق ، وهو فى كلا المرحلتين من تاريخه بعيد عن السنن الحقيقية لحركة المجتمعات والإنسان ، وبالطبع له جوانب الثبات وجوانب التغير، وقد جاءت شريعة الإسلام الربانية مطابقة لهذا الفهم ، وجاء الإسلام جامعاً بين الربانى والبشرى ، وبين الروحى والمادى ، وبين الدنيوى والأخروى لا ينفصلان ولا يتعارضان ، ولأن الإسلام هو صاحب هذا القانون القائم على الثوابت والمتغيرات ، فإن شريعته ومنهجه كله قد حقق هذا التكامل الذى هو سمته الاصيلة فهو يقيم الثوابت فى القيم الأساسية العامة (التى لا تقبل تطوراً ولا تحولاً) ثم يعطى لحركة الحياة فرصتها الواسعة للتطور والتغير داخل إطار الثوابت الأصيل .

إن الذين يدعون إلى التحول المطلق والتغير الدائم هو إعداء الإنسانية قبل أن يكونوا أعداء الإسلام ، فهم الرافضون له ، الراغبون فى أن يتنازل الإسلام عن قاعدته ويجرى بالمواءمة مع تحولات الحضارة الخطيرة أو تبرير هذا الانحراف الشديد الذى تعيشه والذى يدفع بها إلى الهاوية .

ثم هم يقفون بالكراهية العمياء ازاء (الماضى) (القديم) (التراث) (السلفية) من أجل هدف واحد يضمرونه ولا يعلنونه حتى لا يكشفون أنفسهم هو إنكار الاسلام ، الدين ، القرآن ، وكذلك تراهم فى مهاجمة القرآن ؛ حيث لا يظهرون الناس على ذلك ، بينما يتحدثون عن اللغة العربية فى انتقاص شديد .

إن كلمة القديم فى الإسلام تعنى القرآن والإسلام وتاريخ الاسلام ، ويستحيل أن تقوم نهضة فى أمة ما مفصولة عن تاريخها وماضيها وقديمها ، وحين يدعونا دعاة التغريب إلى إنكار ماضينا واحتقاره والتخلص منه ، نسألهم : هل فعلوا هم

ذلك حين بدأوا نهضتهم ؟

ألم يأخذوا علوم المسلمين ومعارفهم وصهروها فى دائرة عقائدهم ، نحن لا يمكن أن نحتقر تاريخنا أو تراثنا ، بل أن نعتبره مثلاً أعلى نريد أن نعود إليه ، إن كنا نختلف عن الغرب ؛ حيث نفرق بين الميراث الربانى (الذى هو القرآن الكريم والسنة المطهرة) وبين التراث الذى هو من صنع علماء المسلمين ومفكريه والذى هو متصل بنحو ما بذلك الميراث من حيث إنه تفسير له وكشف عن جوانبه وتحليل له واهتداء به فى الاجتهاد لعصرنا على ضوء ما اجتهد علماء السلف ، فنحن فى مواجهة القيم العصرية لا نرفضها جميعاً ولا نقبلها جميعا ، ولكنا نحاكمها فى ضوء المنهج الربانى ، فنقبل منها ما يتفق مع الأصول الأصيلة لشريعتنا وفكرنا .

أما من يريدون أن نبرر واقع الحضارة المنهارة فنقبل منها تلك المحاذير الخطيرة التى وقعت فيها والتى هى عامل تدميرها على مدى الزمن : (الربا والزنا والخمر والميسر) فهذه مرفوضة تماماً لأنها من حدود الله الثوابت التى لا تقبل مساومة ، أو تطويراً .

إنهم يريدون أن يصلوا إلى أحكام تبيح الربا أو تبيح الحرية الاجتماعية الخارجة عن نطاق الحياة الزوجية الشرعية (من رفض واختلاط وإباحيات) وهذه لن تحدث ولن يجرؤ أى عالم مسلم على قبولها ، كذلك فإن مفهوم الحلال والحرام واضح بيِّن فى التعامل الإسلامى فى مجال العمل والتجارة ، هذا بالإضافة إلى وضوح موقف الإسلام من الترف والاستهلاك وتدمير الحضارة للموارد الطبيعية وحرمان الفقراء والاستعلاء بالعنصر وتهديد البشرية بالقنابل الذرية .

* * *

إن الحملة على الإسلام فى هذه المرحلة (مرحلة الصحوة الإسلامية) تتسع

دائرتها وتحاول أن تخطو خطوات واسعة مستمدة من الطريق الذى رسمه روادها لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وتوفيق الحكيم ؛ لتصل إلى غايات أكبر عن طريق فلاسفة المادية الجابرى وفؤاد زكريا ؛ لإصدار أحكام خاطئة على الطريق المنحرف الذى رسمته الماسونية للحضارة الغربية بإنكار البعد الربانى واستبداله بألوهية الطبيعة التى توصف بأنها قادرة على الخلق من دون الله ، وإنكار البعد الأخلاقى الذى يضع خطوات المجتمع والحضارة على طريق التجاوز إلى كل محرم وممنوع .

وتتسع دعوات إنكار الثوابت وإنكار الماضى ، فتجىء الدعوة إلى التقدم منفصلة تماماً عن الجذور ، فيقول أحدهم : (لا تحول إلا إذا بدأناه من الجذور) التى تقتلع المبادئ الإسلامية لتستبدل بها مبادئ أخرى .

ويعلو صوت العلمانيين إلى القول بأنه (لا حكم لماض على آت ، ولا سلطة للماضى على الحاضر) ما هو الماضى الذى يوهمون أنه يسيطر ، إن الماضى كلمة غامضة تخفى وراءها إنكار القديم كله ، حتى نتجاوز القرآن والسنة والأديان ورسالات السماء .

وأشد من هذا خطراً تلك الدعوة المدعاة للنظر إلى الكتب المقدسة على أنها تراث أدبى يمكن وضعه على مشرحه النقد شأنه شأن كتابات البشر ، سواء بسواء، لقد حاول هذه المحاولة الدكتور طه حسين ، وذهب توفيق الحكيم خطوة أوسع نحوها، ولكن يجب أن نعلم أنه ما أبعد وجوه الخلاف بين نظرة الغرب إلى كتبه المقدسة التى كتبها الأحبار والرهبان وبين نظرة المسلمين إلى القرآن المنزل بالوحى والذى ما يزال النص الموثق الذى لم يصبه أدنى تغيير أو تحريف بالإضافه أو الحذف والذى يسمو ويعلو عن أن يتجرأ عليه علمانى أو مُغَرَّبٌ على أن يطالب بنقده وهو كلام الله تبارك وتعالى رب العالمين الذى أعجز العرب وما يزال يعجز الفصحاء فى كل عصر عن أن يأتوا بسورة من مثله .

فالقرآن والإسلام والنبوة والوحى كلها أمور لا يمكن أن توصف بأنها (سلطة الماضى) أو أنها (شىء قديم) أو أنه تراث يمكن الأخذ منه والترك ، وإذا كان الغرب وعلماؤه وكتابه قد خاضوا فى هذه الأمور بالنسبة لتراثهم وأساطيرهم

وكتبهم التى كشف علماء اللاهوت عن تجاوزات فى توارثها ومراجعاتها فإنه لمن المحزن الداعى إلى الألم الشديد أن يحفل كتاب مسلمون دارسوا الفكر الغربى بهذه التجاوزات ويحاولون نقلها إلى أفق الفكر الإسلامى ، بينما كان الأمل أن تكون أمانة القلم لديهم حافزة إلى أن يقدموا لنا خير ما فى الفكر الغربى من معطيات تحفزنا إلى فهم وجة نظر الأمم المتقدمة فى مجال العلوم التجريبية .

هذا وبالله التوفيق .

أنور الجندى